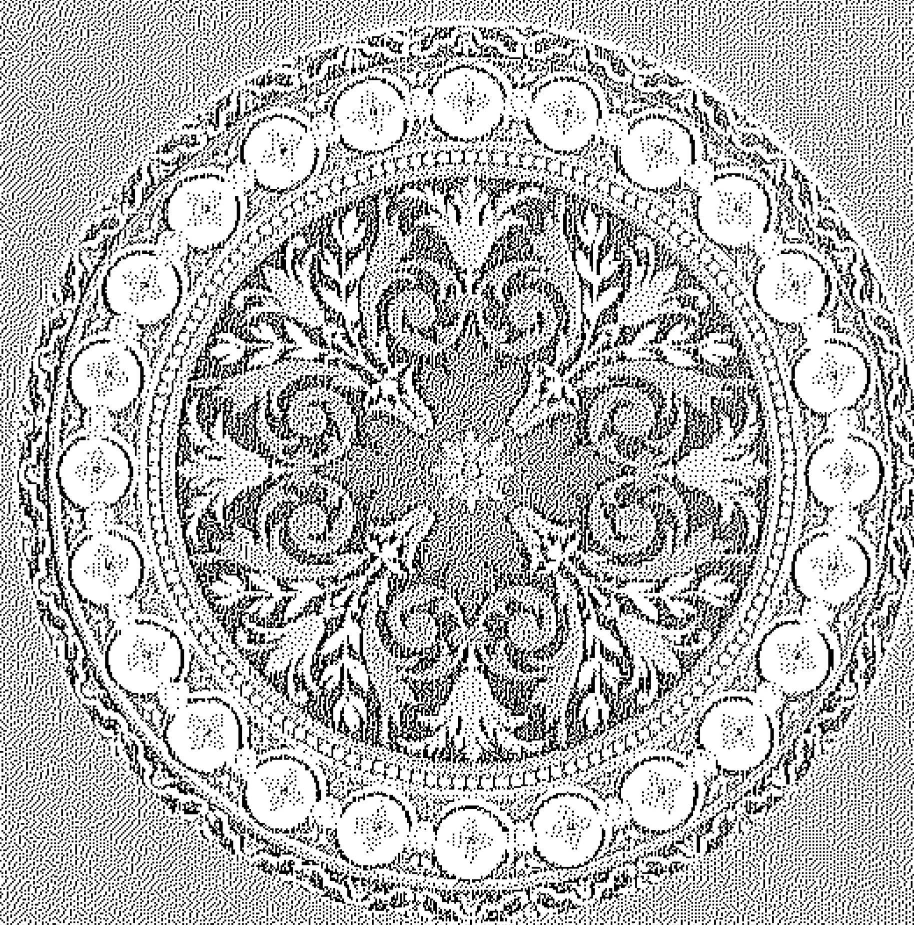
الدكتـور مهـدي امبيرش

نظرات في الدّين



دار الملتقى
للطباعة والنشر

الدكتور مهدي امبيرش

نظرات في الدين

دار الملتقى
للطباعة والنشر

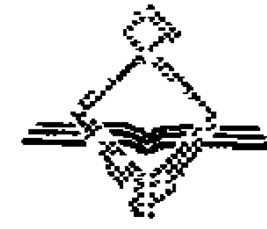
د/مهدي ابيرش

نظرات في الدين

الطبعة الأولى

ناصر - يوليو - 2001 م

الناشر



دار الملتقى للطباعة والنشر
ليماسول - قبرص - ص. ب: 6527

دار الملتقى لخدمات الكتاب
بيروت - لبنان - ص. ب: 136582

Internet: www.al-multakapublishing.com
E-mail: multaka@cyberia.net.lb

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقدّمة

تحديد مفاهيم الأسماء، وكذا أسماء المفاهيم من المشاكل التي واجهت وتواجه الباحثين والدارسين سواء في مجال اللغات وعلومها، أو مجال التفسير والمنطق أو في ميادين العلوم الأخرى ويبدو أن هذا التحدي أبدي وأزلي وربما تأتي قصة تحدي الملائكة على الإتيان بأسماء للمسميات والتي يعرضها القرآن الكريم في سورة البقرة دليلاً على أن هذه المشكلة ليس بالأمر السهل إيجاد حلّ لها دون مراعاة الدقّة وإعمال الفكر وإدامة النظر وفوق هذا وذاك عدم التمحل إذا عجزت الألفاظ في اللغة على استيفاء حق المعاني خاصة في مجال النقل من اللغات الأخرى.

يقول تعالى في هذا المقام **﴿وعلّم آدم الأسماء كلّها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علّمتنا إنك انت العليم الحكيم * قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السمٰوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾** [سورة البقرة الآيات 30-32].

ولو أن المجال مجال بحث في هذه الآيات لسقنا جملة من الدروس التي يمكن لنا أن نستفيدها منها ولكن حسبنا أننا وضحنا من خلالها أن هذه المشكلة وأقصد بها مشكلة الأسماء والمسميات مشكلة أزلية وأن اختيار آدم يدل على ثقل

الأمانة التي وضعت على كاهل بنيه في مجال العمل من أجل الإبانة والتوضيح والتي هي رسالة لا ينهض بها إلّا من آتاه اللّه عزماً وقيّض له من أمره رشداً.

إن أهمية التحديد والتوضيح ضرورة من ضرورات المعرفة كما أن المعرفة أساس للتعقل الذي هو نعمة أنعم اللّه بها على الإنسان دون سواه من المخلوقات التي هي أدنى، كما أن التعقل من شأنه أن يقود إلى الاختيار وبالتالي إلى إرادة الفعل، وفعل الإرادة، والاختيار، والإرادة والفعل كلها درجات في طريق كمال إنسانية الإنسان[1].

فإذا أردنا أن نضرب مثلاً على الجهد الذي بذله المفكرون في مجال تحديد مفاهيم الأسماء، وأسماء المفاهيم فإننا نشير إلى ذلك الصراع الذي دارت رحاه بين الفيلسوف اليوناني الشهير سقراط وبين خصومه من السوفسطائيين[*] «والذي سجلته تلك المحاورات المعروفة التي صاغها أفلاطون تلميذ هذا الفيلسوف الكبير». وعلى الرغم من أن الصراع في بدايته كان حول قضية الصيرورة والديمومة وهي قضية سبقت سقراط بل وسبقت اليونانيين بعامة وكان لها صداها في الفكر الشرقي إلّا أن هذه القضية قادت إلى معركة الأسماء والمسميات، فالسوفسطائيّون معلمو الجماهير «فن القول وجمال العبارة» كانوا لا يؤمنون بالثبات والديمومة التي من شأنها أن تقود في النهاية إلى القول بثبات القِيَم. إذ يرون أن الإنسان بامتلاكه ناصية البيان. وإجادته فن سبك العبارات، وإتقانه اختيار الألفاظ يكون في مقدوره البرهنة على أن ما اصطلح عليه بأنه حق باطلاً وأن ما عرف بأنه باطل حقاً.

ويبدو أن العصر كان لصالح السوفسطائيين بل ولصالح النسبية فقد تمكن هؤلاء السوفسطائيون وأنصارهم من ترويج تهمة الزندقة والتجديف بحق الآلهة وإلصاقها بسقراط. ولأنه رفض أن يتبنّى منهج خصومه ليدافع عن نفسه أمام «محكمة الشعب الأثينية» ورفض التلاعب بالألفاظ وآثر أن يقدم الحقيقة كما هي

---

(1) راجع كتابنا، نحو الإنسان الكامل، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، الجماهيرية/ 87.

(*) السوفسطائيون/ لقب اتخذه هؤلاء لأنفسهم ومعناه المعلمون حيث أنهم كانوا يدعون أنهم معلمو الجماهير فن القول.

وكما يؤمن بها فقد ذهب ضحية المبدأ حيث قررت محكمة «الديماغوجيين»(*) الذين بهرهم منطق السوفسطائيين إعطاء خيار لسقراط بين التنازل عن أفكاره أو تجرع السم أي إعدامه جسداً أو مبدأ بمعنى أن يعلن التخلي عن مبادئه فيموت فكراً ويحيا بدناً أو يقرر الانتصار للمبدأ فيذهب جسداً ويبقى أثراً وذكراً وهنا يقرر الفيلسوف الكبير قبول الموت الجسدي بتجرع السم على التضحية بأفكاره ومبادئه وبهذا الاختيار عاش سقراط ومات محاكموه!!.

لقد صورت المحاورات كما صاغها تلميذه أفلاطون مشاهد من الجدل الذي دار بين سقراط والسوفسطائيين. وما يهمنا فيها أن سقراط كان يلجأ وباستمرار إلى محاربة خصومه بسلاحهم فلأنهم ادعوا معرفة اللغة والبراعة في استخدام الألفاظ فإنه كثيراً ما كان يسألهم عن المعاني أو المفاهيم التي يحدثها هذا اللفظ أو ذاك في عقولهم.

لقد أثر إعدام سقراط بهذا الشكل المأسوي في نفس تلميذه أفلاطون وجعله يتخذ موقفاً معارضاً من «الديمقراطية الأثينية»(**) ويضع جمهورية الفلاسفة محلها فهذه «الديمقراطية» هي التي ذهبت بحياة فيلسوف كبير كسقراط حقّه أن يكون على رأس جمهورية الفلاسفة كما رسمها أفلاطون، وحتى يخرج من مشكلة صيرورة الظواهر والموجودات المادية رغم اعترافه بظاهر الصيرورة فإنه أتى بفكرة غريبة ولكنها طريفة إذ أنه أنكر الوجود الحقيقي لهذه المتغيرات واعتبرها وهماً فما نراه أمامنا ليس الحقيقة بل صورة لها إذ أن الحقيقة هي التي في عالم المثل. وجاء «بمثال الكهف» ليقرب هذه الفكرة إلى الأذهان. غير أنه أكد أن الوصول إلى الحقيقة ليس بالأمر الهيّن أو المطلب اليسير فليس غير الفلاسفة بقادر على ذلك فهم وحدهم عن طريق ما أسماه «الجدل الصاعد والجدل الهابط يستطيعون ذلك. وقد أثرت نظرية المثل هذه في الأدب والنقد واللغة وعلم الدلالة تأثيراً كبيراً.

(*) الديماغوجية/ Demagogy: كلمة يونانية تعني الحكم غير الخاضع لقوانين.

(**) الديمقراطية/ مصطلح يوناني قديم يعني سلطة الشعب. إلا أن الشعب لا يعني عندهم كل الجماهير بل السادة فقط فالعبيد والنساء لم يكونوا ضمن الشعب فهي ديمقراطية السادة أو ديمقراطية الارستقراطية إذا جاز التعبير.

إن هذه المقدمة على ما فيها من إطناب أرى أنها ضرورية لهذه المحاولة التي اخترت أن أسميها «نظرات في الدين والحياة والأدب» والذي دفعني إليها تحريض أصدقاء أكن لهم كل مودة وتقدير كانوا يقرؤون مقالاتي في بعض الصحف والمجلات فاقترحوا أن يجمعها كتاب واحد، ولأنني لست من هواة تجميع المقالات فإنني لم أحتفظ بأي منها ولم يبق لي سوى أفكارها الرئيسة التي رأيت أن أدونها في هذه المحاولة. فإلى هؤلاء الإخوة كل شكر على اهتمامهم وتشجيعهم.

ولكن ربما تساءل البعض عن اختيار هذه التسمية، وسر هذا الترتيب فذلك مبعثه أنني أعتبر ما أقوله نظرات متواضعة قابلة للنقاش كما هي قابلة كذلك للرفض وربما التغيير إذا اتضح لي أنها خاطئة أو قاصرة، هذا علاوة على أنها أي النظرات تتميز بالقصر والمحدودية،الأمر الذي يسهل قراءتها والإلمام بها بخلاف المؤلفات المطولة التي ربما تحتاج إلى كثير من الجهد كي يلم القارىء الكريم بمضمونها، وهذا نتاج تجربة شخصية لي سواء في مجال الكتابة أو القراءة. وربما كانت هذه النظرات مجالاً لبعض الباحثين كي يطوروها بما يخدم الهدف الذي من أجله كانت هذه النظرات أصلاً.

أمّا بخصوص الترتيب «الدين ـ الحياة ـ الأدب» فإن الواو هنا ليست واو النجاة!! فهي هنا تفيد ترتيباً وتعقيباً. فالدين هو الذي يرسم معالم الحياة الإنسانية السليمة وبالشكل الذي يؤكد خصوصيات الجماعات البشرية، والأدب هو الذي يصوّر هذه الحياة بحلقات زمانها الثلاث(*) وبمقدار الفهم الصحيح للدين، والسلوك الإنساني السليم في الحياة يستطيع الأدب أن يصوّر هذه الحياة وأن يعبر عن حقيقتها وأن يسهم في رسم ملامح مستقبلها.

وحتى أحاول قدر الإمكان الخروج من مشكلة تحديد مفاهيم الألفاظ التي أشرت إليها في المقدمة والتي هي مقصد هذه النظرات رأيت الاعتماد على

(*) سوف أتناول مفهوم حلقات الزمان الثلاث في نظرة قادمة.

معاجم اللغة، ودوائر المعارف، وقبل هذا وذاك القرآن الكريم باعتباره المصدر الأساس لهذه المحاولة.

فقد اعتمدت «لسان العرب» لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، بالإضافة إلى الاستعانة «بالقاموس المحيط» لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي هذا بالإضافة إلى قاموسين إنجليزيين يكثر استعمالهما بين الدارسين والباحثين وهما قاموس Webster وقاموس The American Heritage بالإضافة إلى محاولة الاستفادة كلما اقتضت الضرورة من دائرة المعارف البريطانية Encyclopedia Britannica، ودائرة المعارف الأمريكية (Encyclopedia Americana) بالإضافة إلى دائرة المعارف الدولية (Encyclopedia International) والغرض من هذا التنويع معرفة أصول الكثير من المصطلحات الأجنبية والقضايا الفكرية التي حاول البعض ترجمتها إلى العربية ترجمة لم تكن في بعض الأحيان موفقة فأدت إلى اللبس وعدم الوضوح وربما الإساءة إلى هذه المصطلحات وتحميلها مفاهيم لم يكن أصحابها يقصدونها أصلاً.

كما رأيت في مجال انتقال الألفاظ والمصطلحات وتطور الدلالات أن استخدم بعض المعاجم في اللغة الفارسية كلما دعت الحاجة إلى ذلك ورأيت اختيارها لأمرين: الأول أنها تمثل نموذجاً للغات الهند أوروبية بما في هذه اللغات من خصائص. والثاني لأنها نموذج لالتقاء هذه اللغة الأعجمية باللغة العربية وخاصة في المرحلة الثالثة من مراحل تطورها وهي المرحلة الدرية.

هذا الالتقاء الذي أثرى هذه اللغة بجملة من الألفاظ العربية والدلالات الإسلامية هذا بالإضافة إلى بعض المراجع والمعاجم التي رأيت الاستعانة بها ضرورية.

ورغم كل هذه المحاولات فإنني لا أدعي العلم والإحاطة ويبقى للقارىء الكريم دور الإضافة والحذف والتكميل فمهمة الجميع الوصول إلى الحقيقة.

والله من وراء القصد.

نظَرات في الدّيـن
مَا الدّيـن؟

يترجم بعض الباحثين كلمة دين العربية إلى Religion في اللغة الانجليزية وفي اعتقادي أن هذه الترجمة غير دقيقة لأن مفهوم دين كما تحدده معاجم اللغة العربية وكما تناوله القرآن أكثر شمولاً من المعنى الذي يعطيه لفظ Religion الأجنبي وحتى تتضح هذه الحقيقة أرى من الضرورة أن أستعرض الفرق بين المعنيين.

يقول ابن منظور «الدين: العادة والديدن ويستشهد لذلك بقول المثقب العبدي:

تقــول إذا درأت لهـا وضيني أهــذا ديـنــه أبــداً وديــنــي

كما يورد للدين معنى الإذلال، والاستعباد ويستشهد لذلك بقوله صلّى اللّه عليه وسلّم: «الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على اللّه» قال أبو عبيدة: قوله دان نفسه أي أذلّها واستعبدها، وقيل حاسبها. يقال: دنت القوم أدينهُم إذا فعلت ذلك بهم. قال الأعشى يمتدح رجلاً:

هو دان الرباب إذا كرهـوا الدين بغـزوة وصيال
ثم دانت بعد الرباب وكانت كعذاب عقوبة الأقوال .

قال: هو دان الرباب: أي أذلّها، ثم قال: دانت الرباب أي ذلت له وأطاعته، والدين للّه من هذا إنما هو طاعته والتعبد له. ودانه ديناً أي أذلّه واستعبده.

ويضيف ابن منظور إلى آن الدين دلالة الجزاء، والقضاء، والسياسة وللمعنى الأخير يستشهد بقول الحطيئة: لقد دينت أمر بنيك حتى تركتهم أدق من الطحين[1].

وقاموس العيد الفارسي لا يخرج عن المعاني السابقة وهو ينقل معاني الدين إلى الفارسية فهو يقول في ذلك «دين: ملت، مذهب، كيش، آيين، ورع، طاعات، حساب، پاداش، جزا، مكافات[2] «پايان» وكما تلاحظ فإن أغلب الدلالات دلالات عربية لا تخرج الألفاظ الفارسية عنها. فكيش تعني: دين، مذهب، رسوم «عادات». وآيين تعني: منهج، عادة، سلوك. أما كلمة پايان فهي: النهاية، العاقبة الخاتمة[3].

لقد وردت جميع الدلالات التي سبقت الإشارة إليها عن ابن منظور في القرآن الكريم ولا غرو فالقرآن الكريم جاء بلغة العرب وعلى قياسهم **﴿وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين﴾** [الشعراء 192-195] كما جاء مؤكدا سلامة هذا اللسان من العجمة وتميزه دون غيره بالإفصاح وإبانة ووضوح المعنى وشمول الدلالة **﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾** [النمل 103] فجاءت دلالة دين بمعنى العادة والدأب في قوله تعالى في سورة غافر على لسان فرعون **﴿وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾** [26] كما وردت دلالة الدين بمعنى الجزاء والحساب في عدة آيات أذكر منها على سبيل

---

(1) جمال الدين، محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، جزء 3، ص 169-170 ـ دار صادر ـ بيروت.

(2) حسن عميد، فرهنگ فارسي عميد، الجزء الأول، ط 6، ص 994، امير كبير، طهران 1985.

(3) راجع: عبد المنعم محمد حسنين، قاموس الفارسية، ط 1، دار الكتاب اللبناني بيروت، 1982.

الشاهد: (سورة الفاتحة)، الحجر، الشعراء، الصافات، الذاريات. . . .».

وبمعنى الخضوع والمديونة، والطاعة **﴿قل الله أعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين﴾** [الزمر 14 ـ 15]

فالمعنى، «مخلصاً له ديني أي مخلصاً له خضوعي وعبادتي». .

فإذا حاولنا الاستعانة بالمعاجم الأجنبية ودوائر المعارف في تحديد معنى كلمة Religion التي ترجمت عندنا إلى دين وينقل إليها فقط«دين»العربي نجد أن قاموس **Webster** يشير إلى أن هذه الكلمة جاءت من الأصل اليوناني (elego) والتي تعني (to head) أي ينتبه كما يذكر أنها مركبة من (Re) وهي بادئة بمعنى «مرة أخرى ـ أو من جديد ـ أو إعادة» مضاف إليه الجذر المعجمي الذي يدل على المعاني الآتية: ينتبه ـ يلتفت إلى وهو المعنى الأصلي الذي نجده في الأصل اليوناني بالإضافة إلى دلالات مكتسبة تم إضافتها بحكم الثقافة المسيحية «وتعني: التبجيل، التوقير فلفظة reverence، مثلاً كانت تستعمل لقباً للكاهن المسيحي»(1).

أمّا دائرة المعارف الأمريكية فإنها تصدمنا منذ البداية بالقول «إن كلمة Religion لم يتم الاتفاق على تحديد معنى لها. فالفلاسفة، وعلماء الاجتماع، وعلماء النفس، واللاهوت وغيرهم ممن لهم اهتمام بجوانب الحياة يعطي كل منهم تفسيراً لها حسب ما يخدم هواه»(2).

وعدا هذه النبذة التي تعطيها دائرة المعارف الأمريكية فإننا نجدها شأنها شأن دائرة المعارف البريطانية تغرق في تفصيلات لا تفيد في خدمة الهدف الذي حاولنا الوصول إليه من خلال الرجوع إليها.

---

(1) Virginia S. Thatcher & Ales cander mcqueen, the new webster - Dictionary. Consolidated Book Publishers for Educational Book - Club. INC.

(2) The Encyclopedia Americana, International Edition, Vo, 23, P. 342, Library of congress, U.S.A. 1979.

كما يلاحظ أن المعاني التي قدمها قاموس Webster والتي لا يخرج عنها قاموس «The American Heritage» تؤكد لنا أن مفهوم Religion لا يكفي لتغطية الدلالات التي يعطيها لفظ «دين» في اللغة العربية سواء الدلالات اللغوية الأصلية أو الدلالات التي أضافها القرآن والتي هي الأخرى تؤكد هذه الدلالات اللغوية[2]. ومن هنا فإن الأفضل عند الترجمة من وإلى العربية أن يستخدم لفظ «دين» كما هو وأن تتم إضافة الدلالات بالشكل الذي يمكن غير العرب من الإحاطة بها وهو ما يسمى باللغة الإنجليزية (definition) وهذه وسيلة تظل الأقرب إلى أمانة النقل وصدق الترجمة.

The American Heritage, Houghton mifflin company P. 1044, Boston, U.S.A. (1)

النظرة الأولى

إنّ الدّين عندَ اللّه الإسلام

يقع الكثير من المفسرين للقرآن الكريم والباحثين في علومه في خطأ جوهري ربما يمسّ العقيدة أصلاً ذلك أنهم يعتبرون الإسلام هو فقط ما جاء به الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم وينسون أو يتناسون أن الدين دين واحد وأن مشيئة اللّه قد اقتضت أن يكون الرُسل جميعاً رسلاً لهذا الدين الواحد مع اختلاف شرائعهم وأن مهمة كل واحد منهم إضافة لبنات إلى هذا البنـاء الذي تم اكتماله بشريعة القرآن الإسلامية وقد وقع المخططون للتعليم في الجامعات الإسلامية في هذا الخطأ حيث جعلوا في هذه الجامعات أقساماً أسموها «أقسام الأديان المقارنة» وهم يقصدون بذلك الشرائع المقارنة مع الفارق الكبير بين الشرائع والدين أي بين الوسائل والغاية، بل ربما قـرأت لهؤلاء المتخصصين كتباً ودراسات تحمل عنوان «الأديان المقارنة» وهم يقصدون بذلك رسالات موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

إن القرآن الكريم يؤكد في أكثر من موضع أن الأنبياء والرُسل جميعاً مسلمون وأن رسالاتهم كلها جاءت تكمل صرح هذا الدين الإلٰهي الواحد. يقول تعالى في سورة البقرة **﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربّنا تقبّل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾** [الآيتين 126-127].

وفي سورة آل عمران **﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً**

مسلماً وما كان من المشركين﴾ [الآية 66].

وفي سورة البقرة يقول تعالى **﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين * إذا قال له ربّه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * وأوصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن اللّه اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلاّ وأنتم مسلمون * أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلٰهك وإلٰه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلٰهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾** [الآيات 129-132].

في سورة يونس يؤكد الحق تبارك وتعالى على أن موسى عليه السلام نبي الإسلام وأنه أرسله يدعو قومه إلى هذا الدين القويم **﴿وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم باللّه فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾** [الآية 84].

وفي سورة آل عمران على لسان عيسى عليه السلام **﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى اللّه قال الحواريّون نحن أنصار اللّه آمنّا باللّه واشهد بأنا مسلمون﴾** [الآية 52].

كما يوضح الحقّ تبارك وتعالى أن أتباع محمد صلّى اللّه عليه وسلّم هم أتباع هذا الدين الإسلامي الواحد وأن أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام هو الذي سمى أتباع هذا الدين جميعاً بالمسلمين. يقول تعالى في سورة الحج، **﴿وجاهدوا في اللّه حقّ جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا باللّه هو مولاكم فنعم المولى ونِعم النصير﴾** [الحج الآية 76].

إن هذه الأيات القرآنية جميعها تؤكد أن الدين واحد وأن الاختلاف في هذا الدين كفر وضلالة يتحمل مرتكبوه وزر انتهاجه **﴿إن الدين عند اللّه الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلاّ من بعدما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات اللّه فإن اللّه سريع الحساب﴾** [آل عمران 30].

إن أتباع شريعة القرآن الإسلامية مطالبون بالاعتقاد بالدين الواحد وإن

أياً لا يؤمن بذلك أي لا يؤمن بالدين الواحد وأن الرسل جميعاً هم رسل هذا الدين فإن اعتقاده باطل ومردود عليه ولن يقبل منه، يقول عز من قائل في سورة آل عمران ﴿**قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيّون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون * ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾ [الآيتان 83، 84].

اليَهودية والنصرَانية بدعَة

قال صلى الله عليه وسلم:
«يولد الإنسان على الفطرة وإنما والداه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

الإسلام دين الفطرة السليمة جاءت جميع شرائع الأنبياء المسلمين لتؤكدها وإن أي خروج على الفطرة هو خروج على الإسلام. وحديث الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم يؤكد أن اليهودية والنصرانية شأنها شأن المجوسية تدخل في مجال الانحراف والبدعة الضالة.

وقبل أن أحلّل هذه النظرة أرى من الواجب الوقوف عند نقطة تناولتها عرضاً في النظرة السابقة وهي الفرق بين الشريعة والدين. فالشريعة وسيلة بناء الإنسان المسلم أي إنسان الفطرة وهي بما تحويه من أوامر ونواه من شأنها أن تخلق الإنسان المتدين كما أن ما تحويه من عقوبات وإن كانت وسائل لا غايات هي من أجل إعادة الخارجين عن الفطرة. إن الجهل في بالتفريق بين الشرائع باعتبارها وسائل والدين باعتباره غاية هو الذي أوجد هذه الصراعات بين المسلمين أتباع الدين الواحد وإن اختلفت شرائعهم. كما أن التحريف في الشرائع، وتزوير تعاليمها هو الذي أدى إلى ظهور اليهودية والنصرانية باعتبارهما مظهرين من مظاهر الابتداع والتحريف ولولا ذلك لآمن أتباع موسى بما جاء به عيسى ولآمن أتباعهم بما جاء به الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ذلك أن موسى

وعيسى والرسول عليهم السلام جاؤوا جميعاً بالإسلام وأن الشرائع كلها لولا ما تعرضت له من تحريف لا تتعارض في أصولها مع القرآن الكريم، فهي جميعاً من هذا الدين الواحد.

يقول تعالى في سورة الشورى **﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه اللّه يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾** [الآية11].

فهذه الآية توضح أن الشرائع جميعها جاءت لتؤكد حقيقة الدين الواحد وأنها كلها من أجل إقامة الدين «لا الأديان» وعدم التفرق فيه كما أوضحت أن المعارضين لهذا المنهج التوحيدي هم مشركون لأنهم يرفضون هذه الحقيقة الأزلية الأبدية وبالتالي يكفرون بما جاء به الرسل الذين يدعي هؤلاء أنهم أتباعهم.

إن القرآن الكريم من أجل إقامة الحجة على هؤلاء يطرح أرضية للحوار الإسلامي الذي لا يرفضه إلا كل مشرك مكابر **﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلّا اللّه ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون اللّه فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾** [آل عمران 63].

فهل هناك بعد هذا أساس للحوار لو تخلص هؤلاء من ثقافة التحريف التي علقت بتعاليم التوراة والإنجيل؟!.

إن القرآن الكريم يؤكد أن اليهودية والنصرانية انحراف وخروج عن الإسلام الذي أكدته التوراة والإنجيل والقرآن،يقول عز من قائل:

﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل واللّه أعلم بأعدائكم وكفى باللّه ولياً وكفى باللّه نصيراً * من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا لياً بألسنتهم وطعناً في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم اللّه بكفرهم فلا يؤمنون إلّا قليلاً * يا

أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر اللّه مفعولاً﴾ [النساء 44 : 47].

فهذه الآيات الكريمة توضح أنهم هم الذين هادوا كما توضح أنهم أعداء للمؤمنين، وأنهم يحرفون الكلم السماوي عن مواضعه وأنهم كفار ملعونون بكفرهم، وأن ما يقومون به طعن في الدين وتزوير له.

وما قاله تعالى في حقّ الذين هادوا قاله كذلك في حق الذين قالوا «إنا نصارى» يقول تعالى **﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم اللّه بما كانوا يصنعون * يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير * قد جاءكم من اللّه نور وكتاب مبين﴾** [المائدة 15-17].

وكما أكّد اللّه أن اليهودية بدعة ابتدعها الذين هادوا أكّد كذلك أن النصرانية هي الأخرى صناعة وتحريف،فهم الذين «قالوا إنا نصارى» أي أن اللّه لم يقل إنهم نصارى.

إن هؤلاء اليهود والنصارى المنحرفين عن الإسلام وبدافع العناد والكبرياء يدعون أنهم وحدهم على الحق وأنه لن يدخل الجنة إلاّ من كان من أتباعهم **﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾** [البقرة 115].

ويقول الحقّ تبارك وتعالى مسفهاً منطقهم المعاند المدعي **﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين * قولوا آمنا باللّه وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيّون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾** [البقرة 134-135].

التّفسير وَالتأويل

يقول ابن منظور تحت مادة فسر «الفسر: البيان. فسر الشيء يفسره، بالكسر، ويفسره بالضمة فسراً وفسرة: إبانة، والتفسير مثله. ابن الأعرابي: التفسير والتأويل والمعنى واحد. وقوله عز وجل: وأحسن تفسيراً، الفسر: كشف المغطى، والتفسير كشف المراد من اللفظ والمشكل، والتأويل رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر. واستفسره كذا أي سألته أن يفسره لي.

والفسر: نظر الطبيب إلى الماء، وكذلك التفسرة.. وقيل التفسرة البول الذي يستدل به على المرض وينظر فيه الأطباء يستدلّون بلونه على علة العليل»[1].

وفي قاموس «فرهنك عميد الفارسي» «تفسيراً، معنى كلامى رابيان كردن، واضح وآشكار ساختن معنى سخن، شرح وبيان، تفاسير جمع. علم تفسير، علم بيان كردن وتوضيح دادن معانى آيات قرآن»[2] «بيان كردن» توضيح وإبانة... آشكار: واضح، بارز.. ساختن معنى سخن «بناء معنى الكلام».

---

(1) ابن منظور، المصدر السابق، جـ 5 ص 55.
(2) حسن عميد، المرجع السابق، ص، جـ ص 586.

وفي مادة تأويل يقول قاموس عميد «تأويل: بازگشت كردن از جيزى، بازگردانيدن، گردانيدن كلام وبر خلاف ظاهر معنى كردن آن، تعبير وتفسير باطن كلام، شرح وبيان»[1] ومعنى قله: «بازگشت ـ بازگردانيدن ـ گردانيدن. . كلها تعني التحويل ـ التسليم ـ الإعادة».

وكما هو واضح أن التفسير يعني الكشف والإيضاح، والتأويل يعني الرد في «لسان العرب» أو الإرجاع والإعادة كما هو في القاموس الفارسي. . فالتأويل مشتق من الأول: أي إعادة الشيء إلى أوله. فهل يحتاج القرآن إلى تفسير. . وهل يجوز فيه التأويل؟.

قبل أن أوضح نظرتي في هذا الموضوع لا بد أن أعرض جملة من الآيات القرآنية تكفي وحدها للإجابة عن هذين السؤالين.

أولاً: يؤكد القرآن الكريم أن اللّٰه سبحانه وتعالى قد يسّر القرآن للذكر وقد وردت مادة تيسير القرآن للذكر في ستة مواضع أربعة منها في سورة القمر، وواحدة في سورة الدخان، والأخرى في سورة مريم.

يقول تعالى في سورة القمر:

﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر * كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر﴾ [17-18] ويقول عز من قائل **﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر * كذبت ثمود بالنذر﴾** [22-23] ويقول الحق تبارك وتعالى **﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر * كذبت قوم لوط بالنذر﴾ [32 ـ 33]** ويقول تعالى **﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر * ولقد جاء آلَ فرعون النذر﴾ [40 ـ 41]** وفي سورة مريم **﴿فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً﴾ [97]** وفي سورة الدخان **﴿فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون * فارتقب إنهم مرتقبون﴾ [55 ـ 56].**

فكيف يكون القرآن ميسراً للذكر وبلسان الرسول العربي ولقوم يتكلمون

---

(1) حسن عميد، المرجع السابق، ص، جـ ص 532.

العربية ثم يحتاج إلى تفسير وتوضيح؟.

إن القرآن أكد في أكثر من موضع أن الآيات الكريمة واضحة وبينة وأن القرآن الكريم كتاب فصلت آياته بل إن في القرآن سورة كاملة تحمل اسم «فصلت» يقول تعالى **﴿حم تنزيل الرَّحمن الرَّحيم * كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون * بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون﴾** [الآيات 1 ـ 3].

ولك أن تتدبر مجيء اسمين من أسماء اللّه الحسنى «الرَّحمن والرحيم» بعد التنزيل وهو القرآن. . أليست رحمة اللّه أن يكون القرآن كتاباً فصلت آياته حتى لا يكلف هؤلاء العرب مشقة التفسير. . . ثم قوله تعالى **﴿لقوم يعلمون﴾**. . السؤال يعلمون ماذا؟ إنهم يعلمون لغة القرآن التي هي لغتهم. ولي أن أذكر في هذا المجال بعضاً من الآيات التي تؤكد أن القرآن الكريم بين واضح في ذاته ومبين وموضح لكل شيء وذلك على سبيل الاستشهاد فقط» يقول تعالى فى سورة الأحقاف **﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين﴾** [آية 6]، وفي سورة الطلاق. . . **﴿رسولاً يتلو عليكم آيات اللّه مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن باللّه ويعمل صالحاً ندخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن اللّه له رزقاً﴾** [الآية 11].

والقرآن الكريم ليس بيّناً واضحاً فحسب بل هو تبيان لكل شيء يقول تعالى في سورة النحل: **﴿ويوم نبعث في كل أمّة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾** [الآية 89].

فكيف يكون القرآن تبياناً لكل شيء وهو في ذاته محتاج إلى إبانة. . ثم كيف يكون هادياً وهو غير واضح، ثم كيف يكون رحمة وهو صعب الفهم مغلق المعاني. . إن الآيات القرآنية تؤكد أن القرآن الكريم مبين واضح لا يحتاج إلى تفسير.

إن تفسير القرآن لم يظهر إبان كان العرب عارفين بلغتهم ولكن بعد أن دب الضعف إليهم أصبحوا عرباً قوماً عجماً لساناً وأصبحوا مثلهم مثل العجم في حاجة إلى من يفسر لهم معاني الألفاظ حتى يفهموها إذاً فالمشكلة تكمن في العرب لا في القرآن. وهذه المشكلة هي التي جعلت أهل الهوى وأصحاب الفرق والمذاهب يتسلّلون في غفلة من أهل اللغة يستغلون ضعفهم السياسي والاجتماعي الذي أدّى إلى الضعف الثقافي فيقدمون إليهم ما سمي بكتب التفسير وكلها محشوة بآراء وأفكار هذه الفرق والمذاهب التي لم تتآمر على لغة القرآن وتشوه معاني ألفاظه بل تجرأت على اللّه سبحانه وتعالى وادعت أن معاني القرآن مغلقة وفيها باطن وظاهر ولا بد من تأويل الباطن. . أي أنهم لم يقفوا فقطعند ما ادعوه بغموض **ألفاظ القرآن وعدم وضوحها بل تبلغت بهم الجرأة** والعياذ باللّه إلى حد البهتان بقولهم أن اللّه سبحانه وتعالى لم يستطع أن يوضح ما يريد أن يقوله وأنهم أكثر قدرة وفي استطاعتهم أن يردوا المعاني إلى أولها أي يؤولون القرآن لذا يقولون إن اللّه يقصد بهذه الآية كذا. . . أو أن هذه الآية يقصد بها فلان. . . أو هي في حقّ فلان. . إلى آخر ذلك وكأنهم كانوا معه تعالى وهو ينزل القرآن على رسوله **﴿إن اللّه لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد اللّه بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلاّ الفاسقين﴾** [البقرة 25] **﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به اللّه ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم وإن الظالمين لهم عذاب أليم﴾** [الشورى 20].

إنها بحق مؤامرة شنيعة ومغرضة لا بد من التنبه لها ورفضها وتحريض جماهير المسلمين ضدها حتى يتم فضح هؤلاء الأدعياء وأعوانهم.

إن هؤلاء المغرضين وأهل الهوى الذين يحرفون القرآن عن مواضعه ويلجؤون إلى التأويل حتى لا تنكشف مؤامراتهم وحيلهم يحاولون خداع البسطاء والادعاء أن من حق الراسخين في العلم تأويل القرآن ويستشهدون لذلك بآية قرآنية هي وحدها كافية لفضح ادعائهم وكذبهم يقول تعالى في سورة آل عمران **﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر**

متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلّا اللّه والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلّا أولوا الألباب * ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾ [الآيتان 7-8] فهذه الآية تؤكد على الحقائق الآتية:

أ ـ أن في القرآن آيات محكمات لفظاً ومعنى هن أم الكتاب وأساس التشريع.

ب ـ أن في القرآن آيات متشابهات وهي فتنة لمرضى القلوب ودعاة الفرقة.

جـ ـ أن الذين في قلوبهم زيغ هم الذين يتركون الآيات المحكمات ويذهبون إلى المتشابهات وهدفهم من ذلك الفتنة وخلق البلبلة في صفوف المسلمين وتشتيت صفوفهم وكذلك من أجل أن يؤولوه خدمة لأهدافهم الشيطانية.

د ـ أن تأويل المتشابه لا يعلمه إلّا اللّه وحده لأنه هو الأول والآخر وهو العليم بما أنزل.

هـ ـ أن الراسخين في العلم يؤمنون بالمحكم والمتشابه باعتباره جميعاً من عند اللّه ولا يحاولون تأويل المتشابه.

و ـ أن أصحاب العقول الواعية المؤمنة هم وحدهم فقط الذين يتذكرون هذه الحقائق.

ز ـ أن الآية التي تتلوها فيها دعاء يجب أن يتوجه به كل مؤمن للّه تعالى بألا يزغ قلبه بعد الهداية فيجعله ممن يحاولون تأويل المتشابه ابتغاء الفتنة وأن يهبهم اللّه الرحمة في الدنيا والأخرة فلا يقعون في شرك الفتنة وحبائل الشيطان.

هناك نقطة يجب توضيحها وهي أن هؤلاء المشككين الذين يقومون بتأويل القرآن نجدهم عند الاستشهاد بهذه الآية يقفون عند قوله تعالى **﴿وما يعلم تأويله إلّا اللّه والراسخون في العلم﴾**..

مع أن الآية الكريمة تقول والراسخون في العلم يقولون. فالواو في الراسخون للاستئناف وليس للعطف على اللّه وهي مبتدأ خبرها الجملة الفعلية يقولون.

إن معنى التأويل حسب الاشتقاق العودة إلى الأول والأول هو اللّه سبحانه وتعالى ﴿هو الأول والآخر الظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾ [الحديد 36] ودعاة التأويل يدعون أنهم يعلمون بهذا الأول وما يقصد «بالظاهر والباطن» بل يقولون إن الظاهر هو للعامة وإن الباطن هو للخاصة وفي هذا علاوة على ما فيه من تمحل وكذب وافتراء هو كفر والعياذ بالله وهو نتاج الثقافة القديمة التي يقول أصحابها بالحلول وإنهم والأول واحد ﴿قتل الخراصون * الذين هم في غمرة ساهون﴾ [الذاريات 10، 11] ﴿وتمت كلمات ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم * وإن تطع أكثر من الأرض يضلوك عن سبيل اللّه إن يتبعون إلّا الظن وإن هم إلّا يخرصون﴾ [الأنعام 116 ـ 117].

﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾.

الفتنة الكبرى

﴿آلـمٓ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ [العنكبوت 1، 2].

درج البعض على إطلاق مصطلح «الفتنة» على تلك الأحداث التي واكبت اغتيال عثمان بن عفّان رضي اللّه عنه وما تمخض عن هذه الحادثة المؤلمة من مضاعفات لا تزال تعصف شديداً بجسد هذه الأمة الذي تضرب فيه معاول أهل الكفر من الخارج، وتلتهمه نيران الفرق والمذاهب التي يسعرها أدعياء الإسلام من الداخل. على أن الكثيرين ممن حاولوا أن يحددوا أسبابها دخلوا أتون الأحداث بأقلام يحركها الهوى فكتبوا وهم إلى هؤلاء أو إلى هؤلاء فجاءت كتاباتهم لتضيف ظلالاً قاتمة تحجب الحقيقة عن أعين الباحثين عنها. وبعض آخر حاول أن يدلي بدلوه كما يقولون فكان رشا دلوه قصيراً لم يمكنه من أن يضرب عميقاً فيتجاوز الظواهر إلى أسبابها فجاء نزعه ضعيفاً وما في دلوه أضعف فتمسك به معتقداً السبق فأخذ يردد وبكل عناد ما وصل إليه من نتائج محاولاً فاشلاً أن يجعل الظواهر أسباباً... والجزئيات كلاً. أما نفر آخرون فآثروا «الاعتزال الموجب» على حد القول «الحياد الإيجابي» فلا هم اعتزلوا فأراحوا واستراحوا ولا هم أجهدوا أنفسهم وجاهدوها فكشفوا عن الحقيقة. بل آثروا التلميح والتعريض والتورية والكنايات وحجتهم أنهم لا يريدون أن يسموا الأشياء بمسمياتها حتى لا يحدثوا بين المسلمين شقاقاً، ولا يوجدوا في صفوفهم

بلبلة «وحال هؤلاء جميعاً ما يصدق عليه قول الشاعر:

والعين قادحة، واليد سابحة والـ ـرجل صارخة، واللون غربيب...

أمّا وإن الشقاق قد استفحل فتحول إلى سيوف تحصد الرؤوس ونار الفتنة قد علا أوارها فتجاوزت قرون عثمان وعلي ومعاوية إلينا وأصبحت لا تلفح فقط وجوهنا بل وتزعزع كياننا فتضيف إلى تلك الصفحات القاتمة صفحات أشد عتمة وأكثر أسى فإن الأمر لم يعد في حاجة إلى المواراة والمداهنة وشجرة تاريخ المسلمين اليوم أكثر من أي وقت مضى في حاجة إلى هزّ عنيف يسقط عنها كل الأوراق الصفراء ويقذف بعيداً بعناكب الشر وغربان الفتنة، وخفافيش الحقد لتعود كما شاء اللّه لها أن تكون ﴿**أصلها ثابت وفرعها في السماء**﴾.

إن جسد المسلمين الذي أنهكه داء الفرق والمذاهب وعصفت به حمى التناحر والتصارع لم يعد في حاجة إلى دموع المواساة تذرف على فراش مرضه، ويد المجاملة تمسح على وجهه تطمئنه أن كل شيء بخير بل بحاجة إلى مبضع الجراح الذي يستأصل الورم وإلى كلمات الثقة في الشفاء من المرض إذا التزم بتعاليم الحق وهل هناك شفاء أكثر من القرآن الكريم ﴿**وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلاّ خساراً**﴾ [الإسراء 82].

إن الضرب في متاهات الشك وظلمة الوهم والبحث عن هداية في غير القرآن سوف لن يقود إلاّ إلى مزيد من التذبذب والضلال ولن يؤدي إلاّ إلى السُّبل التي هي شباك الشيطان ليدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير. ﴿**وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون**﴾ [الأنعام 154].

إن هذه النظرة ليست سوى محاولة من جملة محاولات لا أدعي أنها كافية ولكن ما يمكن لي أن أجزم به أنها ما أعتقده أنه الحق حتى وإن سبب الألم للبعض، وإنها مباشرة وصريحة دونما خوف أو وجل فمدرسة القرآن الكريم علمتنا أن لا حياء في الحق ﴿**... واللّه لا يستحي من الحق...**﴾.

وقبل أن أتناول الظواهر بحثاً عن أسباب الفتنة لا بد من أن أتناول موقف القرآن من النتائج التي خلفتها هذه الفتنة واقصد بذلك الفرق والمذاهب التي كانت والتي جاءت مظلات يحتمي تحتها طلاب السلطة الذين شجعوا التمذهب

والتحزب إذ أن السنة والشيعة والخوارج والمعتزلة. . . وما تفرع منها وبسببها مهما حاول البعض أن يدافع عنها ليست سوى فرق ومذاهب تقف في الصف المعادي للحقيقة القرآنية التي تحرم التفرق وتدعو إلى الاعتصام.

ولا يخدعنك قول البعض أن السُّنّة هي اتباع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وأن الشيعة حب آل البيت، وأن الخوارج خروج عن الظلم وأن الاعتزال اعتزال للباطل وأهله فهذه ليست سوى الطعوم التي يقذفها أئمة الفتنة ليجروا البسطاء والغافلين إلى أحزابهم. ولو كان الأمر كما قالوا ويقولون إذاً فما الداعي إلى هذه الفرق أصلاً ولماذا الاختلاف جملة وتفصيلاً!!! إذا كانت السُّنّة اتباع الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم فالمسلمون جميعاً سُنّة ومن يخرج عن ذلك فهو كافر بالإجماع لأن الرسول باعتباره أسوة لمن يرجو اللّه واليوم الآخر أمر لا جدال فيه إلّا إذا كان هناك من لا يرجو اللّه ولا اليوم الآخر!!.

وإذا كانت الشيعة حب الرسول وآل بيته فلا أعتقد أن مسلماً واحداً يحمل في قلبه الإيمان لا يحب الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم أكثر من نفسه ويحب لحبه آل بيته.

وما يقال عن السُّنّة والشيعة يمكن أن يقال عن اعتزال الباطل أو الخروج على الظلم إذا لم يعد الاعتزال ومجانبة الباطل وأهله؟.

إن الأمر ليس كما هو على ظاهره فالسنة غير السُّنّة التي قال بها اللّه، والشيعة غير ما يعلن عنها، والخوارج، والمعتزلة غير ما يرفعون. إن هي إلّا أحزاب رمتنا بدائها ولما تنسل، ظاهرها فيه الرَّحمة وباطنها من قبله العذاب الشديد. ما جاءت إلّا لتخدم أهل الهوى وطلاب السلطة ودعاة الفرقة. وما محاولة التقنع بقناع الإسلام إلّا محاولة زائفة للخداع والتضليل. إن هذه الفرق والمذاهب لم يقف أمرها عند تفريق المسلمين وتشتيت شملهم بل أوصلت أتباعها إلى نفس النهاية التي وصل إليها المنحرفون من أهل الكتاب من قبل فأوّلوا القرآن واختلفوا في التفاسير، وزيفوا الحقائق ونمقوا الأحاديث **﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾** وحتى لا يذهب بنا القول مذهبه نحتكم إلى القرآن الكريم تنفيذاً لأمر اللّه تعالى **﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى اللّه ذلك اللّه ربي عليه توكلت وإليه أنيب﴾** [الشورى 10].

القرآن يحذّر من التفرّق:

اقتضت حكمة اللّه تعالى ورحمته أن يحذر أتباع شريعة القرآن الإسلامية من الأمراض التي عصفت بالأمم السابقة من أهل الكتاب الذين تفرقوا من بعد ما جاءهم العلم. والذين يؤكد القرآن أن تفرقهم كان بسبب الظلم والعدوان والضلال إذ أن الآيات البينات التي أنزلها اللّه عليهم غير قابلة للتأويل والتمحل فهي واضحة لا مجال فيها للتفرّق والتمذهب والعلم الذي هو نقيض الجهل موجب لنور الحق الذي يذهب عتمة الباطل فيكشف للناس الصراط المستقيم ويبعدهم عن السُّبل التي تفرق بهم عن سبيل اللّه ولكن غواية الشيطان وفتنته، وتلك القلوب المريضة تعامت عن الآيات البينات ورفضت نور العلم واتخذت من الهوى إلهاً فاستحقت بذلك غضب اللّه وعذابه ونقمته بانحرافها عن الحق واتباعها نزغات الشيطان.

يقول الحقّ تبارك وتعالى في سورة آل عمران **﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعدما جاءهم البينات وأولٰئك لهم عذاب عظيم * يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾** [آل عمران 105-106].

وفي سورة الجاثية **﴿ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين * وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلاّ من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم وإن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون * ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾** [الجاثية 15-17]وفي سورة آل عمران **﴿إن الدين عند اللّه الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلاّ من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات اللّه فإن اللّه سريع الحساب﴾** [آل عمران، 19].

إذاً فهذه الآيات الكريمة توضح أن داء الاختلاف داء عضال وأن بعض أهل الكتاب من قبل رغم ما جاءهم من العلم والآيات البيّنات تفرقوا واختلفوا وأن هذا الاختلاف كان ظلماً وعدواناً منهم وبذلك استحقوا أن يوصفوا بالكفر.

الفرق والمذاهب مظهر شرك

إن القرآن الكريم علاوة على وصف الذين تفرقوا من أهل الكتاب بالكفر والضلال فإنه يحذر أتباع رسالة القرآن الإسلامية من أن تنتقل إليهم عدوى هذه الآفة الخطيرة التي توصل الإنسان إلى مرحلة الشرك والعياذ بالله.

يقول عز من قائل في سورة الروم **﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون * منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين * من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون﴾** [الروم 30 ـ 32].

كما يطلب الحق سبحانه وتعالى من رسوله الكريم أن يتبرأ من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً باعتبارهم مشركين وأن رسالة القرآن رسالة توحيد ودعوة إلى الصراط المستقيم، يقول تعالى في سورة الأنعام **﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون﴾** [آية 160].

لماذا كانت الفرق والمذاهب شركاً؟

إن البناء التوحيدي كل متكامل لا يقبل التعدد وكل لبنة منه تؤدي إلى الأخرى بحيث إذا تهاوت واحدة منها تهاوى البناء من أساسه.

وقاعدة هذا البناء التوحيدي وغايته الإيمان بالله، فأي إشراك بالله في ذاته أو صفاته أو أفعاله هو نسف بالكامل للبناء الاعتقادي التوحيدي وهذا النوع من الشرك شرك واضح لا مرية فيه ولا لبس.

ثم يأتي بعد الإيمان بالله الإيمان برسله إذ أن الإيمان بالله وتكذيب الرسل هو موقف شرك كذلك ولا يحمي صاحبه ادعاؤه أنه مؤمن بالله. فقد اعتبر القرآن الكريم الذين عارضوا الرسول مشركين رغم أنهم كانوا يقولون بأنهم يؤمنون بالله، يقول تعالى في سورة الزمر **﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل**

هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي اللّه عليه يتوكل المتوكلون﴾ [الزمر 36].

وفي سورة الزخرف يقول الحقّ تبارك وتعالى **﴿ولئن سألتهم من خلق السمـوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾** [آية 8] وفي سورة العنكبوت **﴿ولئن سألتهم من خلق السمـوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن اللّه فأنى يؤفكون * اللّه يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن اللّه بكل شيء عليم * ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن اللّه قل الحمد للّه بل أكثرهم لا يعقلون﴾** [الآيات 61-63]وفي سورة لقمان يقول الحق تبارك وتعالى **﴿ولئن سألتهم من خلق السمـوات والأرض ليقولن اللّه قل الحمد للّه بل أكثرهم لا يعلمون﴾** [الآية 24].

إذاً فالقرآن الكريم يسجل عليهم قولهم أنهم يؤمنون باللّه ويقرون به خالقاً لكل شيء إلاّ أن ذلك لم يعفهم من جريمة الشرك ذلك أن التكذيب بالرسول صلّى اللّه عليه وسلّم هو هدم لأساس جوهري من أساسات الإيمان فالتكذيب بالرسول وغيره من الرسل يقتضي لزوماً التكذيب بالرسالات كما أن التكذيب بالرسالات السماوية يعني رفض المنهج الذي ترسمه هذه الرسالات والشرائع وبالتالي يعني انعدام الصراط المستقيم الذي يقوم إلى اللّه والذي حدد طريقه هذه الشرائع بحيث لا يشوب الإيمان شائبة من شرك.

إذاً يمكن لنا أن نوجز ما قلناه من أن البناء الإيماني التوحيدي هو «مرسل» وهو اللّه تعالى «ومرسل» «بفتح السين» وهم الرسل، «ورسالة»، ثم منهج تحدده هذه الرسالة، وصراط، وهدف هو الإسلام أو الفطرة.

وقد رأينا أن الإيمان باللّه والتكذيب بالرسل لا يعفي من جريمة الشرك ويمكن القول كذلك أن الإيمان باللّه والرسل دون اتباع تعاليم الشرائع هو كفر وشرك فأصحاب الفرق والمذاهب مثلهم مثل الكفار في كل عصر هم لا يكذبون باللّه ولا بالرسل بل ولا بالشرائع ولكن الشرك يدخل من طريقين: اتخاذ مصادر أخرى للتشريع غير الكتب السماوية مهما كان مصدرها. . . والثاني تحريف هذه الشرائع وتجزئتها بحيث تصبح كل شريعة وكأنها عدة شرائع وبدل الآيات

البينات في هذه الشرائع يتبعون ما تشابه منها ويخوضون في معركة التأويل والتحريف وبالتالي يدخلون في زمرة أهل الشرك وحزب الشيطان الذي تعهد بتفريق المؤمنين. بالإضافة إلى تجزئة الشرائع أو إيجاد بدائل لها على ما فيه من شرك فإنه يقود بالضرورة إلى غير الصراط المستقيم الواحد ويستدعي وجود سُبل ضالة مضلة تنحرف بالناس عن جادة الحق فأهل الكتاب الذين وصفهم اللّه بالشرك لم ينكروا وجود اللّه ولم يكذبوا الرسل ولكن فرقوا دينهم وحرفوا الكلم عن مواضعه وخلقوا فرقاً ومذاهب وسبلاً تعمل في صف الشيطان وعلى النقيض من المنهج القرآني وبالتالي يمكن اعتبار أهل الفرق والمذاهب كفاراً ومشركين تنفيذاً لحكم اللّه في الذين كفروا وأشركوا من أهل الكتب السابقة من أصحاب الفرق والمذاهب والملل.

(أصحاب الفرق والمذاهب مفتونون)

﴿وما يؤمن أكثرهم باللّه إلاّ وهم مشركون﴾ [يونس آية 1].

إن الفتنة الكبرى التي يعيشها هؤلاء المشركون بسبب ابتعادهم عن المنهج الإيماني التوحيدي الذي رسمه القرآن الكريم تكمن في اعتقادهم أنهم على حق وأنهم يدافعون من أجل الإسلام وربما يقاتلون غيرهم من أصحاب الفرق الأخرى أو يكيدون لهم وهم يظنون واهمين أنهم يفعلون ذلك استجابة لأمر اللّه وتحقيقاً لشريعته ولكن الحقيقة أنهم يفعلون ذلك تنفيذاً لأمر الشيطان واستجابة لمنهجه ومن هنا جاء قوله تعالى مصوراً حال هذه الأكثرية **﴿وما يؤمن أكثرهم باللّه إلاّ وهم مشركون﴾** أي أنهم يظنون وهم الإيمان ويعيشون واقع الشرك.

كما يصور الحق تبارك وتعالى الوضع المزري لهؤلاء يوم القيامة:

﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون * ثم لم تكن فتنتهم إلاّ أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾ [الأنعام 23-24] المشركون حتى وهم يواجهون حقيقة كفرهم يوم الحشر وقد اتضحت معالمه لا

يزالون مصرين على أنهم ليسوا مشركين.. وهل هناك فتنة أكثر من هذه الفتنة!!!.

إن أتباع الفرق والمذاهب على اختلاف مشاربهم وأهوائهم وهم بالضرورة كثرة يرفضون تهمة الشرك بل ويحاولون رد هذه التهمة على غيرهم وقد يقاتلون وبكل وسيلة وهم في كل حال مفتونون تسيطر عليهم غواية الشيطان وإله الهوى فإذا حاولت أن تتحداهم أن يأتوا ببرهانهم على صحة دعواهم إن كانوا صادقين فإنهم لا شك سوف يسلكون مسالك شتى في التهرب والدفاع الواهي الذي لا يصمد أمام حقيقة القرآن التي ترفض الفرق والمذاهب وتدعو إلى عدم الاختلاف والتنازع وتطالب بالاعتصام بحبل اللّه جميعاً بل ربما يلجؤون إلى اختراع الأحاديث وتأويل الآيات القرآنية بما يخدم هواهم ويبرر موقفهم الإشراكي.

إن المنقذ الوحيد يظل دائماً العودة إلى القرآن الكريم باعتباره وحده الذي يهدي إلى الصراط المستقيم ووحده الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه تنزيل من حكيم حميد **﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾** [فصلت 40-41] وبالتالي فكل ما سواه قد يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه ولا سبيل لشفاء المسلمين من داء الفرق والمذاهب إلاّ بالعودة إلى القرآن باعتباره المصدر الوحيد للشريعة الإسلامية وإن ما عداه إن لم يكن يخالف وذاك مرفوض بالضرورة فهو فرع منه اشتق وعليه بني والفرع لا يقوم مقام الأصل فإذا جعل الفرع أصلاً فقد فتح باباً للشرك.

إن العودة إلى القرآن تستدعي العودة إلى الآيات المحكمات وترك تأويل المتشابه منها لأنه لا يعلم تأويلها إلاّ اللّه وأية محاولة فهي فتنة **﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلاّ اللّه والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلاّ أولوا**

الألباب * ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾ [آل عمران 70].

والعودة إلى المحكم من الآيات القرآنية من شأنه أن يبطل ادعاءات الفرق والمذاهب التي تعتمد أصلاً على التأويل والتحريف، ويقضي على السُّبل ويهدي إلى الصراط المستقيم **﴿وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبل فتفرق بكم عن سبيله ذلك وصاكم به لعلكم تتقون﴾** [الأنعام 154].

ولكن الدعوة إلى اللَّه وحده ونبذ الدعوة إلى ما سواه ليست بالأمر السهل أو الهيّن وليس بالضرورة أن تلقى القبول من الكثرة من الذين أشركوا واتبعوا السُّبل والمذاهب والفرق واتخذوا للَّه شركاء من دونه **﴿وإذا ذكر اللَّه وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾** [الزمر 42] **﴿وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً﴾** [الإسراء 49] تظل الدعوة الوحيدة التي يحق للمؤمن الدفاع من أجلها والاستشهاد في سبيلها دعوة التوحيد **﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى اللَّه وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾** [فصلت 43].

إن أتباع شريعة القرآن ليسوا بدعاً من الأمم التي سبقت فلا بد أن يتعرضوا للامتحان والفتنة حتى يتحصحص الحق ويقذف به على الباطل فإذا هو زاهق وينكشف زيف الادعاء تحت نور حقيقة التوحيد ويتضح أهل الصراط من أتباع السُّبل ومسالك الغواية والانحراف **﴿آلـمّ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن اللَّه الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾** [العنكبوت 1، 2].

جذور الفرق والمذاهب عند «المسلمين»

كانت المنطقة العربية قبيل بعثة الرسول صلّى اللَّه عليه وسلّم تشهد حالة من الصراعات والفوضى والخطر الذي كان يحدق بالعرب من كل جانب وقد صور القرآن هذه المأساة في قوله تعالى في سورة آل عمران **﴿واعتصموا بحبل اللَّه جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة اللَّه عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم**

فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾ [آل عمران 103] فما مبعث هذه الحالة التي جعلتهم على شفا حفرة من النار ومن هم الذين كانوا وراء إذكاء روح العداوة التي جاء القرآن فأزالها وألّف بين قلوب العرب الذين احتضنوا هذه الرسالة الإسلامية السمحاء..

كما هو معلوم تاريخياً فإن منطقة العراق وما جاورها كانت تحت النفوذ الفارسي حيث استطاع الامبرياليُّون(*)، الفرس كما هي عادة الامبريالية في كل زمان ومكان، تنصيب نظام عميل هو نظام «المناذرة» يدين لهم بالولاء والطاعة ويحاول أن يكرّس نفوذهم بكل وسيلة. وبالمقابل كانت منطقة الشام تحت النفوذ البيزنطي وكانت سياسة الامبريالية البيزنطية لا تخرج عن سياسة منافسها الامبراطورية الفارسية حيث قام هؤلاء بتنصيب نظام «الغساسنة» تابعاً لهم. وحتى يتمكن الامبرياليّون الفرس والبيزنطيّون من السيطرة وترويج بضائعهم في السوق العربية بالإضافة إلى السيطرة على طرق التجارة أججوا نار العداوة والبغضاء بين القبائل العربية بل لم يكتفوا بذلك حيث حاول كل فريق منهم أن ينشر ثقافته الامبريالية من المنطقة التي تتبعه حتى يكون الاختلاف قطيعة لا يمكن إصلاحها. فصدّر البيزنطيّون الثقافة البيزنطية التي هي مزيج من تعاليم الإنجيل واليونانية و«الوثنية القديمة» كما صدر الفرس جملة المذاهب الممتزجة مع الهندية والصينية القديمة. هذا علاوة على تشجيع فكرة عبادة الأصنام والأوثان والحرص قدر المستطاع على أن يكون لكل قبيلة أو مجموعة قبائل صنم تعبده وتتعصب له.

والأصنام كما هو معلوم ثقافة مصدرة إلى الجزيرة العربية من مناطق النفوذ الفارسي البيزنطي والغرض منها جميعاً إحكام السيطرة وبسط النفوذ وتوسيع هوة الخلاف.

(*) الامبريالية سياسة توسعية تستهدف السيطرة على الشعوب مباشرة أو بطريق غير مباشر وهي مشتقة من امبراطور التي على نظامه «Empire» امبراطورية.

إذاً فالصراعات الدولية الامبريالية أوجدت صراعات اجتماعية بين القبائل العربية وقد بقيت مكة إلى حد ما ولعدة اعتبارات أهمها وجود الأماكن المقدسة بها ولأنها السوق التجاري العام والملتقى الثقافي الذي يستفيد من الجميع غير متورطة بشكل مباشر في الصراعات وبعيدة عن مناطق التماس بين الامبراطوريتين وأتباعهما.

إلّا أن المؤامرات بدأت تتسرب إليها ورياح التفرّق أخذت تهب عليها باعتبارها ملتقى هذه الصراعات والأمراض كما بدأت القبائل العربية المجاورة تنظر إلى قريش بعين الغيرة والمنافسة لأنها وبحكم وضعها المميز كانت تتمتع بالنفوذ المعنوي وإلى حد ما بالأهمية الاقتصادية والأمن النسبي.

في هذه الظروف المتشابكة المتباينة سواء في منطقة الشام والعراق أو منطقة الجزيرة بالإضافة إلى منطقة مصر وافريقيا والتي كانت تحت النفوذ البيزنطي وخاضعة للثقافة الغنوصية بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بدعوة التوحيد والوحدة.

وقد اضطرته ظروف الدعوة إلى الهجرة من مكة إلى يثرب التي أصبحت مدينة الرسول ومع انتصار الإسلام في معاركه ضد الشرك بدأت المدينة منافساً جديداً لقريش وبدأت الصراعات على طرق القوافل والتجارة تأخذ طريقها إليهما.

وقد استطاع الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم بناء النواة الأولى للكيان العربي الموحد المسلم وبدأ يعد لطرد البيزنطيين والفرس بعد أن انتصر على معظم قبائل العرب بعد فتح مكة. وبذلك يكون الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم قد قرر نقل الصراع إلى الجبهة الحقيقيّة فبدل أن يكون الصراع بين القبائل العربية نقله إلى صراع للعرب المسلمين ضد «الفرس والبيزنطيين» الدخلاء وقد توفي الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم والمواجهة مع الروم قد بدأت.

وهنا يكون اجتماع السقيفة في ظروف من الخوف والقلق على مصير هذه الدعوة الجديدة وهذا الكيان الوليد وكذلك خوف بعض القيادات في المدينة أن

ينقل النفوذ إلى مكة بعد وفاة الرسول وتضيع بالتالي المكانة التي اكتسبتها المدينة باتخاذ الرسول منها مقراً له. والحقيقة التي أكدتهاالأحداث ان اجتماع السقيفة وإن كان قد أنهى الخلاف مؤقتاً إلّا أنه كـان الشرارة التي أذكت الصراعات القديمة وولدت عداوات جديدة سياسية واجتماعية واقتصادية.

وإذا كان الصراع قد حسم لصالح قريش ظاهرياً إلّا أن ذلك قد أوجد خلافاً بين القرشيين أنفسهم أي خلافاً عائلياً تعود جذوره إلى ما قبل البعثة،هذا بالإضافة إلى أن انتصار قريش سبب عداوة.القبائل المجاورة من العرب علاوة على العداء التاريخي الفارسي البيزنطي.

ويمكن أن نقول إن الفرق والمذاهب التي يطلق عليها «ظلماً» بالإسلامية «هي نتاج هذه العوامل المختلفة ويمكن أن نعطي بعض الإشارات إلى ذلك بالعودة إلى السقيفة والمواقف المختلفة من اختيار أبي بكر.

فكتب السيرة تجمع على أن علياً وأبا سفيان والعباس لم يكونوا راضين عن اختيار أبي بكر بالإضافة إلى أن القبائل العربية الأخرى لم تكن راضية عن فوز قريش بالزعامة السياسية إلى جانب الزعامة الدينية.

وقد كانت حرب القبائل العربية التي عرفت «بحرب المرتدين» موقفاً من قريش وأبي بكر أكثر منها موقفاً من الإسلام والقرآن. كما ان ادعاء النبوة ليس سوى رد فعل لسحب بساط الشرعية الدينية من قريش. هذا من جانب ومن جانب آخر فإن موقف أبي سفيان المعارض لأبي بكر والذي تجسد في قولته المعروفة الموجهة لعلي والعباس لقد ملكها علينا ابن أبي قحافة واللّه لو شئتم لاملأنها عليه خيلاً ورجالاً هذا الموقف يعكس الطموح الأسري لبني أمية قبل البعثة وهو ذاته الذي أوجد لنا فيما بعد «الدولة الأموية» كما أن موقف العباس المعارض هو الآخر كان نواة للدولة العباسية».

ويمكن القول كذلك إن موقف علي رضي اللّه عنه المعارض للأسلوب الذي تم به اختيار أبي بكر وما تلا هذا الموقف من أحداث هو المحصلة التي أوجدت الدولة الفاطمية.

هذه المواقف الاجتماعية والسياسية استدعت بالضرورة ظهور فرق ترفع شعار الدين كسلاح خطير لتنافح عن هذه التكتلات السياسية. فكان الشيعة الذين تسرب إلى صفوفهم بعض العناصر الفارسية الحاقدة على العرب والإسلام تياراً معارضاً لدولة بني أمية التي كانت ترفع شعار «العروبة» ظاهراً وتمارس الحكم الأسري حقيقة.

والخوارج هم كذلك ليسوا سوى القبائل العربية المعادية لقريش والذين أيدوا تيار علي آملين أن يكون لهم نصيب في الدولة إذا ما فاز حزبه حتى إذا قبل علي بالتحكيم وشعروا أن الأمر قد خرج من أيديهم خرجوا وأعلنوا خطاً سياسياً وفرقة دينية جديدة. وبالإضافة إلى عوامل الصراع الاجتماعية والسياسية فإن العامل الثقافي هو الآخر كان أحد الأسباب التي أذكت الصراع وخلفت الولاءات ومن هنا يمكن لنا أن نرجع وقوف الشام ومصر مع معاوية إلى الثقافة البيزنطية السابقة للإسلام أكثر من العامل الاقتصادي الذي يرجع إليه الكثيرون سبب هذا التأييد وإن كان العامل الاقتصادي يشكل إلى حد ما جزءاً من هذا الموقف.

كما أن وقوف العراق والكوفة إلى جانب علي هو الآخر نتاج هذه الثقافة الفارسية فالثقافة البيزنطية والفارسية قد وسعت الهوة بين الشام والعراق ولا زال لذلك انعكاس في أمثالنا الشعبية حيث يردد البعض المثل الذي يقول الشامي شامي والبغدادي بغدادي.

ومع نجاح معاوية في الاستيلاء على السلطة وانتصار الثقافة البيزنطية، فقد تحول الشيعة والخوارج إلى معارضة ونظراً لما لاقاه هؤلاء من التنكيل والبطش سواء من بني أمية أو بني العباس فقد بدأت المعارضة تأخذ شكلها السري وكان لها دور كبير في ظهور الكثير من الحركات السرية والباطنية التي كانت مناخاً لثقافة الزرادشتية والهنود والغنوصيين واليهود العدو التقليدي للعرب والإسلام.

(*) فرض الصفويّون الشيعة المذهب الشيعي الإثني عشري على إيران ورغم أن الصفويين كانوا أسرة تركية الا أن فرض المذهب الشيعي كان يساعد في مواجهة الدولة التركية ذات الأغلبية السنية. وقد تبنى الفرس المذهب الشيعي الذي لعب دوراً كبيراً في معادلة الصراع القومي القديم بين الأتراك والفرس.

ولا تزال ثقافة الشيعة تعتمد أسلوب التقية والعمل السري وينعكس فيها الشعور بالظلم كما يمكن أن نلاحظ أن السُّنّة باعتبارها تيار الغالبية وتيار السلطة فقد غلبت عليها روح المسالمة والمهادنة بخلاف تيار الشيعة والخوارج الذي كان على النقيض من ذلك ولا زالت هذه الظاهرة تميز هذين التيارين، حيث يتسمان بالعنف ويميلان إلى اعتماد أسلوب التصفيات والاغتيالات.

بقيت ملاحظة لا بد من الإشارة إليها وهي ان التيارات الفكرية الدخيلة على الإسلام والعرب قد تم تسريبها في كثير من الأحيان عن قصد من قبل المتعصبين من الفرس والبيزنطيين واليهود لضرب الوحدة الدينية أو الروح التي جمعت العرب المسلمين وخلقت منهم قوة جديدة واستطاعوا بها وفي سنوات قليلة طرد الغزاة المحتلين بل وتمكنوا من إسقاط أعظم إمبراطوريتين في التاريخ القديم «فارس، وبيزنطة». هذه التيارات الفكرية أخذت مع الأيام في التعاظم لتتحول بعد ذلك صراعات داخل الأرض العربية وتعود عجلة التاريخ إلى الخلف وإن كانت أكثر وضوحاً وعمقاً فتعاظمت على أيامنا الخلافات والصراعات وتحولت القبائل العربية القديمة إلى دويلات عربية وظهرت إلى العالم إمبراطوريات تحاول تدمير الجسد العربي والروح الإسلامية بما تنشر من أفكار وبدع كما تحول بنو قريظة وبنو قينقاع وبنو النظير إلى دولة لها كيان تسمي نفسها «إسرائيل». تؤدي نفس الدور التآمري الذي كان يؤديه اليهود قبل البعثة وبعدها.

بمعنى آخر عاد العرب إلى نفس الفترة التي سبقت البعثة فها هم اليوم على شفا حفرة من النار ولا منقذ لهم منها إلاّ الوحدة الدينية والوحدة الاجتماعية!!.

حزبيّة اليوم بضاعة غربيّة

من خلال دراستنا للتاريخ العربي بعد البعثة ووفاة الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم كان هناك جملة من التيارات الفكرية خلفت أشكالاً هي أقرب إلى التجمعات منها إلى التنظيمات الحزبية بالمفهوم الحديث فالسُّنّة، والشيعة، والخوارج والمعتزلة، إلخ تيارات فكرية أوجدها الصراع السياسي على السلطة وجاءت لتنافح عن هذا التيار أو ذاك ولكن لا يمكن وفق القاموس السياسي المعاصر اعتبارها أحزاباً سياسية ذلك أن الأحزاب كشكل سياسي هي نتاج غربي شكلاً ومحتوىً فرضته معطيات اجتماعية واقتصادية أوروبية بحتة. فقد عاشت أوروبا فترة كانت الكنيسة تمتلك مقدرات الجماهير الدنيوية وتدعي امتلاكها مصيرهم الأخروي وصكوك الغفران التي أصبحت الآن مدعاة للتندر كانت لفترة من الفترات طقساً يصل إلى درجة العقيدة التي لا تقبل حتى مجرد التفكير في النقاش فيها ناهيك عن رفضها ولكن الأباطرة بعد أن تركزت في أيديهم بعض وسائل القوة المادية والمعنوية أصبحوا ينافسون الباباوات في السلطة بل ووصلت المنافسة إلى حد الصراع. ومع بداية فترة الاكتشافات العلمية أخذ سلطان الكنيسة في التزعزع(*) عندما عجزت الكنيسة عن مجاراة هذه الاكتشافات نظرا

(*) من المعلوم ان القِيَم والثقافات كثيراً ما يعتريها التزعزع عقب الهزات العظيمة التي تمر بها الشعوب كالحروب الكبيرة، والهزائم والنكسات، والاختراعات العلمية وهو ما يعرف بـ«زعزعة القِيَم».

لقصور تعاليمها الكهنوتية الوضعية المحرفة عن شريعة الإنجيل فتحول موقفها إلى محاربة هذا الاتجاه الجديد واتهام الباحثين والعلماء بالتجديف والهرطقة بل كانت وراء إعدام الكثيرين منهم بتهمة الزندقة والخروج عن «تعاليم المسيح» غير أن انتصار الاكتشافات العلمية وثبات منفعتها وتأكد صدقها عملياً جعلت الأعداد الغفيرة من الجماهير تتجه نحو العلم معتقدة أنه قادر على حل مشاكلها بعد أن عجزت تعاليم الكنيسة وخطب القساومة عن حلها وأصبح العلم في أوربـا إلٰهاً أرضياً جديداً وظهر اتجاه قوي يدعو إلى فصل الحياة المدنية عن تعاليم الكنيسة أو ما سمي «فصل الدين عن الدولة» وهو ما عرف بالسيكيولارزم secularism الذي ترجم في العربية «بالعلمانية» ولكن هذه الترجمة إلى العربية لم تكن وافية إذ أن الدقة العلمية تقتضي أن تتم الترجمة من خلال معرفة أصل هذا المصطلح الغربي أي المصدر الذي اشتق منه، والذي يدعوني إلى أن أقترح ترجمته إلى «اللاشريعية». فهذا المصطلح اشتق من saculum وهـو اسم اطلق على الحقبة الزمنية القديمة التي مرت بها الأرض والتي عرفت بالعصر الجليدي «The secular refrigeration of earth» وبالتالي تم اختيار هذا المصطلح secularism ليعبر عن التيار الذي لا يعترف بأية شريعة على اعتبار أن العصر الجليدي الذي اشتق المصطلح من عصر سبق وفق الثقافة الأوربيـة فترة التشريع لأنه سبق وجود الحياة على وجه الأرض. فهذا التيار الذي ظهر في أوربـا كنقيض للمؤسسة الكنسية يدعو إلى تبني «تلك النظرة التي تدعو إلى انتصار وتغليب مصلحة الإنسان ورفاهه على أية اعتبارات تشريعية غيبية خاصة في الحياة الدنيوية والتعليم[1] «ونفس المعنى يمكن أن نجده في تعريف قاموس Webster لهذا المصطلح إذ يقول «إنه اتجاه شمولي أو نظرة متعالية إلى شؤون وقضايا الحياة وإن المؤمنين به يرفضون أي شكل من أشكال الغيبيات، وأي نوع من الطقوس التعبدية، كما يعتقدون أن التعليم وقضايا الحياة المختلفة يجب معالجتها بعيداً عن أي شريع كهنوتي»[2].

وعلى الرغم من أن أغلب المصادر الأوربيـة التي أرخت لهذا التيار لم تحاول تحليل أسباب ظهوره واكتفت بالقول إنه نتاج التطورات التي مرت بها أوربـا[3] إلا أن أسباب ظهوره يمثل أزمة في التفكير الديني المسيحي بكل معنى

الكلمة وهزيمة للتعاليم الكهنوتية وعجزها عن مواكبة الحياة.

وبالضرورة فإن الصراع المباشر بين البابا والإمبرطور قد تطور بتطور نمط الحياة الاجتماعية والاقتصادية في أوربا وظهرت التنظيمات الحزبية كأدوات دكتاتورية تمكن أتباعها الجزء من السيطرة على الجماهير «الكل» وذلك بما يتركز في أيدي هذه الأدوات من وسائل القوة المادية والمعنوية ابتداء بالسلاح والمال واستقطاب أكبر عدد من الأنصار والمؤيدين والحرب الإعلامية، وغسل الأدمغة والدعاية الحزبية المغرضة وانتهاء باستخدام الدين ذاته كسلاح في المعركة الحزبية.

وربما يتساءل البعض لماذا عادت الشعارات الكنسية مرة أخرى في القرن الأخير في أوربا بعد أن شهدت تراجعاً أمام التقدم العلمي والسبب في رأيي يمكن إعادته إلى نفس العامل الذي أدى إلى أزمة التعاليم الكنسية. ذلك أن الاختراعات العلمية التي أسيء استخدامها والتي أدت إلى صنع وسائل الدمار وتم تجريبها في الحروب الأوربية ثم الحربين الأخيرتين أدت إلى خيبة أمل الكثيرين في العلم باعتباره قادرا على حل مشكلة الإنسان ودخل الأوربيون من جديد في متاهة الفراغ الأمر الذي دفع الكثير من الأقلام إلى التعبير عن هذا الواقع بنظرة تشاؤمية إلى الحياة الأوربية وكذلك الثقافة الأوربية ونذكر على سبيل المثال كتابات كل من برتراند رسل وشبنهاور ونيتشه التي عرت الأزمة الروحية التي تعيشها المجتمعات الأوربية كما يمكن القول إن الوجودية كتيار فكري معاصر تشكل هي الأخرى رد فعل لهذه الأزمة، وقد شجع هذا الوضع الكنيسة على أن تعود من جديد وتدخل معترك الصراع السياسي لتطرح نفسها في شكل معاصر فرضته ظروف الحياة الأوربية فكانت الأحزاب السياسية ذات الشعار الديني وهنا تبدأ مرحلة جديدة من التنسيق بين الكنيسة والدولة في شكل معاصر أساسه المصالح المشتركة لتبدأ مرحلة الصليبية الجديدة بعد ظهور الدويلات الناشيونالية وحسم الصراع كلياً أو جزئياً على الساحة الأوربية، وفي الشرق المسلم كان الوضع أثناء حركة الاكتشافات العلمية في أوربا مختلفاً تماماً إذا كان الشرق يغط في نوم عميق، بسبب جملة من الأمور لا أراني في

حاجة إلى سردها، ولم يَصْحُ إلاّ على أقدام أحفاد البيزنطيين القدامى، وصليبيي العصور الوسطى تهز أرضه من جديد محاولة إعادة عجلة التاريخ واسترجاع أمجاد بيزنطة وروما وإن كانت بأسماء وأثواب جديدة أي بعد أن أنهى الأوربيـون أو كادوا الصراع فوق قارتهم اتجهت أنظارهم إلى الشرق لنهب خيراته من جهة ولتصفية الحساب فوق أرض غير أرضهم من جهة أخرى وقد أحضروا معهم آلات وأدوات جديدة كان لها الأثر في انبهار الشرق الذي صحا من سباته ليجدهم على أبوابه وقد كان الانبهار عنيفاً وقوياً،وبمقدار قوته وعنفه وكان رد الفعل متبايناً إلى حد التناقض. فظهر تيار «لا ديني» تبنى ترويج الدعاية له سماسرة من الشرقيين منبتاً والغربيين ثقافة رأوا الفرصة سانحة للنيل من الإسلام والمسلمين فرفعوا شعار «اللاشريعـة» كأساس لإقامة الدولة بحجة أن الغرب لم يتقدم إلاّ بذلك وأن الشرق الإسلامي لا يمكن أن يلحق بركاب الغرب إلاّ إذا حذا حذوه. وقد وجدت هذه الدعوى الضالة أنصاراً لها بين بعض المسلمين الذين كانوا يحقدون على العرب.

كرد فعل لهذا الاتجاه ظهر تيار آخر يطلب إقامة دولة دينية وكان أن قامت تنظيمات حزبية بعضها يرفع شعار اللاشريعة «العلمانية» وبعضها يطالب بالدولة الدينية وقد مهّد لهذه الأحزاب ثقافات أوجدها الجدل والحوار الذي أثير حول سؤال طرح بشكل خاطىء مفاده **«لماذا تقدم الغرب المسيحي وتخلّف الشرق الإسلامي»** حيث تصدى للإجابة عن هذا السؤال كتّاب ومفكرون مسلمون وغير مسلمين من العرب وغيرهم ويمكن أن نذكر على سبيل المثال «الأفغاني، وعبده، والطهطاوي، والكواكبي وشبلي الشميل، ونصيف اليازجي وغيرهم».

إذاً فعلى أرضنا لم تدر فقط رحى معارك الغرب العسكرية بمعنى أن الغرب لم يصدر لنا وسائل الدمار والخراب، بل دارت وبفعل بضاعته معارك الصراع السياسي والفكري الغربي وإن كانت بلغات شرقيّة، وفي وطننا العربي لم يقتصر الاستيراد على الأفكار والثقافة بل وتم بعد ظهور الدويلات الحديثة التي كانت نتاجاً للحربين الامبريالية الأولى والثانية استيراد حتى أدوات الحكم فتم تصدير التنظيمات الحزبية، والبرلمانات بل والأنظمة الجمهورية، والأنظمة

الملكية على النمط الغربي وحتى الذين حاولوا التصدي للثقافة الغربية استخدموا نفس أدوات وأسلحة الغرب أي استخدموا كذلك التنظيمات الحزبية بل إن بعضهم كان ولا يزال يستخدم البرلمان الأوربي مع تعليق لافتة «إسلامية» له، كأن يسمي الأسلوب البرلماني «مجلس الشورى» والحزب السياسي «حزب الله» أو «الجهاد» ونحوه.

الشورى..
أسلوب قرآني في السياسة

إن القرآن باعتباره شريعة تؤكد الفطرة وتعمل على إعادة الإنسان إليها لا بد وأن يقدم أسس أسلوب للعلاقات الإنسانية مغاير تماماً للأسلوب الاصطناعي الذي فرضته حياة الغرب المصنعة.

فالأصل في العلاقات الإنسانية هو الجماعة البشرية، **فالجماعات البشرية هي التي تكون أولاً واجتماعها هو الذي يفرض علاقات،وتنظيم هذه العلاقات هو الذي يستدعي وجود شريعة يتفق عليها الجميع ويقرّون بالقوانين والأحكام التابعة منها.** فإذا كانت مكونات الجماعة البشرية مكونات فطرية فإن العلاقات السياسية والاقتصادية لا بد أن تكون علاقات فطرية والعكس تماماً إذا كانت الجماعة البشرية في أيّ مكان مكونة تكويناً اصطناعياً تعسفياً.

ومن هنا فإن الإسلام الذي يدعو إلى مجتمع الفطرة لا يقر بغير التكوينات الفطرية للجماعات البشرية من الفرد إلى الأسرة إلى العشيرة إلى القبيلة إلى القوم ولا يقر بغير العلاقات الفطرية السياسية والاقتصادية ولا يقبل بشريعة سوى شريعة اللّه خالق الكون.

وقبل أن أحلّل ملامح العلاقات الفطرية الاجتماعية والاقتصادية فإنني

(*) الدويلات التي ظهرت في الوطن العربي هي نتاج النظريات الغربية في الناشيونالـزم الاصطناعية كبديل للعلاقات الاجتماعية القومية.

أرى تناول العلاقات السياسية الفطرية أو ملاح النظام السياسي الذي يقدمه القرآن والذي يؤكد الحرية الإنسانية باعتباره فطرة فطر الله الناس عليها والحاجة تستدعي هنا الوقوف عند مصطلح سياسة في اللغة العربية والذي يقابله في القاموس الانجليزي Policy.

يقول صاحب القاموس المحيط «سست الرعية سياسة أمرتها ونهتها، وفلان مجرب قد ساس وسيس عليه أَدَّبَ وأُدِّبَ»[1] وفي لسان العرب «السياسة، القيام على الشيء بما يصلحه. والسياسة فعل السائس يقال: هو يسوس الدواب إذا قام عليها وراضها، والولي يسوس رعيته، أبو زيد: سوَّس فلان لفلان أمراً فركبه كما يقول سول له وزيّن له. وقال غيره: سوّس له أمراً أي روضه وذلله»[2].

وربما يكون المعنى مشتقاً أصلاً من السيساء «والسيساء من الحيوان كما يقول الجوهري منتظم فقار الظهر، والسيساء فعلاً. قال الأخطل:

لقد حملت قيس بن عيلان حربنا على يابس السيساء محدودب الظهر.

ويقول الأصمعي: السيساء من الظهر والسيساء المنقادة ومن الأرض المستدقة»[3] والذي جعلني أميل إلى هذا هو أن الإنسان لا يستطيع على سيساء الدابة أن يحرث الأرض. إلاّ إذا روضها وملك أمرها أي إذا ساسها.

وقد استخدم المترجمون هذا الاسم سياسة كمقابل للمصطلح الانجليزي Policy ذي الأصل اليوناني. فكلمة «Polis» تعني عند اليونان مدينة وقد اشتق منها اليونان كلمة Politeio ثم أصبحت في اللاتينية Politia لتدل على الأسلوب أو البرنامج الذي تتبنّاه الحكومة أو الحزب أو تطلبه المعاملة التجارية من أجل تنفيذ القرارات».

كما أن Politician تعني «الشخص الذي يمارس هذا العمل (Policy) أو

(1) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، جـ 3، ص 230، ط 2، مصطفى البابي الحلبي مصر، 1952.
(2) ابن منظور، المرجع السابق، جـ 6، ص 108 دار صادر.
(3) ابن منظور، المرجع السابق، جـ 6، ص 109 دار صادر.

الذي يسعى إلى تحقيق أغراضه الشخصية التى غالباً ما تكون بأساليب الغش والتحايل، كما يطلق المصطلح على الذي يتخصص في علوم الإدار الحكومية[1].

إذاً فالسياسة في المفهوم اللغوي سواء في القاموس العربي أو الأجنبي لا تخرج عن الأسلوب أو العملية التي يستخدمها الإنسان لترويض وإجبار غيره من أجل استخدامه لتحقيق أغراضه سواء أكان ذلك إنساناً أم حيواناً . ولا غرو أن تقتضي هذه العملية المنافية للفطرة الإنسانية التي ترفض القسر والتحكم ولا تقبل بغير الحرية والانعتاق، اختراع تنظيمات تضطر بحكم مهمتها إلى وضع برامج واختيار أدوات تمكن في النهاية من الوصول إلى هدف التذليل والترويض الذي يمكن من القيادة وفرض الأوامر وتحويل المروض إلى آلة تحقق الهدف بدل أن تكون كما أرادها اللّه كائناً حياً يحسّ ويفكر ويريد ويسلك.

فالتنظيمات الحزبية على اختلاف شعاراتها وكافة المؤسسات الحكومية هي بغرض الحكم الذي يستتبع التحكم والإذعان والأدوات السلطوية من سجون وزنزانات ووسائل ترويض مادية ومن بوليس وأجهزة استخبارات علنية وسرية ليست سوى أدوات تمكن من إنجاح عملية الترويض واستمرارها.

كما يأتي تحكم أجهزة الدولة في وسائل الاقتصاد ووسائل الانتاج والسلاح ضمن هذا الإطار إذ أن الاحتكار يعني التركز والتركز يعني القوة فاحتكار القرار الذي هو سلطة يستدعي احتكار السلاح واحتكار الثروة كي يكون الشعب في حاجة تمكن المحتكرين من استمرار سلطتهم وتحكمهم.

وبالإضافة إلى وسائل القهر المادي والمباشر تلجأ هذه الأدوات السلطوية إلى وسائل قهر معنوي كالتحكم في وسائل الإعلام وتوجيه الثقافة بالإضافة إلى التحكم في برامج التعليم وذلك من أجل إعداد جيل أو أجيال قابلة أصلاً للقيادة ومستعدة للترويض هذا إذا أضفنا وسائل أخرى جهنميّة من أجل التنفيس وتلافي الكبت الذي يؤدي إلى الرفض حيث ابتدعت الحكومات الغربية المتقدمة في

(1) ابن منظور، المرجع السابق، جـ4، ص436، 437، دار صادر.

فن الترويض فكرة ما يسمى بحرية التظاهر والتي هي أشبه ما تكونْ «بالمجال الذي يعطى للحيوانات كي تتحرك» والتي يطلق عليها «حدائق الحيوانات» حيث يسمح لهذه الحيوانات ليس بالحركة والانطلاق في أحضان الطبيعة بشكل فطري بل توضع في محيط «وهم الحرية» الذي يسمح بالتفرّج عليها والضحك من حركاتها وإمعاناً في الدجل والخداع يطلق عليها «حدائق» الحيوانات ولو استطاعت هذه الحيوانات لحطمت هذه السجون ولعادت فعلاً إلى حدائقها وتركت للإنسان أن يدخل نفسه في حدائقه التي اخترعها!! ومثلما يسمح للحيواتات بالتحرك في المجال المحدد لها يسمح في أوربا للجماهير بالخروج إلى الشوارع والتظاهر بينما يبقى الساسة يتفرجون ويضحكون بشرط أن تبقى حركات الجماهير في الإطار الذي لا يسمح لها بالخروج من أسوار «الحديقة» التي تسمى «الديمقراطية الغربية» اما إذا جمحت هذه الجماهير و اكتشفت وهم حديقة «ديمقراطية التظاهر» فقررت القفز من فوق أسوارها فإن أسلوب أنظمة الحكم لا يختلف عن الأسلوب الذي يتبع في «حدائق الحيوان» فمن التجويع إلى الزنزانات الانفرادية. . إلى السوط. . . إلى القتل واختلاف العقوبة تحدده درجة الجموح والرفض. وأما إذا ظلت الجماهير داخل أسوار ما يسمى بالقانون الذي هو من صنع هذه الأدوات فلها أن تتظاهر. . ولها أن تجتمع في الميادين لتمارس الحاجة إلى التنفيس الذي يساعد في استمرار عبوديتها. إن جميع أجهزة الحكم والتسلط في العالم هي وسائل لقهر الإنسان والاعتداء على أعز ما يمتلك «حريته وإرادته وسلوكه» أي بالجملة على «إنسانيته». ولكن الذي يبدو أكثر غرابة عندما تستخدم هذه الأجهزة والأدوات «مظلة الدين» وتدّعي أنها ظل اللّه في الأرض وأنها المسؤولة عن تنفيذ شريعته فتنطلق في الأرض تقتل، وتسجن، وتبتر الأطراف وتعتدي على الحياة أي تعمل في التيار المناقض لإرادة اللّه التي اقتضت الحياة والحرية الإنسانية. .

إن أولى القواعد التي تقرّرها الحقيقة القرآنية التي تقف في وجه جميع هذه الأجهزة وتسقط القناع عن وجهها القبيح البشع إن الإنسان خلق مسؤولاً وإن هذه المسؤولية مسؤولية ذاتية ﴿قل أغير اللّه أبتغي رباً وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلاّ عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم

فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ [الأنعام، آية 166].

إن وقفة بسيطة متدبرة لهذه الآية وغيرها من الآيات التي تؤكد نفس الحقيقة تكشف عن روعة البيان القرآني عندما استخدم الحق تبارك وتعالى اسم «الرب» ثلاث مرات في آية واحدة والذي يعني التربية والعناية مقابل الترويض والقهر والقسر الذي يستخدمه طلّاب السلطة وباسم اللّه أحياناً. إن هذه المحبة والربوبية هي التي اقتضت أن يكون الإنسان مسؤولاً عن عمله مسؤولية ذاتية وأمام ربه فقط. وتكتمل صورة الرحمة الإلٰهية بأن الحق تبارك وتعالى لم يترك الإنسان يتخبط في دياجير الجهل والكفر بل اقتضت رحمته أن يرسل الرسل حتى لا يترك للإنسان الضال مجالاً للتعلل بعجزه وقصوره البشري **﴿من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾** [الإسراء آية 15] إذ بهذه المسؤولية الذاتية، التي لا تنفي بالضرورة المسؤولية العامة بل تؤكّدها فما المجتمع إلّا جماعة إنسانية يكون الإنسان المسؤول بهذه الكيفية عضواً فيها، يجعل اللّه تعالى مسؤولية الترويض والسياسة مسؤولية تليق بإنسانية الإنسان الذي كرّمه اللّه على كثير مما خلق بمعنى أن الإنسان هو الذي يروض نفسه ويجبرها ويسوسها. أي أن القرآن يعطي دلالة إسلامية للسياسة فبدل أن تكون من سلطة خارجة عن الإنسان تتحكم فيه وبما يتعارض وكرامته جعل القرآن هذه السلطة داخلية أي أن السياسة في المفهوم القرآني ليست كيف تسوس الآخرين وتحكم فيهم بل كيف تسوس نفسك وتملك زمامها وتجعل سلوكك سلوكاً إنسانياً فإذا تحققت هذه السياسة الفردية وهذه الحرب القاسية والجهاد الأكبر داخل النفس أمكن للإنسان أن يعيش حياة إنسانية، ومن هذه السياسات الفردية تتحقق السياسة العامة أو السياسة كما يرسم ملامحها القرآن الكريم.

بعد هذه المقدمة لمفهوم السياسة الاصطناعي، والقرآني أخلص إلى تحليل أسلوب الشورى القرآني في السياسة.

وأرى من الضرورة قبل هذا التحليل أن أستعرض المفهوم اللغوي للشورى ذلك أن هذا المفهوم يساعد في اعتقادي على توضيح هذه النظرة.يقول

ابن منظور «شار العسل شوراً وشياراً وشيارة ومشاراً ومشارة: استخرجه في الوقبة واجتناه، قال ساعدة بن جؤية:

فقضى مشارته وحط كأنه   حلق ولم ينشب بما يتسبسب

وأشاره واشتاره: كشارة. أبو عبيدة، شرت العسل وأشترته اجتنيته وأخذته من موضعه قال الأعشى: كأن جنياً من الزنجبيل بات بفيها واريا مشوراً... يقال: أشرني على العسل أي أعنّي.. وأنشد أبو عمر ولعدي بن زيد:

وملاه قد تلهيت بها .. وقصرت اليوم في بيت عِذاري

في سماع يأذن الشيخ له .. وحديث مثل ماذي مشار

... والماذي: العسل الأبيض. والمشار: المجتنى....

والشارة والشورة «الحسن والهيئة واللباس... يقال فلان حسن الشورة أي حسن اللباس.. وقال الأصمعي: حسن المشوار أي مجربه وحسن حين تجربه. وقصيدة شيّرة أي حسناء. وشي مشور أي مزين، وأنشد:

كأن الجراد يغنينه   ياغمن ظبي الأنيس المشورا

وأشار عليه بأمر كذا: أمره به وهي الشورى والمشورة.. وكذلك المشورة بضم الشين وفتح الواو والراء، وتقول منه: شاورته في الأمر واستشرته بمعنى. وفلان خير شير أي يصلح للمشاورة. وشاوره مشاورة وشواراً واستشارة طلب منه المشورة[1].

من خلال استعراضنا للدلالة الأصلية للفظ شورى في اللغة العربية يمكن لنا أن نلاحظ العلاقة بين الدلالة الأصلية وهي استخراج العسل من الوقبة وما في العسل من إيحاءات اللذة والحلاوة وكذلك الشفاء والدلالة المعنوية وهي طلب المشورة وأخذ الرأي فكما في عملية جني العسل فائدة تعود على المجتني فإن أخذ الرأي هو الآخر فيه الخير كل الخير ففي الشورى تبادل الآراء وتلاقح

(1) ابن منظور، المرجع السابق، جـ4، ص436، 437، دار صادر.

الأفكار بما يحققه هذا الأسلوب من حوار، ونقاش وجدل، وقد سبق أن أشرت إلى المعاني الإيجابية للحوار، والنقاش والجدل. حيث أن الحوار يعني العودة إلى الحق من «حار ـ يحور» إذا رجع ولا يعود الإنسان إلى الحقّ إلاّ إذا وضع رأيه بين آراء الآخرين وتمت المقايسة والمفاضلة. وعن طريق النقاش «المشتق من نقش ينقش» تكتمل الفكرة وتتضح ملامحها. كما أن الجدل الذي يعني التقوية من شأنه أن يقوي الفكرة الحسنة عندما ترتبط بغيرها من الأفكار.

ومن هنا فإن الشورى كأسلوب يعتبر الأكمل وهو الذي يليق بإنسانية الإنسان ويؤكد كرامته ومن خلاله يعطي له ولغيره المجال كي يبدي الآراء ويتم اختيار الأفضل كما أن هذا الأسلوب يعود الإنسان على أن يسوس نفسه ويروضها على سماع آراء الآخرين فإذا ما رأى أن أفكارهم أفضل من فكرته حار إلى الحقّ ولزم جانبه والعودة إلى الحق صفة تدل على الكمال الإنساني الذي تهدف التربية القرآنية إلى إيصال المسلمين إليه.

والآن بعد أن اتضحت الدلالة اللغوية للشورى فإننا نستشير الآيات القرآنية لنستطيع من خلال هذه المشورة تحديد أسس الشورى في مجتمع القرآن.

وردت مادة شورى في القرآن الكريم في مواضع أربعة أذكر ثلاثة منها على سبيل الحصر أما الموضع الرابع فأتناوله على سبيل التوضيح يقول تعالى في سورة مريم **﴿فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾** [آية 29] وفي سورة آل عمران يخاطب الحقّ تبارك وتعالى الرسول الكريم **﴿فبما رحمة من اللّه لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على اللّه إن اللّه يحب المتوكلين﴾** [آية 159].

وفي سورة البقرة **﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلاّ وسعها لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك فإن أرادا فصالاً عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما وإن أردتم أن تسترضعوا**

أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف واتقوا اللّه واعلموا أن اللّه بما تعملون بصير﴾[3] [233].

أمّا الموضع الرابع فهو ما ورد في سورة الشورى ومجيء سورة كاملة في القرآن تحمل هذا الاسم هو دليل أهمية، وعنوان أمر خطير ومثار قضية هامة لا بد من تدبرها واستلهام أسس النظام القرآني الإسلامي في أسلوب التعامل والسياسة منها؛يقول تعالى في سورة الشورى **﴿فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند اللّه خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربّهم يتوكلون * والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون * والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون * والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون * وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على اللّه إنه لا يحب الظالمين﴾** [الآيات 33-37].

وهنا يجدر بنا القول إن كثيراً من المفسرين الذين حاولوا تفسير هذه الآيات الكريمة قد مروا عليها مروراً عابراً وأشاروا إلى الشورى إشارة بسيطة وحق هذه الآيات الكريمة أن يتم تحليلها لا تأويلها وتوضيحها لا تحريفها وعرضها متكاملة لا تشويهها لأنها جميعاً متكاملة تعطي الصورة التامة للشورى كما أرادها اللّه.

إن بعض المفسرين عن قصد أو بدونه جاؤوا إلى جزء الآية «٣٥» من هذه السورة المبارك واقتطفوه بشكل مشوه وربما لجأ البعض إلى تأويله بما يخدم غرضه أو بما يحقق هوى في نفسه وبالتالي وقع هؤلاء والعياذ باللّه في صف أولئك الذين حرّفوا الكلم عن مواضعه فاستحقوا بذلك لعنة اللّه كما لعن من قبلهم من أتباع الرسل السابقين.

حاول هؤلاء أن يؤولوا ما أتى اللّه بيناً فجاءوا إلى قوله تعالى **﴿وأمرهم شورى بينهم﴾** ليجعلوا هذه الشورى حقاً لجماعة من المسلمين دون غيرهم أطلق البعض عليهم مجلس الشورى ـ أو أهل الحل والعقد ـ وغير ذلك من الألقاب والأسماء حتى يمكن من خلال هذا التأويل والتحريف جعل الشورى حكراً لتكون مصدر قوة للقلة وسيفاً مسلطاً على البقية. ومن حاول أن يعترض أو

يرفض أي قرار لهذه القلة حز رأسه بهذا السيف بدعوى أنه معارض لحكم اللّه ومخالف لأهل الشورى.

وحتى نكشف زيف هذا التأويل نتناول الآيات الكريمة تناولاً سهلاً ميسراً كما أنزلها الحق تبارك وتعالى. فهذه الآيات تتحدث عن الذين آمنوا **﴿وما عند اللّه خير وأبقى للذين آمنوا﴾** كما تستعرض هذه الآيات صفات هؤلاء الذين آمنوا لأن الإيمان أمر قلبي ينعكس في السلوك والأفعال وأولى هذه الصفات التي يقتضيها الإيمان:

«التوكل على اللّه» فالتوكل على اللّه صفة إيمانية تجعل الإنسان المؤمن يوكل أمره إلى ربّه ولا يلجأ إلى سواه. عندما يعزم القيام بأي عمل فيه خير وصلاح.

واجتناب الكبائر صفة أخرى من صفات الإنسان المؤمن إذ لا يقترف الكبائر من في قلبه ذرة إيمان لأن ارتكاب الكبائر والفواحش استجابة لغواية الشيطان الذي يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير وقد وردت آيات قرآنية عدة تحرّم الفواحش وتنذر مرتكبيها. كما أن الكبائر عصيان وجرأة على اللّه تستوجب غضبه وعذابه والمغفرة عند الغضب علامة من علامات القوة الحقيقيّة وخلة كريمة يهبها اللّه للإنسان المؤمن كما تأتي استجابة الذين آمنوا لأمر اللّه بإقامة الصلاة وبأن يكون أمرهم شورى بينهم وأن ينفقوا مما رزقهم اللّه صفة من صفات الإيمان الحقّ.

والانتصار عند الإصابة بالبغي: أي رفض الظلم ومحاربة أهله والانتصار للحق دونما اعتداء أو تجاوز هو كذلك شرط من شروط الإيمان كما يحدّدها القرآن الكريم.

من هنا فإن هذه الآيات هي في سياق الحديث عن الذين آمنوا وتعداد صفاتهم وبالتالي فإن كل صفة من هذه الصفات مرتبطة بأخرى ارتباطاً يكمل في النهاية الصورة الإنسانية الكاملة للمؤمن.

إن القرآن الكريم في مقام تناول الشورى يؤكد أن الاستجابة لأمر اللّه

تقتضي أن يكون أمر المؤمنين شورى بينهم وأن أمر اللّه لا يقبل الرفض أو التنصل ومحاولة التأويل، كما أن مجيء الشورى بين إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة يحدد بدقة أن هذه الشورى فرض على كل مسلم ومسلمة لا يجوز أن يقوم به أحد نيابة عن آخر فكما لا يجوز أن يقوم إنسان بالصلاة نيابة عن إنسان آخر، كذلك لا يجوز أن تتم الشورى لنفر دون الآخرين وحتى يقفل أي باب للتأويل والتمحل حدد القرآن الكريم مكان الشورى وذلك باستخدام ظرف المكان بينهم «أي أن الشورى باعتبارها استجابة لأمر اللّه وأنها صفة من الإيمان فإنها بحكم ذلك لا بدّ أن تكون بين الذين آمنوا، أي ليست في قمة وقاعدة إذ أن مفهوم القمة والقاعدة لا وجود له في مجتمع القرآن.

إن هذه الآيات الكريمة واضحة مبينة غير قابلة للتأويل وبإيجاز فإن الشورى للذين آمنوا وفي أمرهم وبينهم».

إن جعل الشورى في مجلس هو ادعاء أن هذا المجلس هو فقط الذي يستجيب لأمر اللّه وهو المتصف بالإيمان أمّا بقية المسلمين فهم خارج هذه الدائرة وفي هذا ظلم يصيب المؤمنين جميعاً يجب الثورة عليه حتى يعود الحق لنصابه كما أن جعل الشورى حقاً للرجال دون النساء هو أمر باطل كذلك فالصلاة فرض على كل مسلمة ومسلم وإقام الصلاة استجابة لأمر اللّه مثلها مثل ممارسة الشورى»[1].

إن اجتهاد المسلمين في مجتمعاتهم لا بد أن ينصب حول التفكير في الشكل العملي الذي يحقق الشورى كما أرادها اللّه للذين آمنوا وبينهم وفي أمرهم. وهذا الأمر يقتضي بداهة وجود مؤتمر له فالمؤتمر مشتق من الأمر، وما صلاة الجمعة والعيدين، والحج إلّا نماذج لهذه المؤتمرات الإسلامية يمكن أن يتم الاهتداء بها للوصول إلى الحل.

كما أن أية محاولة لمنع المسلمين من أن يكون أمرهم شورى بينهم هو

---

(1) راجع كتابي، القرآن ومشكلات الإنسان، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس/ 1981.

ظلم يصيبهم لا بد من رفعه والانتصار للحق استجابة لأمر اللّه **﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾**.

فهل من منتصر لهذا البغي والظلم الذي يمارس على جماهير المسلمين في كل شارق،هل من منتصر يحطم هذه العروش والأنظمة والأحزاب ومجالس احتكار الشورى ليتحقق أمر اللّه في أن تكون الشورى للذين آمنوا وفي أمرهم وبينهم.....؟.

أولو الأمر في القرآن

﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللّه وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى اللّه والرسول إن كنتم تؤمنون باللّه واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ [النساء 53].

أشرت أثناء حديثي عن الشورى في القرآن إلى أن بعض أهل الهوى قد يعترضون على المفهوم القرآني للشورى ويلجؤون إلى التأويل خدمة لمصالحهم أو مصالح من يقومون باللواذ بكنفهم من الحكام والسلاطين، وربما يقومون بذلك انتصاراً لثقافات ورثوها إبان عصور الصراع السياسي على الحكم الذي نشب بين المتطلعين إلى السلطة منذ وفاة الرسول الكريم صلّى اللّه عليه وسلّم حيث كانت كل طائفة تحاول أن تؤول القرآن الكريم بما يخدم أهدافها وأهداف الفئة التي تتشيّع لها وتتحزب.

فأن تكون الشورى للمؤمنين جميعاً وبينهم وأن تكون ممارستها صفة مكملة للإيمان بحيث يقاتل كل مسلم من أجل استكمالها أمراً لا يرضي هؤلاء الذين يريدونها من حق جماعة أو أسرة أو مجلس أو فرد. وبالتالي فإن أول ما يعترضون به أن هذا التفسير القرآني البين للشورى وأهلها ومكانها وموضوعها متعارض مع ما جاء في سورة النساء حيث يأمرنا تعالى بطاعة اللّه، وطاعة الرسول وأولي الأمر منا وكما أوّلوا الشورى لتناسب أهواءهم أوَّلوا كذلك مفهوم أولي الأمر ليطابق مصالحهم وأغراضهم الدنيوية الزائفة وقبل أن أستعرض

وجهات نظر البعض من هؤلاء وأرد عليها بالمفهوم القرآني لأولي الأمر أرى من المفيد تناول مفهوم الأمر في اللغة لما لذلك من علاقة في تحديد هؤلاء الذين يكونون أولي الأمر.

يقول صاحب لسان العرب «الأمر: واحد الأمور، يقال: أمر فلان مستقيم، وأموره مستقيمة. والأمر: الحادثة، والجمع أمور، لا يكسر على غير ذلك. وفي التنزيل العزيز ﴿ألا إلى اللّه تصير الأمور﴾، وقوله عزّ وجل: ﴿وأوحى في كل سماء أمرها﴾، قيل: ما يصلحها»[1].

وبنفس المعنى يفسر محمد قريب كلمة الأمر في معجم الفارسي «فرهنك لغات قرآن» «قامون الألفاظ القرآنية» حيث يقول «امر: شأن، شغل وكار وجمع آن أمور أست وآن لفظ عام است براي تمام أفعال وأقوال» ويستشهد لذلك بقوله تعالى ﴿. . وإليه يرجع الأمر كله. .﴾ [سورة هود][2].

وتعريب ذلك أن الأمر بعني الشأن، والشغل. والعمل وجمع هذه الكلمة أمور وهي لفظة عامة تطلق على جميع الأقوال والأفعال.

وهكذا يتضح أن الأمر إذا أطلق يعني كل الأمور، والحوادث، أي كل ما يهم الإنسان ويشغله في حياته باعتباره فرداً، وباعتباره عضواً في جماعة تؤثر العلاقات الاجتماعية معهم في حياته كما يؤثر هو كذلك فيهم وبالتالي لا يجوز صرفها إلى غير ذلك.

غير أن أغلب كتب التفسير التي تصدت لتفسير قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللّه وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم. . .﴾ لم تقف عند توضيح مفهوم الأمر بل فسرت «أولي الأمر» في سياق واحد وكان الأولى أن يتم تفسير معنى «أولي». . (والأمر) «ومنكم» كما يجب أن يتم كل ذلك في ضوء آيات الشورى إذ أن القاعدة السليمة في فهم القرآن أن يتم بالقرآن.

---

(1) ابن منظور، المصدر السابق، مجلد 4، ص 27، دار صادر، بيروت.

(2) محمد قريب، تبين اللغات لتبين الآيات، يا فرهنگي لغات قرآن»، ان المجلد الأول، ص 81، دار نشر بنياد، تهران، يران، 1987.

وحتى نوضح الخلط الذي وقع فيه بعض المفسرين من أهل الهوى نستعرض رأيَ صاحب «تفسير الصافي» والذي يؤولها لتطابق هواه الشيعي مستشهداً بآراء لمؤولين شيعة حيث يقول «في الكافي والعياشي عن الصادق عليه السلام إيانا عنى خاصة «أي آل علي» أمر جميع المؤمنين إلى يوم القيامة بطاعتنا. . . وفي العياش عنه «أي عن الصادق» قـال «نزلت في علي بن أبي طالب والحسن والحسين. . . »[1].

كما يحاول صاحب «الميزان في تفسير القرآن» جاهداً أن يؤول هذه الآية لتنطبق على علي بن أبي طالب وأبنائه باعتبارهم «معصومين!!» حيث يقول «لا معنى لحمل قوله تعالى ﴿وأولي الأمر منكم﴾ على جماعة المجمعين من أهل الحل والعقد «ويقصد فرقة السنة، وهي الهيئة الاجتماعية بأي معنى من المعاني فسرناها فليس المراد بأولي الأمر آحاد من الأمة معصومون في أقوالهم مفترض طاعتهم فتحتاج معرفتهم إلى تنصيص من جانب اللّٰه سبحانه من كلامه أو بلسان نبيّه **فينطبق على ما روي من طرق أئمة أهل البيت عليهم السلام أنهم هم»** وحتى ينتصر لحزبه الشيعي على الحزب المعارض السني يقول «وأما ما قيل: أن أولي الأمر هم الخلفاء الراشدون أو أمراء السرايا أو العلماء المتبعون في أقوالهم وآرائهم فيدفع حسب رأيه الآتي:

أولاً: إن الآية تدل على عصمتهم ولا عصمة في هؤلاء الطبقات بلا إشكال إلا ما تعتقده طائفة من المسلمين في حقّ علي «عليه السلام».

وثانياً: إن كلاً من الأقوال الثلاث قول من غير دليل يدل عليه[2].

ولو أنني استعرضت آراء الفرق الأخرى والتي تم تناول إحداها عرضاً في أقوال الشيعة لوجدت أن كل فرقة تحاول أن تؤول الآية حسب هواها ولكن لا بد من الرد عليها جميعاً من خلال الرد على ما ادعاه الطباطبائي فأقول «إن كلاً من

---

(1) محمد محسن الكاشاني، تفسير الصافي، المجلد الأول، ص462، 463 مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان.

(2) محمد حسن الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، جـ 4، ص 398، 399، قم، إيران.

الأقوال الثلاثة وقولك رابعهم من غير دليل يدل عليها جميعاً، والرد لا يكون من وجهة نظر شخصية بل من القرآن وبالقرآن.

أولاً: حاول الطباطبائي جاهداً أن يبرهن على أن علياً وأبناءه وحفدته معصومون وأن الآية تدل على ذلك وهنا أقول: أولاً إن الآية ليس فيها أية إشارة إلى علي ولا إلى أبنائه فالأمر موجه إلى المؤمنين جميعاً وأولوا الأمر وصفهم الله بأنهم من المؤمنين **﴿وأولي الأمر منكم﴾** إلا إذا جاز للطباطبائي أن يقول إن المؤمنين في الآية هم علي وبنوه المباشرون والذين يأتون من عقبهم أي من آل بيت علي وإن الباقين غير مؤمنين وهذا القول باطل من أساسه!!.

ثانياً: إن الآية الكريمة إذا كانت كما يدّعي هو ومن يقول بقوله قد نزلت في علي فلماذا لا يتم التصريح به علناً خاصة وأنها تتناول موضوعاً هاماً وخطيراً وما الداعي إلى الغموض الذي يفتعله هؤلاء في الآية بما يستدعي تأويلهم فالله سبحانه وتعالى لا يستحي من الحقّ إذا كان هذا حقاً لعلي وبنيه **﴿.. إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلّا الفاسقين﴾** [الأحزاب، آية 53].

ثالثاً: من أين جاء هـذا الطباطبائي بالعصمة ولقد استعرضت الآيات القرآنية فما وجدت للمعنى الذي يورده من دليل وقد وردت في الآيات الكريمة في سياقات مختلفة وواحدة فقط موجهة للرسول صلّى الله عليه وسلّم وحتى هذه لا تفيد المعنى الذي ذهب إليه الطباطبائي يقول تعالى في سورة المائدة **﴿يا أيّها الرّسول بلغ ما أنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾** [البقرة، آية 25].

فالآية الكريمة في سياق الطمأنة للرسول الكريم والتأكيد الإلٰهي أن الناس سوف لن يصلوا إليه بأذى فهو عاصمه منهم أي حاميه وهذه الآية في ذاتها معجزة قرآنية باهرة إذ عصم الله رسوله على الرغم من جميع المحاولات الشريرة التي حاكها الكفار والمنافقون ورغم المعارك التي خاضها بنفسه مقاتلاً ومحرضاً من أجل إعلاء كلمة الحقّ.

كما أن عظمة الرسل ليست في محاولة تقريبهم من الملائكة بجعلهم معصومين عن كل خطأ بل عظمتهم تكمن في بشريتهم ومعاناتهم بحيث استحق بعضهم شهادة أولي العزم بالصبر على الشدائد والقوة في مواجهة المحن.

إن الكفار فقط هم الذين طلبوا أن يكون الرسل ملائكة **﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلّا أن قالوا أبعث اللّه بشراً رسولاً * قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً * قل كفى باللّه شهيداً بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾** [الإسراء، 94-96] **﴿وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً﴾** [الفرقان، 7].

نعود إلى الآية الكريمة التي تناولت طاعة أولي الأمر محاولين فهمها من خلال سورة الشورى فهذه الآية كما هو واضح فيها أمر لكل الذين آمنوا بطاعة اللّه، وطاعة الرسول، ثم بطاعة جزء وصفهم اللّه بأنهم «منهم» أي من الذين آمنوا وهذا الأمر علاوة على أنّه مفهوم بالضرورة يكمل مفهوم سورة الشورى ولا يتعارض معه كما قد يحاول البعض أن يعترض.

فالآيات الكريمة في سورة الشورى هي الأخرى تتحدث عن الذين آمنوا وتتناول صفات الإيمان والتي منها **﴿. . وأمرهم شورى بينهم﴾**.

وهذا يعني كما ذكرنا أن الأمر لا بد وأن يكون شورى بينهم. فإذا تشاوروا في هذا الأمر وبينهم هنا تأتي مرحلة تنفيذ هذا الأمر والحاجة إلى أولي الأمر ذلك أن الكثير من الأمور التي تهم الناس أفراداً وجماعات لا يمكن القيام بها بشكل جماعي بل تقتضي التخصص. . فإذا تشاور المؤمنون في الزراعة مثلاً أو التعليم، أو الصحة وما سواها من الأمور ووصلوا فيها إلى مرحلة العزم اختاروا من يقوم من بينهم من المختصين بتنفيذها أي من الذين آمنوا وتشاوروا في أمرهم وهؤلاء هم أولوا الأمر أي الذين يوكل لهم القيام بالأمر بعد التشاور فيه وهنا تكون طاعتهم واجبة لاعتبارات تفهم من القرآن بالضرورة إذ أن المؤمنين لا يمكن أن يتشاوروا إلّا في الأمور التي تقرّها شريعتهم وإن عزمهم أو قرارهم لا يمكن أن يخرج عن هذه الشريعة وفي طاعة الشريعة طاعة للّه وطاعة للرسول

وفي طاعة أولي الأمر الذين تم اختيارهم لتنفيذ ما يساعد على إنجاز هذه المهام الصعبة وهي اكتمال لهذه الطاعات.

فإذا ما اختلفوا وهم يتشاورون في أمر «فحكمه إلى اللّٰه» كما جاء في سورة الشورى ذاتها، ومن هنا كانت بعض المشاهد الإيمانية في بداية تكوين الجماعة العربية المسلمة الأولى تعكس هذه الحقيقة إذ كان المؤذن يؤذن في المسجد ثم يتم توضيح الغرض من الاجتماع ويتم التشاور والعزم والتوكل على اللّٰه والتنفيذ. حتى في الحرب وهي من أخطر الأمور وأصعبها ومن المسجد كانت تعقد ألوية أولي أمر الحرب لينطلق المؤمنين إلى القتال طاعة للّٰه والرسول وأولي الأمر.

القرآن والقوميّة

لم تتم مهاجمة رابطة فطرية مثلما هوجمت الرابطة القومية ولأنها رابطة لا يمكن إلّا الاعتراف بها إذا تجرد الإنسان من سلطان الهوى وتخلص من عقد التسلط وخلص نفسه من قيود الثقافات الاصطناعية وقبل أن أستعرض نظرتي في القومية أرى ضرورة استشارة معجم اللغة كي ابتعد بهذه الرابطة عن المصطلحات الوضعية التي شوهت صورتها ثم أتناول الآيات الكريمة التي توضح هذه العلاقات الفطرية التي هي جعل إلٰهي وإرادة ربانية وليس قراراً سياسياً أو دعوى بدعية.

يقول صاحب لسان العرب تحت مادة قوم قوم: قام قياماً وقومة وقامة ومنها كذلك «القيام» بمعنى العزم والثبات ويستشهد لذلك بقول العماني الراجز للرشيد عندما هم بأن يعهد إلى ابنه القاسم:

قل للإمام المقتدي بأمه
ما قاسم دون مدى ابن أمه
فقد رضيناه فقم فسمه

أي فاعزم ونص عليه، وكقول النابغة الذبياني:

نبئت حصناً وحياً من بني أسد قاموا فقالوا: حمانا غير مقروب

أي عزموا فقالوا، وكقول حسّان بن ثابت:

علام قام يشتمني لئيم كخنزير تمرغ في رماد

معناه علام يعزم على شتمي.

وبمعنى الثبات قول الأعشى:

كانت وصاة وحاجات لها كفف لو أن صحبك إذ ناديتهم وقفوا

أي ثبتوا ولم يتقدموا. ومنها قول هدبة يصف فلاة لا يهتدي فيها:

يظل بها الهادي يقلب طرفه يعض على إبهامه وهو واقف

والمقام: موضع القدمين

هذا مقام قدمي رباح غدوة حتى دلكت براح

... والمقام والمقامة «بضم الميم الأولى»: الموضع الذي تقيم فيه. والمقامة، بالضم: الإقامة. والمقامة بالفتح: المجلس والجماعة من الناس، ومنها المقامات الأدبية المعروفة.

ومن مادة قوم: الاستقامة: الاعتدال، يقال: استقام له الأمر. وقوله تعالى: ﴿فاستقيموا إليه﴾ أي في التوجه إليه دون سواه. وقام الشيء واستقام. اعتدل واستوى.

قال كعب بن زهير:

فهم صرفوكم حين جزتم عن الهدى بأسيافهم حتى استقمتم على القيم

والقوام: العدل، قال تعالى: ﴿وكان بين ذلك قواماً﴾.

وقوم دراه: أزال عوجه، وكذلك أقامه، ومنه قول الشاعر:

أقيموا بني النعمان عنا صدوركم وإلّا تقيموا صاغرين الرؤوسا

والقامة: جماعة الناس والقامة أيضاً: قامة الرجل. وقامة الإنسان وقيمته وقومته وقُوميته، وقوامه: شطاطه

قال العجاج:

أمـا تـريـنـي الـيـوم ذا رثـيَّـة
فـقـد أروح غـيـر ذي رذيـة
صلب القنـاة سلهب القُـومية

. . . ورجل قويم وقوّام: حسن القامة وجمعها قوام وقوام الرجل. قامته وحسن طوله. . . والقوام حسن الطول، يقال: هو حسن القامة والقومية والقمة.

وقامة الإنسان تجمع على قامات وقيم كما يقول الجوهري.

. . وقوام الأمر «بكسر القاف» نظامه وعماده ومنها قول لبيد:

أفتلك أم وحشيـة مسبـوغـة   خذلت، وهادية الصوار قوامها

. . والقيمة: واحدة القيم، وأصله الواو لأنه يقوم مقام الشيء. والقيمة: ثمن الشيء بالتقويم.

والقوام من العيش: ما يقيمك، وقوام العيش عماده الذي يقوم به. وقوام الجسم تمامه. وقوام كل شيء: ما استقام به، قال العجاج:

رأس قوام الدين وابن رأس

«والقـوم» الجماعـة من الرجـال والنساء. . . وقـوم كل رجـل شيعته وعشيرته[1].

وفي معجم «فرهنك فارسي» يقدم صاحبه بعضاً من المعاني التي أوردنا للفظ قوم حيث يقول «قوم: كروه مردم» اززن ومرد «. . . كسى به شخص قرابت داشته باشد خويشاوند، ج: أقوام»[2] (قوم: جماعة من الناس «من النساء والرجال». . . . الإنسان الذي له علاقة قرابة بإنسان آخر ومنها خويشاوند: الأقارب»[*].

(1) ابن منظور، المرجع السابق، جـ 12، 496-505.
(2) محمد معين، المرجع السابق، جـ 2، 2751-2752.
(*) التعريب، الباحث.

إن الملاحظ لجميع الدلالات التي وردت في معجم لسان العرب والتي رأيت من اللازم إيرادها تخدم جميعها دلالة قوم التي تشتق منها «القَومية» لتدل على العلاقة التي تربط أبناء القوم الواحد.

فهذه العلاقة لها معنى الاستقامة أي أنها تعود إلى أصل واحد لا انحراف فيه، ولها معنى القوة والثبات بمعنى أنها صفة ثابتة وأصلية ومن مستلزمات القوة والمنعة.

وهي أي الرابطة تعني العدل أي عدم الانحراف كما أنها نظام وعماد الجماعة إذ بدون هذه الرابطة فإن مصير الجماعة يؤول إلى التشتّت والتفرّق.إن القرآن الكريم باعتباره يؤكد الفطرة الإنسانية التي بهـا تتحقق المجتمعات المسلمة يؤكد بالضرورة هذه الرابطة الفطرية بل إن القرآن الكريم يتناول جميع العلاقات التي هي أدنى من القوم والتي تكون مجتمعة هذه العلاقة القومية، حيث يتناول الأهل وأهل الرجل كما يقول الجوهري «عشيرته وذوو قرباه، والجمع أهلون وآهال، وآهالي وأهلات وأهلان» كما أن «أهل» لها معنى الألفة وإبعاد الوحشة ومنها قول العرب مرحباً وأهلاً: أي أتيت رحباً أي سعة. وفي المحكم لابن سيدة «أي أتيت أهلاً لا غرباً فأستأنس ولا تتوحش».

وقد وردت أهل في القرآن الكريم في عدة مواضع نذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى في سورة طه مخاطباً الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ﴿**وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى**﴾ [آية 131] وفي سورة العنكبوت يقول الحقّ تبارك وتعالى بشأن لوط عليه السلام: ﴿**ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بم ذرعاً وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلاّ امرأتك كانت من الغابرين**﴾ [آية 33].

فالزوجة من الأهل والاستثناء هنا عقوبة الكفر ونفس المعنى ورد بحقّ نوح عليه السلام ﴿**حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلاّ من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلاّ قليل**﴾ [40 هود].

﴿ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين * قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ [هود 45-46].

ففي الآية «40» من سورة هود أمر اللّٰه نوحاً أن يحمل في الفلك من كل زوجين اثنين وأهله فاعتقد نوح أن ابنه بحق العلاقة الفطرية من أهله وكان هذا الاعتقاد وراء قوله **﴿إن ابني من أهلي﴾** وهنا يتم الاستثناء ليس إنكاراً للعلاقة الفطرية ولكن لأن ابنه بكفره وعصيانه لا يستحق هذه القرابة المقدسة(*).

كما يتناول القرآن الكريم حلقة أخرى من حلقات العلاقة الجماعية الفطرية وهي العشيرة ومن معانيها «العشرة والمخالطة، عاشرته معاشرة، واعتشروا وتعاشروا: تخالطوا ومنها قوله تعالى في سورة الحج: **﴿لبئس المولى ولبئس العشير﴾** قال طرفة:

ولئن شطت نواها مرة لعلى عهد حبيب معتشر

وعشيرة الرجل: بنو أبيه الأدنون، وقيل هم القبيلة، والجمع عشائر»[1].

والقرآن الكريم يعطي العشيرة ترتيباً اجتماعياً أكبر من الأهل فالعشيرة هم ما فوق العائلة مع بقاء الرابطة الجماعية الفطرية يقول تعالى في سورة التوبة:

﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من اللّٰه ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي اللّٰه بأمره واللّٰه لا يهدي القوم الفاسقين﴾ [آية 24].

كما يتناول القرآن الكريم في مجال تعرضه للعلاقة التي تربط الأقرباء دائرة أخرى وهي دائرة القبيلة والشعب: والقبيلة كما يقول الجوهري «واحدة

(*) بهذا المعنى قال صلّى اللّٰه عليه وسلّم: سلمان منا آل البيت، فالعلاقة بين الأنبياء والرسل باعتبارهم أصحاب رسالة لا تحددها فقط قرابة الدم بل إن أهل الرسل والأنبياء هم أتباعهم وهذا خصيصة الرسل والأنبياء وإن كانت لا تلغي قرابة الدم.

قبائل الرأس وهي القطع المشعوب بعضها إلى بعض تصل بها الشؤون، وبها سميت قبائل العرب، الواحدة قبيلة»[1].

أمّا الشعب من الأضداد في العربية حيث يعني «الجمع، والتفريق» والإصلاح والإفساد. . . والشعب ما تشعب من قبائل العرب والعجم. وكل جيل شعب «والجيل في العربية كل صنف من الناس الترك جيل، والصين جيل، والعرب جيل، والروم جيل»[2].

ومن الشواهد على الشعب بمعنى الجيل قول ذو الرمة:

لا أحسب الدهر يبلي جده أبداً ولا تقسم شعباً واحداً شعباً[3]

ومعنى بيت ذي الرمة: لم أن أظن أن الدهر بصروفه قد يبلي الجديد، ولا الشعب «بضم الشين وفتح العين، شعب الدهر: أي حالاته ونوائبه» يمكن أن تقسم شعباً واحداً.

وقد ورد ذكر القبائل والشعوب في القرآن الكريم في قوله في سورة الحجرات ﴿**يا أيّها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند اللّه أتقاكم إن اللّه عليم خبير**﴾ [آية 13].

أما قوم وهي موضوع هذه النظرة فقد وردت في القرآن الكريم في عدة مواضيع نذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى في «سورة المجادلة» بما يؤكدها دائرة أوسع من الدوائر التي سبق ذكرها ﴿**لا تجد قوماً يؤمنون باللّه واليوم الآخر يوادون من حاد اللّه ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناؤهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي اللّه عنهم ورضوا عنه أولئك حزب اللّه ألا إن حزب اللّه هم المفلحون**﴾ [آية 22]، فهذه الآية التي تناولت هؤلاء

---

(1) ابن منظور، المرجع السابق، جـ 1، 541.
(2) ابن منظور، المرجع السابق، ص 134.
(3) ابن منظور، المرجع السابق، جـ 500.

القوم الذين رغم العلاقة الفطرية التي تربطهمُ بـآبائهم وأبنـائهم وإخوانهم وعشيرتهم بحيث يكونون جميعاً قوماً رغم ذلك فهم يتجاوزون هذه العلاقات على الرغم من قوتها ويرفضون مودة من حاد اللّه ورسوله.

فهذا الموقف يؤكد قوة هذه العلاقات ولا ينفيها ويجعل الذين ينتصرون لإيمانهم أهلاً لأن يكونوا حزب اللّه الذي كتب اللّه له الفلاح والفوز.

فتجاوز ما تفرضه هذه العلاقات الفطرية ليس أمراً مطلوباً إلاّ إذا كانت هذه العلاقات تفرض كفراً وموالاة لأعداء اللّه ورسوله وما سوى ذلك فهي مطلوبة وضرورية.

كما يشير القرآن الكريم إلى نعمة ربانية حيث يقول تعالى في سورة إبراهيم **﴿وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبين لهم فيضل اللّه من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم﴾** [آية 5].

ومن هذه الحقيقة الربانية والنعمة الإلٰهية يؤكد القرآن اعترافه بالعرب كقوم يقول تعالى في سورة فصلت **﴿حم تنزيل من الرَّحمن الرَّحيم، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون﴾** فالمقام هنا مقام رحمة إلٰهية أن جعل القرآن بلغة هؤلاء القوم التي يعلمونها وبالتالي يفهمون المعاني التي تتناولها الآيات القرآنية.

والتأكيد على عروبة القرآن وردت في أكثر من موضع ففي سورة «يوسف» يخاطب اللّه تعالى العرب بقوله **﴿الر تلك آيات الكتاب المبين * إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾** فالتأكيد هنا على وضوح القرآن وبيانه وهي رحمة من اللّه حتى يتمكن العرب من تعقله إذ أن الإنسان لا يتعقل ما لا يفهم.

وفي سورة الرعد **﴿وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ولئن اتبعت أهواءهم بعدما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق﴾** [آية 37] فهذه الآية نزلت بعد قوله تعالى **﴿والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعو وإليه مآب﴾** [آية 36].

فهذه الطائفة من العرب التي تحزبت ضد الرسول طائفة ضالة لأنهم رغم

العلاقة التي تربطهم بالرسول الكريم وإخوانهم العرب كفروا ببعض القرآن رغم أنه «حكم عربي» كان الأولى بهم بحكم هذه العلاقة أن يذعنوا إليه ويسلموا به.
وفي سورة الشعراء يقول الحقّ تبارك وتعالى **﴿وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين * وإنه لفي زبر الأولين * أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل * ولو نزلناه على بعض الأعجمين * فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين﴾** [الآيات 192-199].

فهذه الآيات نزلت في مقام الحديث عن الذين كذبوا بالقرآن الكريم واستكبروا رغم أنه نزل بلسانهم **﴿بلسان عربي مبين﴾** وهي منّة من اللّه فلو أنزل القرآن باللغة العربية على الأعاجم غير العرب لما آمنوا به بالضرورة لعدم فهمهم له.

وبالتالي فإن هؤلاء المكذبين بدل أن يؤمنوا به ادعوا معاندة وكفراً أن الشياطين تنزل به على الرسول وهو دليل عجز وانعدام حيلة وهنا يرد عليهم القرآن الكريم **﴿وما تنزلت به الشياطين * وما ينبغي لهم وما يستطيعون﴾** فهو نفي وتأكيد استحالة لأن القرآن بحكم قداسته وطهارته لا يمكن أن تكون الشياطين وسيلة نقله بل «الروح الأمين» ثم يرد عليهم الحق تبارك وتعالى من خلال حقيقة يعرفونها جميعاً وهي علاقة الشيطان بالإفك والغواية التي يكون الشعر غير الملتزم وسيلة لها **﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين * تنزل على كل أفّاك أثيم * يلقون السمع وأكثرهم كاذبون * والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون * إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا اللّه كثيراً وانتصروا من بعدما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾** [الشعراء، الآيات 221 ـ 227].

وفي سورة فصلت يلزمهم القرآن الكريم الحجة بقوله تعالى **﴿ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته ءأعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد﴾** [آية 44] أي لو كان القرآن قد أنزل عليهم بلسان أعجمي لطالبوا بتوضيح آياته لأنهم لا يفهمونها إذ كيف يكون المخاطب عربياً واللغة المخاطب بها

أعجمية وما دام القرآن عربياً فهو مفصّل وواضح وعدم فهمهم له لا يأتي من جهة لفظه ومعانيه بل بسبب كفرهم الذي يعطل الآذان عن السمع والعيون عن الإبصار فإن تقل لهم الحقيقة رغم وضوحها فكأنهم ينادون من مكان بعيد.

وفي سورة النحل في مقام عربية القرآن في مواجهة العجمة يقول الحقّ تبارك وتعالى رداً على أولئك الذين ادعوا أن الأعاجم يعلمون الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم القرآن **﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذين يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾** [آية 103].

فالإعجاز هنا من جهة اللغة إذ كيف يعلمه هذا الشخص الأعجمي ثم يكون القرآن مبيناً بهذا اللسان العربي وما الذي أعجزهم وهم العرب أهل هذه اللغة والعلماء بصناعتها أن يأتوا بمثل هذا القرآن إذا كان الأمر كما يخرصون.

إن الخلاصة التي نصل إليها من خلال هذا الاستعراض هي:

١ ـ إن العلاقة القومية هي علاقة فطرية فطر اللّه الناس عليها وإن العشائر والقبائل والشعوب والأقوام هي جعل إلهي وهي حكمة من اللّه تعالى كي يتعارف الناس من خلالها.

٢ ـ إن اللسان هو نتاج هذه العلاقات الاجتماعية بمعنى أن اللغة هي ظاهرة قومية اجتماعية تأتي بفعل الحاجة إلى التخاطب والحوار الذي تفرضه العلاقات الاجتماعية الفطرية فاللغة القومية هي لغة فطرية وطبعية تأخذ فطريتها من فطرية علاقات القوم أصحابها.

٣ ـ إن القرآن الكريم يؤكد أن لكل قوم لساناً كما يؤكد عربية القرآن وعروبة العرب.

٤ ـ إن القرآن بحكم كونه عربياً يضع على عاتق العرب أمانة التبليغ والدعوة وإن القرآن الكريم باعتباره قد نزل بلسان **﴿غير ذي عوج﴾** يمكن من نقل معانيه وأحكامه إلى غير العرب بسهولة ويسر.

٥ ـ إن الانتماء القومي غير الادعاء بأن هؤلاء القوم هم أفضل من أولئك إذ أن جعل الناس شعوباً وقبائل لحكمة التعارف ولكن الكرامة لا تكون إلّا

بالعمل الصالح والتقوى والذين يعتقدون أن شعوبهم وأقوامهم أفضل بحكم العلاقة الاجتماعية من الشعوب الأخرى هم جهلة بأصل الخلقة **﴿يا أيّها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾** حيث يؤكد تعالى وحدة الأصل الإنساني وأن الجعل الذي أتى بعد الخلق هو لحكمة إلهية فالحق أصل والجعل نتيجة.

٦ ـ إن هذا المفهوم القرآني للقومية من شأنه لو قدم تقديماً سليماً أن يقضي على كل البدع والأشكال الاصطناعية التي تعاني منها المجتمعات البشرية اليوم ونقصد بها «الناشيوناليزم» و«الانترنشيوناليزم»، أي الأقلية، والأممية.

ما الاقتصاد في القرآن

بذل كثير من المخلصين جهوداً مشكورة من أجل التنظير للاقتصاد في الإسلام إلاّ أن محاولاتهم ظلت في أغلب الأحوال قاصرة. وسبب قصورها أنها كانت ردوداً لنظريات وأفكار هي أصلاً مناقضة للمنهج القرآني الذي يقوم أساساً على الفطرة ويهدف إلى العودة بالجماعات الإنسانية إليها بعد أن انحرفت بها السُّبل، وتشعبت بها الطرائق.لقد دخل الإنسان مرحلة الآلة والتصنيع فرحاً مسروراً معتقداً أنه بها قد يملك كل شيء لتنتهي به المأساة إلى أن يصبح هو نفسه ضحية هذا التصنيع ابتداء منه وانتهاء بالقِيَم التي تحدد سلوكه وأفعاله وكذلك تعطيه قيمة إنسانية وبدل أن تكون هذه الأفعال صادرة عن إنسان فطري تحدد القِيَم الفطرية علاقاته وتجعل منه في حد ذاته قيمة أصبحت هذه الأفعال هي الأخرى مقيدة بجملة من القوانين والقواعدوالمؤسسات التي جعلتها مصنعة ولأن القِيَم قد أصبحت مصنعة إذاً فقد فتح باب الجور والظلم على مصراعيه.

إن جوهر الحقيقة القرآنية هي العدل فالعدل هو معيار كل شيء لأنه أصل كل شيء وقبل أن أتناول هذه الحقيقة وعلاقتها بالاقتصاد كما يحدّد ملامحه القرآن، أرى التزاماً بالمنهج الذي رأيته منذ البداية أن أتناول مفهوم العدل في اللغة.

يقول صاحب لسان العرب «العدل: ما قام في النفوس أنه مستقيم، وهو ضد الجور. . وفي أسماء اللّه سبحانه: العدل، هو الذي لا يميل به الهوى

فيجور في الحكم. . والعدل: الحكم بالحق، يقال: هو يقتضي بالحق ويعدل. . والعدالة والعدولة والمعدلة، كله: العدل. وتعديل الشهود: أن تقول إنهم عدول. وعدل الحكم: إقامه. والعدل: الفدية، وفلان يعدل فلاناً أي يساويه. ويقال: ما يعدلك عندنا شيء أي ما يقع عندنا شيء موقعك. وعدل الموازين والمكاييل: سواها. وعدل الشيء يعدله عدلاً وعادله: وازنه.

وعادلت بين الشيئين، وعدلت فلاناً بفلان إذا سويت بينهما. وتعديل الشيء: تقويمه وقيل: العدل تقويم الشيء بالشيء من غير جنسه حتى تجعله له مثيلاً. والعدل سواء النظير والمثيل، وقيل: هو المثل وليس بالنظير عينه»[1] ويجمع صاحب القاموس المحيط هذه المعاني بقوله «العدل: ضد الجور وما قام في النفوس إنه مستقيم كالعدالة والعدولة والمعدلة والمعدلة عدل فهو عادل من عدول وعدل بلفظ الواحد وهذا اسم للجمع رجل عدل وامرأة عدل وعدلة وعدّل الحكم تعديلاً أقامه وفلاناً زكّاه والميزان سواه والعَدَلة محركة كهُمَزة المُزَكُّون أو كهُمَزَة للواحد بالتحريك للجمع وعَدَلَه يَعْدِله وعادله وازنه وفي المحمل ركب معه والعدل المثل والنظير كالعِدْل والعَديل[1].

إن المتتبع لدلالات العدل اللغوية يجدها لا تخرج عن معنى الاستقامة والمساواة بمعنى أنه إذا لم تتم المساواة حصل الجور أو الميل وبالتالي انعدم العدل فانعدمت الاستقامة.

فالعلاقة إذاً وثيقة بين العدل الذي يؤدي إلى عدم الجَوْر والميل وبالتالي إلى الاستواء والاستقامة. والاستواء والاستقامة مظهر الفطرة السليمة وبهذا أكّد القرآن الكريم على أن أصل خلقة الإنسان الفطرية خلقة مستوية يقول تعالى في سورة الانفطار ﴿**يا أيّها الإنسان ما غرّك بربك الكريم الذي خلقك فسوّاك فعدلك * في أي صورة ما شاء ركّبك**﴾ [الآيات 6 ـ 8].

ويقول تعالى في سورة القيامة: ﴿**أيحسب الإنسان أن يترك سدى * ألم يكن نطفة من مني يمنى * ثم كان علقة فخلق فسوى**﴾ [الآيات 35-37].

---

(1) ابن منظور، المرجع السابق، جزء 11 ص 430-435 دار صادر، بيروت.

وفي سورة الأعلى يقول الحقّ تبارك وتعالى: ﴿**سبّح اسم ربك الأعلى * الذي خلق فسوى * والذي قدر فهدى**﴾ [1-3] وتتكرر في القرآن الكريم مشاهد الخلق الفطري المستوي المستقيم حيث يعبر الحق تبارك وتعالى عن ذلك بغير لفظ الاستواء الذي يعدله بالتقويم يقول تعالى في سورة التين ﴿**والتين والزيتون، وطور سنين، وهذا البلد الأمين، لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم**﴾ [الآيات 1-4].

إذاً فأصل خلقة الإنسان الاعتدال والاستواء والإستقامة وهي بهذا جوهر كل شيء فإذا ما تم انحراف في الإنسان أدّى به ذلك إلى الانحراف في كل شيء حيث يهبط إلى أسفل درك ﴿**ثم رددناه أسفل سافلين**﴾ ويتحول كل شيء منه وحوله إلى إعوجاج وجور لانحراف وميل فيه.

ومن هنا يعطي الحقّ تبارك وتعالى للعدل القيمة الأساس والأولى فالتوحيد هو ذاته نتاج هذا العدل وما الشرك بالله إلّا جور وظلم لأنه انعدام للعدل واختلال في الميزان حيث يجور المشرك بأن يعدل بالله الخالق شيئاً مما سواه أي يسوي بين الخالق والمخلوق ﴿**أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون**﴾ [النمل الآية 17] ومن هنا فإن توحيد الله وإفراده بالعبودية أمر فطري وإن كان لا يصدر إلّا عن نفس مفطورة مستوية.إن عبودية الله ذاتها دليل استواء واعتدال، والدلالة اللغوية «لعبد» تدل على الاستقرار وعدم الانحراف فالعبودية إذاً مظهر عدل واستواء وهي بهذا مظهر فطري.

إن المواضع التي تناول القرآن الكريم فيها لفظ «العدل» كلها تدور في هذا السياق أي تؤكّد أن العدل جوهر الفطرة السليمة يمنع الانحراف والميل ويحقق الاستواء والاستقامة.

وربما تناولت آيات قرآنية أخرى قرينة لفظية من مستلزمات العدل «وهي الوزن، والميزان، والقسطاس المستقيم» الذي يؤدي إلى القسط والعدل. بل ويؤكد الحقّ تبارك وتعالى أن الغاية من الرسالات الإلٰهية جميعها ليقوم الناس بالقسط أي العدل، وإن الشرائع ليست سوى الميزان المستقيم الذي يعود بالناس إلى الفطرة،يقول تعالى في سورة الحديد ﴿**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات**

وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم اللَّه من ينصره ورسله بالغيب إن اللَّه قوي عزيز﴾ [الآية 24].

إن النتيجة التي توصلنا إليها هذه المقدمة أن العدل هو جوهر الحقيقة القرآنية وهو مظهر للفطرة السليمة وأن الرسالات جميعها جاءت لتؤكد هذه الحقيقة وتدعو إليها حتى يعود الإنسان إلى أصل الخلقة سوياً، مستقيماً عدلاً. كما أن سبب جميع الأمراض التي يعاني منها البشر أفراداً وجماعات هي الانحراف عن الفطرة وانعدام العدل والمساواة. وقد حاولت أن ألمس هذه النتيجة من خلال حديثي في النظرات السابقة جميعها. وربما يتساءل البعض عن العلاقة بين هذه المقدمة عن العدل وملامح الاقتصاد في القرآن وهنا أقول: دعونا نبدأ بالعلاقة في الدلالات اللغوية حيث يقول الجوهري في «لسان العرب» «القصد، استقامة الطريق. قصد يقصد قصداً، فهو قاصد. وقوله تعالى: ﴿وعلى اللَّه قصد السبيل﴾ أي على اللَّه تبين الطريق المستقيم والدعاء إليه بالحجج والبراهين الواضحة وطريق قاصد: سهل مستقيم» ويوضع القصد نقيضاً للجور والظلم ويستشهد ابن منظور لذلك بقول لأبي اللحام التغلبي»:

على الحكم المأتي، يوماً إذا قضى قضيته أن لا يجور ويقصدُ

بنصب يجور ورفع يقصد وتعليل القراء في الرفع للفعل يقصد أيسر وأسهل حيث يقول «رفعه للمخالفة لأن معناه» أي يقصد «مخالف لما قبله» يجور «فخولف بينهما في الإعراب».

ويورد الجوهري للقصد معنى الاعتماد والأَمّ يقول «والقصد: الاعتماد والأَمُّ. قصد يقصده قصداً وقصد له وأقصدني إليه الأمر، وهو قصدُك وقصَدَك أي تجاهك... ويقول كذلك: والقصد في الشيء: خلاف الإفراط،هو بين الإسراف والتقتير. والقصد في المعيشة أن لا يسرف ولا يقتر، يقال: فلان مقتصد في النفقة وقد اقتصد. واقتصد فلان في أمره أي استقام»(1).

(1) الجوهري، المرجع السابق، جـ3، ص 535، 354، دار صادر، بيروت.
Chamber's twentieth century dictonary, W. R. Chambers, ltd, P. 334.

إذاً فالمعنى اللغوي من خلال استعراضنا لمادة قصد قريب جداً لمعنى مادة عدل إذ فيها الاستواء، والاستقامة وعدم الإفراط والتفريط.

فإذا انتقلنا من الدلالة اللغوية الأصلية إلى الدلالة الجديدة للاقتصاد في المعاجم المتخصصة فإننا نجد الاقتصاد كدلالة اقتصادية معاصرة يوضع مرادفاً للكلمة الأجنبية Economy وهي تركيب من الأصل اليوناني «Oikos» والتي تعني منزل ومن «Nomy» والتي تعني «نظام النواميس المهيمنة في حقل بعينه أو مجموعة المعارف المتصلة به[1].

إذاً economy في أصلها الاشتقاقي «The management of a house, a household or of money maters» أي العلم الذي يبحث في تدبير حاجيات المنزل وإدارة أموره المالية. إلاّ أن هذا المعنى اللغوي كما هو واضح لا يرقى إلى مستوى الدلالات اللغوية التي يعطيها معنى القصد والاقتصاد في اللغة العربية والتي تعطي ليس فقط جانب الحصول على هذه الحاجات بل كيفيّة الحصول عليها عن طريق العدل وعدم الجور، وأسلوب تصريفها بشكل يرفض الإسراف والتقتير ويحقق القصد والاستواء.

وإذا كانت الدلالات الجديدة لمصطلح «economy» قد شابها الكثير من الإضافات والتحريفات كنتاج لتصنيع العلاقات البشرية والانحراف بها عن الفطرة فإننا سنرجيء الحديث عن هذا المفهوم إلى الفصل القادم عند تناولنا لنظراتنا في الحياة حيث سنتناول مفهوم economy حسب نظرية الاحتكار Capitalism والنظرية الاجتماعية Socialism التي تقود حسبما يقول منظّروها إلى العمومية Communism.

ملامح الاقتصاد في القرآن

قلنا في بداية هذه النظرة أن العدل هو جوهر الحقيقة التي يدعو إليها القرآن، وذكرنا أن توحيد الله هو نتاج هذا العدل إذ أن الخالق تبارك وتعالى في

(1) villafied press, Britain, 1960.

(2) Chambers, Ibid, p 335, Britain, 1960.

نظر الإنسان السوي لا يمكن أن يعدلـه شيء أو يماثله ﴿ليس كمثله شيء﴾ وبالتالي فإن الجور والظلم هو اتخاذ شريك له ومن هنا عبر القرآن عن الشرك بأنه ظلم عظيم. فتوحيد اللّه الإخلاص له بالعبودية جاء نتيجة عادلة لخالق لا يعدله شيء، ونتاجاً لجدلية فطرية المقدمات فطرية النتائج لنفس إنسانية معتدلة مستوية. إن استحقاق اللّه للعبودية «التي هي مظهر استواء» حق وحقيقة ولا يسلم له بهذا الحق، ولا يدرك هذه الحقيقة إلاّ إنسان عادل أو قل إنسان مستوٍ مستقيم أو إنسان فطري.

إن هذه المقدمة اللغوية على ما فيها من طول هي في اعتقادي جد مهمة ليس فقط للربط بين الدلالة اللغوية لقصد عدل بل لفهم العلاقات الاقتصادية من خلال العدل ومن خلال التوحيد. فالاقتصاد في دلالته الجديدة «العلم الذي يبحث في نشاط الأفراد والجماعات من أجل توفير حاجاتهم» هذا الاقتصاد لا يمكن أن يكون اقتصاداً عادلاً إلاّ إذا فهم من خلال الحقيقة القرآنية «العدل والمساواة» بالشكل الذي يحقق الإنسان الفطري المسؤول الذي يؤدي به ذلك إلى توحيد اللّه والإخلاص له بالعبودية.

إن القرآن الكريم كما أوضحت في أكثر من مناسبة يهدف إلى إعادة الإنسان إلى الفطرة أي إلى الاستواء والاعتدال وعدم الميل والانحراف. وفي خضوع الإنسان لما سواه جور وانحراف يؤدي به إلى الهبوط من مستوى الإنسانية إلى درك المخلوقات التي هي أدنى. وبالتالي فإن نشاط الإنسان لا بد وأن يكون في الطريق الذي يؤكد إنسانيته ويرقى بها إلى مستوى الكمال الإنساني أي قصداً وعدلاً لا هبوطاً أو تجاوزاً.

ومن هنا كان القرآن الكريم وفي أكثر من موضع يدعو إلى حرية الإنسان من القيود الداخلية التي تقيد الإنسان وتمنعه من الوصول إلى كماله الإنساني وكذلك القيود الخارجية التي يحاول أن يحكم حلقاتها حول جسده وروحه من سواه من البشر.

فتحرر الإنسان من قيود ذاته والوصول بها إلى الاعتدال والاستواء وفيض هذه الحرية الإنسانية إلى ما حول الإنسان لتنظيم علاقاته بالآخرين ممن هم

سواه أو دونه من شأنها إذا فهمت فهماً قرآنياً أو قل فهماً فطرياً أن توصل إلى مجتمع الفطرة والعدل والاستواء.

إذاً فغاية النشاط الإنساني بادىء ذي بدء هي من أجل تأكيد إنسانية الإنسان وإن أي أسلوب أو هدف لا يكون من أجل ذلك هو انحراف وظلم وجور ولذا فالقرآن الكريم يرسم نشاط الإنسان في شكله الفطري بما يؤكد فطرية الإنسان المقتصدة العادلة وكل ما يحقّقه الإنسان من خلال هذا النشاط يخضع لمعياريه العدل والاقتصاد.

إن الإنتاج الذي هو محصلة العمل هو وحده الذي يعترف به القرآن حقاً للإنسان واضعين في اعتبارنا أن الغاية هي الفطرة أي أن العمل لا بدّ وأن يكون عملاً محكوماً بالإنسانية هدفاً ووسيلة ومحصلة.

والعلاقة وثيقة بين العمل والحرية إذ أن العمل هو مظهر الحركة والحركة مظهر الحرية والحرية ظاهرة إنسانية والذي تقيد حركته لا يستطيع أن يعمل وبالتالي لا يستطيع أن يؤكد هذه الإنسانية العاملة ومن هنا فإن القرآن الكريم يدعو إلى تدمير الاحتكار لأن الاحتكار معناه التركز والتركز يؤدي إلى التحكم والخضوع وبالتالي عدم الحرية وانهيار ركن أساس من أركان الإنسانية.إن القرآن وهو يحرم الربا مثلاً، إنما يحرم ظاهرة مرضية لمجتمع غير سليم. فالربا محرم لأنه محصلة بدون عمل والعمل هو المقياس الذي يجعله القرآن سبباً للكسب **﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾** ولأنه كسب بدون عمل فهو ظلم وجور وانتفاء للعدل لأنه حق إنسان آخر عامل تم استغلاله بوضعه في ظروف تقيد حريته في الاختيار أي تنال من إنسانيته، ومثل الربا أي كسب بطريق غير مشروع أي من غير العمل.

فصاحب المصنع الذي يشغل العمال في مصنعه ولا يعطيهم حقّهم الذي هو نصيبهم في الإنتاج هو ظالم وغير عادل وما يتحصل عليه ربا لأنه بطريق غير مشروع.

والذي يطلب من إنسان خدمة ثم لا يقدّم له ما يعادل خدمته هو كذلك ظالم وجائر ومراب.

إن الربا، وسرقة جهود المنتجين والعاملين من شأنه أن يؤدي إلى تركز الثروة في يد المرابي سواء من يرابي بالمال أو من يرابي بالعمل والذي يسمى «رب العمل» وهذا التركز يؤدي كما أسلفت إلى القوة والطغيان **﴿إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾** وهذا الطغيان يؤدي به إلى الجور حيث يؤدي إلى الهبوط والتجاوز،هبوط الذين من دونه عن مستوى البشرية بتحكمه في حاجاتهم، وتجاوزه مستوى بشريته ليتحول إلى رب جديد يعبد من دون الله والعدل لا يكون إلاّ بصعود هؤلاء من درك هبوطهم وهبوط هذا ومن سواه من وهم صعودهم ليتحقق الاستواء وتتحقّق الإنسانية ولا يكون هذا وذاك إلاّ بأن يكون العمل الإنساني هو معيار الكسب **﴿وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى﴾** [النجم 38].

كما أن الإخلاص للّه بالعبادة لا يتم إلاّ بتدمير هذه الأرباب التي تحولت إلى اللات والعزى وهبل ومناة من أمثال رب العمل.. ورب الثروة، ورب السلطة ويأتي تحريم دولة المال، والاكتناز وغيرها لما تسببه من ظهور لهذه الأرباب.

إذ فالدعوة إلى أن يكون العمل الإنساني المنتج هو أساس الكسب ومعياره هي دعوة إلى التوحيد. والدعوة إلى تحرير الإنسان من سلطان تحكم الآخر في حاجته هو كذلك دعوة إلى تحقق الإخلاص للّه في العبادة **﴿وضرب اللّه مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد للّه بل أكثرهم لا يعلمون﴾** [الزمر، آية 82].

إن القرآن الكريم وهو يحاول علاج مجتمع منحرف عن الفطرة، يجعل غاية النشاط الكسب لا الإنسانية، يعطي بدائل جديدة لعادة التجارة في المجتمعات غير الفطرية والتي يتم بها التكالب على الثراء بالوسائل غير الإنسانية احتكاراً ورباً ورفعاً للأسعار. والبديل القرآني للتجارة هو الإيمان والجهاد طلباً للجنة لا طلباً للثروة ورجاء في الآجلة لا تكالباً على العاجلة يقول تعالى في سورة الصف **﴿يا أيّها الذين آمنوا هل أدلّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون باللّه ورسوله وتجاهدون في سبيل اللّه بأموالكم وأنفسكم ذلكم**

خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ [الصف الأيتان، 10-11].

كما وصف الذين آمنوا بصفات تجعلهم يتميزون على غيرهم من المنحرفين طلاب الثروة يقول تعالى في سورة النور **﴿في بيوت أذن اللَّه أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر اللَّه وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار﴾** [النور آية 36] كما يذم سلوك أولئك النفر الذين انصرفوا عن وسيلة الآخرة الباقية إلى الدنيا الفانية **﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند اللَّه خير من اللهو ومن التجارة واللَّه خير الرازقين﴾** [الجمعة 11].

فالتجارة هنا تعادل اللهو لأن محصلتها زائفة وزائلة وليست غاية لنشاط الإنسان المسلم الذي يسعى إلى اكتمال إنسانيته والوصول إلى الفطرة الإنسانية والاعتدال.

مفهوم الربح في القرآن

اشتبه على بعض المنظرين للاقتصاد القرآني فأعطوا للربح مفهوماً كابيتالياً «احتكارياً» بحيث جعلوا القرآن وحاشا له أن يكون داعية إلى الكابيتال وتبرير الكسب باعتباره ربحاً وقبل أن أوضح خطأ هذا الفهم أذكر أن مادة ربح وردت مرة واحدة في القرآن في سورة البقرة في تصوير حال المرضى من المنافقين والمكابرين أدعياء الإيمان حيث يقول الحقّ تبارك وتعالى **﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾** [آية 15].

فالمقام هنا مقام الكفّار المعاندين الخاسرين الذين باعوا الهدى واشتروا به الضلالة وبالتأكيد فهذه مبادلة خاسرة تدل على عدم الهداية والانحراف عن الطريق السواء.

وما دام الربط بين التجارة والربح في هذه الآية قد قاد إلى استنتاجات واهمة فلا بد أن أوضح معنى التجارة وما هو المسموح والمحرم وما مفهوم الربح في ضوء المعايير التي تم عرضها في هذه النظرة.

فالتجارة هي البضاعة وقد أصبح المعنى اليوم ينصرف من التجارة بمعنى البضاعة أو الشيء الذي يتم تبادله إلى العملية ذاتها أي إلى البيع والشراء وأصبحت لها بحكم المجتمعات الاصطناعية اليوم قوانين ولوائح بل ونظريات متباينة تباين الموقف من النشاط الإنساني ذاته بل قل من الإنسان أصلاً. وقد تناول القرآن الكريم التجارة بمعنى البضاعة المسموح التعامل بها في القرآن في موضع واحد في سورة النساء:

يقول تعالى: **﴿يا أيّها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلاّ أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن اللّه كان بكم رحيماً﴾** [الآية 29].

فالآية تتحدث عن نهي تحريم أكل الأموال بالباطل أي لأية معاملات تؤدي إلى كسب بوجه غير مشروع ثم استثني تبادل البضائع بالاستثناء المقطوع إذ أن تبادل البضائع هنا ليس أصلاً من أصول النشاط البشري لأنه لا يقدم إنتاجاً ولكنه عمليـة ثانوية تتمثل في تبادل الإنتاج ورغم ذلك فقد اشترط القرآن لتبادلها أن تكون عن تراض منكم. والتراضي لا بد أن يكون حقيقة لا ظاهراً أي لا يقبل الإنسان سعر البضاعة أو تبادلها مكرهاً بحكم الحاجة فذلك يبطل هذا التعامل.

ولا يكون القبول عن تراض إلا إذا شعر الإنسان أن قيمة هذه البضاعة تعادل البضاعة والجهد المبذول في إحضارها. فالربح لا يكون زيادة عن سعر البضاعة والجهد لأنه لا يكون ربحاً بل رباً أما الربح في القرآن فهو مردود الجهد المبذول في إيصال البضاعة إلى يد المستهلك. فإذا أحضر الإنسان قميصاً مثلاً يساوي ديناراً ثم قضى في إحضاره يوماً أو نحوه وأنفق مالاً على أكله وشربه ونقله فان المضاف إلى الدينار يجب أن يكون مساوياً للجهد المبذول أو ما يسمى «سعر التكلفة» وهذا هو الكسب المشروع فإذا كان سعر القميص مضافاً إليه سعر التكلفة قد بلغ ديناراً ونصف وباعه صاحبه بدينارين فإن نصف الدينار يكون «رباً» وإن كان المشتري راضياً ظاهرياً لأن الرضا الظاهري لا يحلّل الربا. ولان نصف الدينار قد أخذه صاحب البضاعة بدون جهد. ولهذا السبب حرّم اللّه الربا وأحل البيع للفرق بين الربا الذي هو فضل بدون جهد واستغلال

للحاجة وإن كان الرضا ظاهرياً وبين البيع الذي هو فضل مقابل جهد والتراضي فيه حقيقة هذا علاوة على ما في البيع من فائدة مشتركة لا توجد في الربا.

﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلّا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المسّ ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرّم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ [البقرة، 274] لقد أعطت هذه الآية صورة منفرة للمرابي سواء في الدنيا وفي الآخرة فالذي يتخبطه الشيطان من المس يفقد القدرة على التمييز بين الحق والباطل ويظل سلوكه بين الناس مدعاة للاستغراب والنفور بسبب ما يقوم به من حركات وما يلفظ به من أقوال منافية للذوق الإنساني السليم وهو حال المرابي الذي يفقد التفريق بين الصواب والخطأ، والذي يقوم بأعمال وسلوكات، بحكم النهم والجشع لا تختلف عن سلوك الذي يتخبطه الشيطان من المس وكدليل على فقده القدرة على الحكم السليم يحاول أن يبرر سلوكه الشائن بقوله «إنما البيع مثل الربا» أي أن البيع فيه زيادة عن سعر البضاعة والربا فيه زيادة عن المال المعطى من قبل المرابي وينسى المرابي أن الزيادة عن سعر البضاعة الأصل في البيع هو مقابل الجهد وعن تراض بينما الزيادة في المال الرابي به يكون بدون جهد وعن إكراه.

إذا فالبيع يمكن أن يكون رباً إذا تجاوزت الزيادة في السعر عن قيمة الجهد المبذول في إحضار البضاعة إلى المستهلك.

القرآن يدعو إلى الرأسمال

القرآن باعتباره شريعة يستهدف العدل لا بدّ وأن يدعو إلى الرأسمال والرأسمال في القرآن غير الترجمة الخاطئة في لغتنا لمصطلح «Capitalism» فالمصطلح الأوربي Capitalism مشتق من «Capital» وهو مصطلح في صناعة البناء يرمز إلى القمة التي يصل إليها العمود «In architecture, the crowing member of a column or pilaster».[1]

---

(1) Encyclopedia Americana, V. 5/ P. 594.

وقد أصبح هذا النمط فناً مميزاً حسب نمط مدرسة البنـا. . وقد أطلق كارل ماركس مصطلح «capital» في كتاب له بهذا العنوان ليدل على الإجـراءات الاقتصاديـة التي تم بها استبـدال نظام الـطبقـات في القـرون الوسطى»[1].

والعلاقة وثيقة بين الدلالة الاقتصادية إذ أن «Capital» هو رأس العمود ونهايته والنظام الكابيتالي هو النظام التي يهدف إلى وصول قمة درجات تركز المال.

ومن هنا فإن ترجمة المصطلح والنظام الـذي يدل عليـه إلى النظام الرأسمالي ترجمة خاطئة فهذا النظام لا يهدف إلى الاكتفاء برأس المال بل إلى تجاوز رأس المال إلى أقصى درجة تحت شعارات كابيتالية معروفة فحقه إذاً أن يطلق عليه نظام التركز أو نظام «الدولة» بكسر الدال وهو النظام المحرم في القرآن في قوله تعالى **﴿كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾** أما الرأسمال الذي يدعو إليه القرآن فهو الاكتفاء برأس المال وعدم تجاوزه، وقد أشار القرآن إلى ذلك بوضوح في سورة البقرة في معرض التحدث عن الربا يقول تعالى مخاطباً المرابين **﴿يا أيّها الذين آمنوا اتقوا اللّه وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من اللّه ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون﴾** [الآيتان 277، 278].

فالقرآن الكريم يدعو إلى هذه الرأسمالية ويصفها أنها عادلة لا ظلم فيها. ولأن معرض الحديث هنا عن معاملة لا كلفة فيها إذاً فمن حق الذي كان يتعامل في الربا أن يعود له رأس ماله لا يظلم من سلفه المال فيأخذ زيادة عن رأس ماله ولا يظلم بأن يعطى أقل من ذلك.

بين العدل والمساواة

تدعي بعض وجهات النظر أنّه بالإمكان أن تتم المساواة بين الناس جميعاً في الكسب بغضّ النظر عمّا يقدمه كل واحد منهم ويعتقدون أن المساواة بهذه

(1) Encyclopedia International, V. 6/ P. 222.

الكيفية هي العدل إلا أن القول بهذا هو الظلم والجور بعينه إذ كيف تجوز المساواة بين من يعلم ومن لا يعلم، وبين من يعمل ومن لا يعمل؟.

لقد أكّد القرآن الكريم في أكثر من موضع أنه لا يستوي المؤمن والفاسق، والمجاهد في سبيل اللّه والقاعد غير ذي الضرر والذين يعلمون والذين لا يعلمون وهي بديهة عادلة مثلما لا يستوي الليل والنهار ولا الأحياء والأموات ولا أصحاب الجنة وأصحاب النار وعدم المساواة هي نتاج خصائص في هؤلاء انعدمت في أولئك.

ولكن يشترط في العدل لكي يكون عدلاً أن تعطي للإنسان حرية الحركة من أجل قيامه بالفعل فإذا استوت الشروط كان التمايز وكان هذا التمايز عدلاً فإذا استوت الشروط وكان التمايز ثم تمت التسوية على الرغم من ذلك فذلك جور وظلم وانحراف. إن المساواة والعدل يلتقيان عندما تستوي الشروط وتستوي النتائج فهنا تكون المساواة عدلاً. فمثلاً إذا كانت الظروف متساوية أمام منتجين واشتغلا وقدما إنتاجاً متساوياً فهنا تكون المساواة بينهما عدلاً أما إذا قصر أحدهما في الوقت الذي اجتهد الآخر فوفق أي قانون وتحت أي شعار يمكن أن يسوّى بين هذين؟.

إن المساواة لا تكون إلاّ في فتح المجال أمام الإنسان من أجل أن يؤكد إنسانيته وأن تزاح من أمامه كل العراقيل وتكون معيارية فعل الإنسان ونتائج هذا الفعل هي المعيارية الإنسانية وفي ذلك فليتنافس المتنافسون!.

النظرة العاشرة

القرآن والقتال.. لماذا نقاتل؟

﴿أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن اللّه على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلاّ أن يقولوا ربّنا اللّه ولولا دفع اللّه الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم اللّه كثيراً ولينصرن اللّه من ينصره إن اللّه لقوي عزيز﴾ [الحج الآيتان، 37، 38].

﴿ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين * فهزموهم بإذن اللّه وقتل داود جالوت وآتاه اللّه الملك والحكمة وعلّمه مما يشاء ولولا دفع اللّه الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن اللّه ذو فضل على العالمين﴾.

[البقرة 248، 249].

شاءت حكمة اللّه وعدله أن تكون مهمة الإنسان في هذا الكون مهمة الإعمار والبناء، والإنسان الذي يقوم بهذه الأمانة لا يواجه فقط مشاكل الطبيعة التي تقتضي جهداً وكفاحاً حتى يتم تذليلها بل يواجه أعداء للخير هم الشيطان وحزبه. جنود الفساد والخراب المعادون لحكمة اللّه التي اقتضت إرادته العدل والخير ومن هنا يكون أمراً بديهياً أن يتصدى جنود الرّحمن لهذه القوى الضالة المضلة وأن يسعوا بكل وسيلة لاجتثاثهم من الأرض مثلما يتم اجتثاث الحشائش

الضارة وما في حكمها كي تتم فلاحة الأرض وزرعها.

وقد تناولت الآيات الكريمة في سورة الحج والبقرة والتي تم إيرادها في هذه النظرة مبرر القتال حيث جعلته لرفع الظلم وإعادة الميزان إلى نصابه ليعتدل وينتصر الحق فإذا لم يتم ذلك فإن الخير وأهله وأماكنه سوف يتعرضون للخطر وينتشر الشر ويعم الفساد وهذا ضد الحكمة من الخلق أصلاً.

وفي القرآن الكريم تناولت آيات أخرى مبررات القتال والتي لا تخرج عن هذا السياق فالقتال لرفع الظلم، والقتال للذين لا يؤمنون باللّه واليوم الآخر، وللكفار، والمشركين، والبغاة، ودعاة الفتنة فعلى سبيل المثال يقول تعالى في سورة البقرة ﴿**وقاتلوا في سبيل اللّه الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن اللّه لا يحب المعتدين**﴾ [البقرة، آية 189] وفي سورة التوبة ﴿**قاتلوا الذين لا يؤمنون باللّه واليوم الآخر ولا يحرمون ما حرّم اللّه ورسوله ولا يدينون دين الحقّ من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون**﴾ [الآية 29].

وفي سورة التوبة يقول عز من قائل ﴿**يا أيّها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفّار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن اللّه مع المتقين**﴾ [التوبة، الآية 124].

وفي هذه السورة الكريمة يقول تعالى ﴿**إن عدة الشهور عند اللّه اثنا عشر شهراً في كتاب اللّه يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن اللّه مع المتقين**﴾ [آية 39].

وفي سورة الحجرات يأمرنا تعالى بقتال البغاة حتى ولو كانوا مؤمنين ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر اللّه فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين**﴾ [الحجرات، الآية 9].

وفي مقام وجوب قتال دعاة الفتنة يقول تعالى في سورة البقرة ﴿**واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا**

تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين * فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم * وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ [البقرة الآيات 190-192].

إن هذه الآيات الكريمة التي أوردتها توضح جملة من الأسباب التي تستدعي القتال والقتل لأنها جميعاً ظواهر تقف كما قلت على النقيض من المشيئة الإلهية التي اقتضت العدل ومن المهمة الأساسية التي أوكلت للرسل وأتباعهم من وجوب إقامة الوزن بالقسط ورفع الجور ونشر الأمن الذي هو ضرورة أدنى من ضرورات البناء والتعمير.

فالقتال إذاً ليس غاية وإنما هو ضرورة يضطر إليها المؤمنون ولهذا فالقرآن الكريم يحدد غاية القتال برفع الضرر وهو والحال كذلك أشبه بالعملية الجراحية التي تكون لرفع الداء والمحافظة على الجسم البشري سليماً معافى حتى ينهض للقيام بدوره. وإلى هذا يشير تعالى في قوله **﴿ولا تعتدوا﴾** أي لا تتجاوزوا الحد، فالذين لا يؤمنون بدين الله ولا يؤدون فروض هذا الإيمان فإن حد قتالهم **﴿حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾** أي يكونوا في وضع الذليل الذي لا ينهض للوقوف في وجه دعوة الحق ذلك أن إعطاء الجزية دليل خضوع وسمة انقياد.

وحد قتال الذين أخرجوا المؤمنين من ديارهم أن يتم إخراجهم منها علاوة على أنه إحقاق للحق وإبطال للباطل وهو كذلك رفع للفتنة لأن بقاءهم في ديار المؤمنين قد يفتن غيرهم ويغريهم على احتلال المزيد من ديار المسلمين فإذا خرجوا من ديار المسلمين وألقوا السلم فلا مبرر لاستمرار قتالهم **﴿فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾**.

وفي قتال الفئة الباغية من المؤمنين يكون حد القتال عودة هذه الفئة إلى أمر الله فإذا فاءت تكون المهمة إصلاح ذات البين دونما ظلم حتى لا يترك في النفوس غل يوجب نشوب القتال مرة أخرى.

﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ [البقرة 214].
﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم * طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم﴾ [سورة محمد الآيتان، 21، 22].

في هذا العصر الذي تكاثرت على المسلمين فيه الخطوب، وادلهم ليل الفتن حولهم حتى لا تكاد تبصر القائم من النائم،ترتفع بين الحين والآخر أصوات مبحوحة تقول بالجهاد فريضة وهي وقد أعياها الأمر على أن تعد للأمر عدته تحاول أن تخرج من الخصوص إلى العموم ذلك أن الخصوص فيه تحديد وقطع والعموم بحكم عمومه يعطي العاجزين مبرراً ولكن الله فضحهم بأن أكد أن الغرض هو القتال وأن الواجب هو الجهاد وأن فرضية القتال في سورة محكمة قاطعة ومحددة.

وحتى نكون مخلصين للمنهج الذي راعيناه في كتابة هذه النظرات نعود إلى معاجم اللغة نحاول من خلالها أن نستوضح العلاقة اللغوية بين الجهاد والقتال لأن إدراك هذه العلاقة يساعدنا في تحديد الخصوص من العموم.

يقول ابن منظور في لسان العرب تحت مادة جهد «الجهد، والجهد، الطاقة، تقول: اجهد جهدك، وقيل: الجهد المشقة والجهد الطاقة... وجهد دابته جهداً وأجهدها: بلغ جهدها وحمل عليها السير فوق طاقتها.

ويستشهد لذلك بقول الأعشى:

فجالت وجال لها أربع جهدنا لها مع إجهادها

(1) ابن منظور المرجع السابق، جـ3، ص133 - 135، ط، دار صادر، بيروت.

ويورد ابن منظور رأي الأزهري وابن السكيت حيث يقول: الجهد بلوغك غاية الأمر الذي لا تألوا على الجهد فيه، تقول: جهدت جهدي واجتهدت رأيي ونفسي حتى بلغت مجهودي حيث يقول «جهدت فلاناً إذا بلغت مشقته وأجهدته على أن يفعل كذا وكذا». «اما ابن السكيت فيرى الجهد بمعنى الغاية. .» ويتابع الجوهري سرد معاني اشتقاقات مادة جهد حيث يقول في الجهاد «الجهاد محاربة الأعداء واستفراغ ما في الوسع من قول أو فعل».

ويورد ابن منظور في كتابه للقتل دلالتين واحدة أصلية، وأخرى مجازية لكنها لا تخرج عن الدلالة الأصل يقول: «القتل، معروف قتله يقتله قتلاً وتقتالاً وقتل به»ابن سيدة،والتقتال القتل وهو بناء موضوع للتكثير كأنك قلت في فعلت فعلت. . . وقتلوا تقتيلاً، شدد للكثرة، والمقاتلة القتال. وقد قاتلة قتالاً وقيتالاً. وهو من كلام العرب، وكذلك المقاتل، قال كعب بن مالك:

أقاتل حتى لا أرى لي مقاتلاً وأنجو إذا غُمّ الجبان من الكرب

وقال زيد الخيل:

أقاتل حتى لا أرى لي مقاتلاً وأنجو إذ لم ينج إلاّ المكيّس

والمقاتِلة: الذي يَلُون القتال، بكسر التاء، وفي الصحاح: القوم الذين يصلحون للقتال.

ومن الدلالات المجازية: قولهم قاتل اللّه فلاناً أي عاداه، وفي الحديث «قاتل اللّه اليهود أي قتلهم، وقيل لعنهم، وقيل عاداهم»[1].

وكما ترى فإن الدلالات اللغوية لا تخرج عن الدلالات الأصلية فأي نجاة لمن يلعنه اللّه ويعاديه؟!.

إن المتتبع للمعاني اللغوية للجهاد والقتال يرى أن الجهاد فيه معنى العموم بخلاف القتال ففيه خصوص والآيات القرآنية التي تناولت الأمر بالقتال بقرينة ﴿كتب عليكم﴾ محكمة لا تعني سوى الدلالة الأصلية للقتل.

---

(1) ابن منظور، المرجع السابق، 547-549 جزء 11، دار صادر، بيروت.

إذاً فالقول بالجهاد كفريضة غائبة قول غير صحيح ومخالف محكم الآيات القرآنية فالفريضة الغائبة عن عالم المسلمين اليوم القتال أما الجهاد فهو واجب والعلاقة بين الجهاد والقتال من حيث الحكم الشرعي هي العلاقة بين الفرض والواجب فالفرض لا يقبل الجبر بخلاف الواجب.

اعدّوا للقتال عدّته

﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو اللّٰه وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم اللّٰه يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل اللّٰه يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾.

[الأنفال، آية 61].

إن القتال للأسباب التي تم ذكر أمثلة منها ليس بالأمر السهل بل يحتاج منا إلى أن نعدّ لهذا الأمر عدّته ويكون الإعداد والاستعداد بحجم الأمانة الكبرى التي ألقيت على عاتق المؤمنين وهي إقامة العدل وإعادة بناء إنسان وجماعات الفطرة والإسلام. كما يكون كذلك بحجم أعداء هذه الرسالة العظيمة سواء الذين نعلمهم وهم الذين كشفوا من خلال ممارساتهم التي تناولت الآيات التي سبقت الإشارة إليها تحت عنوان «لماذا نقاتل» مظاهر لها. أو الذين لا نعلمهم من المنافقين المندسين بين ظهرانينا أو الذي يخططون للنيل منّا في حال ضعفنا وعدم استعدادنا أو هزيمتنا بسبب هذا الضعف وغياب الاستعداد.

وقد جاء وجوب الأمر بالإعداد صراحة في هذه الآية التي وردت في سورة الأنفال وهي السورة التي تناولت الكثير من أحكام القتال. فالآية التي تأمر بالإعداد يمكن للإنسان المتدبّر لها أن يدرك أن الأمر بالإعداد هو لكل المسلمين، وإن هذا الإعداد يكون بكل ما يستطيعه المسلم من قوة وهذا يدل على منتهى أمر الاستعداد، كما أن إدخال من على الاسم النكرة «قوة» يدل على عموم القوة والمبالغة في التأكيد، أي كل ما يكون سببا لها مادياً أو معنوياً، ورباط الخيل رمز لأسباب هذه القوة ووسائلها. أما الغاية من هذا الإعداد فهو إرهاب أعداء اللّٰه وهنا لا بدّ أن نتوقف عن مصطلح كثير تداوله هذه الأيام هو

مصطلح «Terrorism» الذي يترجم إلى لغتنا العربية بالارهاب.

يعطي كتاب «The New webster Dictionary» لمصطلح Terror الدلالات الآتية:

«Terror, n. (L. Terror, from terror. to frighten. Terrible.) fear that agitates the body and mind, dread, fright the cause of exterme fear - king of terros, death, Reign of terror, in the fisrt french - revolution, that period during whish the rulers made the exceution of all opponents the principle of their governments, extending from April, 1793, to july 1794. terrorism, n. system of government by terror, intimidation. terrorist, n. one who rulers by.

فهذا القاموس يشير إلى أن Terror مشتقة من اللاتينية Terro ويقصد بها الرعب والإخافة التي تثير الجسد والعقل والرعب نتاج الخوف الزائد عن الحدّ. كما يشير إلى فترة تاريخية وهي «عصر ملوك الرعب والموت» وقد كانت هذه الفترة مع بداية الانقلاب الفرنسي وهي فترة كان فيها السلطويون يحكمون بالإعدام على خصومهم السياسيين كمبدأ من مبادىء حكوماتهم وقد امتدّت هذه الفترة من 1793 إلى ناصر «يوليو» 1794.

كما يشير إلى أن Terrorism يدل على الأسلوب الذي يحكم به النظام، وأن Terrorist هو الحاكم الذي يحكم بمقتضاه.

وعلى الرغم من أن هذا القاموس حاول أن يعطي دلالة «الرعب والقتل» لهذا المصطلح. إلاّ أن الاتفاق على دلالة شاملة لمصطلح «Terrorism» لم يتم الاتفاق عليها إلى الآن وبالتالي فإن ترجمتها إلى الارهاب تظل ترجمة غير دقيقة. وحتى نوضح عدم دقّتها فإننا نستعرض دلالة «رهبة» في اللغة العربية.

يقول لسان العرب «رهِب، بالكسر، يرهب رهبة ورهباً، بالضم، ورهباً بالتحريك، أي خاف، ورهب الشيء رهباً ورهبة: خافه.

والاسم الرهب، والرهبي، والرهبوت، والرهبوتي، ورجل رهبوت،

---

(1) Ibid, P, 865.

يقال: رهبوب خير من رحموت، أي لأَن تُرْهب خير من أن ترحم.

وتَرَهَّب غيره إذا توعده، وأنشد الأزهري للعجاج يصف عيراً وأتنه:

تعطيه رهباباً، إذا ترهبا
على اضطمار الكشح بولا زغربا
عصارة الجزء الذي تحلبا

رهباباً: الذي ترهبه، كما يقال هالك وهلكى. إذا ترهبا إذا توعدا. وقال الليث: الرهْب، جزم، لُغَةٌ في الرَّهَب، قال: والرهباء اسم من الرهب، تقول الرهباء من اللّه والرغباء إليه. . . وأرهبه واسترهبه: أخافه وفزعه»[1] إذاً فالرهبة هنا حالة نفسية تحدث في نفس الإنسان من توقّع حدوث مسببها لوجود سببها فيعمل على انتفاء السبب ليزول المسبب أي أنها خوف من نتائج فعل يقوم به فيوقف استمرار فعله هذا الفعل فلا يفعله حتى يزول سبب الرهبة أو إدراك لنتائج فعل إذا قام به أدى إليها فلا يقرّر القيام به أي انتفاء الفعل بانتفاء الإرادة أصلاً وعلى الجملة فهي إما خوف من معلوم أو مجهول وفي كلا الحالين يستوجب عدم الرهبة إزالة أسبابها.

ومن هذا المعنى جاء قوله تعالى ﴿ترهبون به عدو اللّه﴾ أي يتحقق شعور الرهبة في داخله لإدراكه أنه عدو للّه وأن هذه القوة التي تم إعدادها هي لأعداء اللّه أي له وبالتالي يتخلى عن إيذاء المؤمنين ومعاداة اللّه وما يتم لأعداء اللّه المعلومين من رهبة يكون للذين لا نعلمهم من منافقين يتربصون بنا الدوائر لأن علمنا نحن قائم على نتائج أي أفعال أو مقدمات أما علم اللّه فهو مطلق من كل قيد وبالتالي اقتضت حكمته أمرنا بالإعداد لهؤلاء الأعداء جميعاً.

ومن هنا فإن دلالة الرهبة تخالف دلالة «Terrorism» التي تعني القتل والإبادة أي إبادة الإنسان أصلاً لا تترك مكاناً للرهبة حسب الدلالة اللغوية العربية.

---

(1) ابن منظور، المرجع السابق، جـ1، ص 436، دار صادر، بيروت.

وهو كذلك غير معناه في القرآن إذاً فالقرآن يدعو إلى القوة التي تحدث الإرهاب في قلوب أعداء الله فلا يقدمون على القيام بفعل يضر بالإسلام وأهله أي أن الإرهاب هنا لإيقاف سلوك العدوان والشر ضد المسلمين أو قصد العدوان أصلاً أي هو إعداد للقوة دون استخدامها إذا لم يكن هناك مبرر لهذا الاستخدام بخلاف Terrorism الذي هو الرعب نتيجة استخدام.

في هذا العالم الذي مليء جوراً وظلماً يتشدق كتبة القانون المأجورون بأن ضرب مواطن الشر اعتداء ومخالفة للقانون الدولي ولكنهم لا يعتبرون إطلاق الصواريخ بعيدة المدى، وفتح الجسور الجوية والبرية والمائية لدعم أعداء الإسلام هو الآخر اعتداء على حدود الله التي هي فوق كل حدود. إن القرآن الكريم يعطي للمؤمنين الحق في قتل الذين كفروا والذين اعتدوا على الإسلام وأهله في أي مكان ودونما اعتبار لأية حدود إذ أن العبرة بانتهاك حدود الله.

يقول تعالى في سورة البقرة ﴿**واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين**﴾ [الآية 140] فهذه الآية تجعل كل مكان ميداناً لقتال الكفار وحتى المسجد الحرام الذي وصف بالحرمة لحرمة القتال فيه تزول موانع حرمة القتال منه إذا كان الكفار قد بدأوا القتال على أرضه.

ويقول تعالى في سورة الأحزاب في شأن المنافقين والذين في قلوبهم مرض ومروجي الأراجيف والأكاذيب التي تحبط الروح المعنوية للمسلمين ﴿**لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلاّ قليلاً * ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً * سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً**﴾[الآيات 60 ـ 62] فأيدي المسلمين يجب أن تطول الباطل وأهله في أي مكان لتنفيذ أمر الله فيهم دونما اعتبار لأية قوانين وضعية معارضة لقانون الله الأبدي الأزلي وأية دعوى يدعو لها المرجفون ودعاة ما يسمى بالتعقل في عالم أفقد الطغيان فيه العقول هي دعوى وأراجيف يستحقون بها اللعن والقتل أينما وجدوا وحيثما حلّوا.

المسلم لا يدعو إلى السلم!..

﴿.. وإن جنحوا للسلـم فاجنح لها وتوكل على اللّه إنه هو السميع العليم﴾.

في مراحل الضعف التي تنتاب الأمم يكون من مظاهر هذا الضعف أن تكون له أبواقه ومنظروه الذين يحاولون وبكل وسيلة أن يزينوا هذه الرذيلة في قلوب الناس تحت شُعارات زائفة وأباطيل واهية لا تقوى على الصمود أمام حقيقة أن القوة هي وحدها التي تحمي الأمم من اعتداء وطغيان حزب الشيطان دعاة الشر **﴿... ولولا دفع اللّه الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن اللّه ذو فضل على العالمين﴾** وشعوبنا المسلمة في هذا العصر وقد «تداعت عليهم الأمم تداعي الأكلة إلى قصعتها» وتحولت رغم تزايد عددها إلى غثاء لضعف استعدادها وعدتها، غثاء، يجرفه سيل أعداء الإسلام فأخذت أبواق المنظرين للضعف والداعين.

كيف نقاتل؟

القرآن الكريم وهو يفرض علينا القتال ويوضح أسباب هذا الفرض يأمرنا بالاستعداد والعدة كما يبيّن لنا الأسلوب الذي نقاتل به الأعداء لنضمن النصر للإسلام والعدل. وأولى أساليب القتال التماسك والوحدة المادية والمعنوية الأمر الذي لا يعطي لعدونا ثغرة مادية أو معنوية يمكن أن ينفذ لنا من خلالها. وليس أدل على عظمة هذه الوحدة المادية والمعنوية من أن ينزل الحق تبارك وتعالى في محكم كتابه سورة باسم سورة الصف حيث يقول عز من قائل في هذه السورة **﴿إن اللّه يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنّهم بنيان مرصوص﴾** [آية 4] ونقيض وحدة الصفّ المأمور بها والتي يحبّها اللّه الاختلاف الذي يسبب الفشل والهزيمة يقول تعالى محرماً الخلاف **﴿يا أيّها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا اللّه كثيراً لعلّكم تفلحون * وأطيعوا اللّه ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن اللّه مع الصابرين﴾** [الأنفال 46-47] كما يأمرنا تعالى بعدم التولي يوم الزحف لما في ذلك من تفتيت لوحدة الصف

سواء كان هذا التولي مادياً أي في ميدان القتال أم معنوياً بالقيام بأي سلوك محبط للعزيمة، يقول تعالى **﴿يا أيّها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار * ومن يولهم يومئذ دبره إلاّ متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من اللّه ومأواه جهنم وبئس المصير﴾** [آية 16].

ويقول عز من قائل **﴿يا أيّها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا اللّه كثيراً لعلكم تفلحون﴾** [الأنفال 46]. إن القرآن لا يوضح أسلوب المواجهة فحسب بل يحدد لنا حتى مواضع الضرب المؤثر في العدو **﴿.. فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾** [الأنفال 12] والضرب على الأعناق يعني القتل كما أن الضرب على البنان يعني قطع الأيدي فلا تقوى مستقبلاً على حمل السلاح ضد المؤمنين، وتدمير كل وسائلهم حتى لا تكون لهم القدرة على استخدامها.

الأرض كلها ميدان قتال!

في هذا العالم الذي استبد فيه الطغاة وامتلكوا وسائل الدمار والخراب التي ملأت الأرض وتجاوزتها للفضاء وأصبح الظلم والاعتداء بمنطق الطغاة حفاظاً على الأمن، والإبادة والإفناء، تأديباً، والاحتلال والاغتصاب للأرض والممتلكات مصالح «استراتيجية». إن التخاذل يحاول تكريس الضعف وتزيينه وعلى منبر من أحد المنابر «وما أكثرها» كان حقّه أن يرفع فوقه نداء «الله أكبر» ليصبح كل كبير قزماً وكل متعال ومتجبر عاجزاً من فوق هذا المنبر يتم تحريف الكلم عن مواضعه. قام «وعّاظ السلاطين» وطلاب الدنيا في مصر بتزيين الاستسلام والخضوع لليهود وأعداء الإسلام والمسلمين والافتاء لكبيرهم الذي علمهم الكذب والدجل أن القرآن يأمر بالسلم «وإن الالتقاء مع الصهاينة هو تنفيذ لأمر الله» فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون».

إن محاولة التحريف والتأويل لقوله تعالى في سورة الأنفال **﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على اللّه إنه هو السميع العليم﴾** وجعلها بتأويلهم وتحريفهم ـ وحاشا لها أن تكون ـ الجلوس مع محتلي الأرض ومنتهكي العرض

وسفاكي الدماء سلماً **بأمر اللّه به**، هذه المحاولة لا تنطلي حتى على الأطفال في فصول تعليمهم **الأولى**، فهذه الآية من الآيات المحكمة تخدد أسلوب التعامل مع العدو في حال الحرب وهي من حيث الإعراب جملة شرطية فعل الشرط فيها جنحوا وجواب الشرط **فاْجنح** المقترن بالفاء وهو جواب طلبي. والمعنى إن جنحوا هم للسلم «فالمطلوب منك يا محمد ومن أتباعك من المسلمين أن تجنحوا للسلم إذا جنح أعداؤكم له».

فالجنوح إلى السلم إذاً يكون من طرف الأعداء والتعبير عن الميل إلى السلم بالجنوح يدل على ضعفهم وخذلانهم فهم لا يجنحون إلى السلْم إلاّ إذا كانوا على هذه الحال وجنوحنا نحن **هو استجابة** لأمر اللّه تعالى وخضوع له كما أنه دليل قوة لا دليل ضعف ومن هذا فإن المسلم ليس داعية سلم وهو مغبون ومظلوم ينفي وجود الإيمان أصلاً. إذ أن هذا في تلك الحال خضوع واستسلام لغير اللّه ولهذا نهى القرآن الكريم نهي تحريم أن تكون الدعوة إلى السلم من المسلمين لأنه يقول تعالى في سورة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم **﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون واللّه معكم ولن يتركم أعمالكم﴾** [الآية 36] فكيف يكون في وضع الواهن الضعيف من كان في قلبه إيمان بأن اللّه معه وبأن اللّه أكبر!!!!!.

إن القرآن الكريم وهو يفضح دعاة الوهن والتخاذل ويوضح الفرق بين السلم والاستسلام السلم الذي يدعو له العدو عن ضعف ونقبله نحن عن قوة وبين الاستسلام للعدو واليأس من روح اللّه يوضح لنا أن لا لقاء بين الإيمان وأهله، والكفر وحزبه وأن أية محاولة وتحت أي شعار أو مبرر من قبل المتخاذلين والجبناء لترويج أراجيف القبول بالاستسلام تحت شعار السلم سوف يكون مصيرها الفشل والهزيمة، وإن أية معاهدة أو صك للخيانة والوهن سوف يكون مصيره التمزيق تحت أقدام جنود الزحف الذين يقاتلون في سبيل اللّه كأنهم بنيان مرصوص وأن التخدير الأبدي والأزلي لهؤلاء المرجفين والناعقين هو ما قاله تعالى في سورة الأحزاب **﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلاّ**

قليلاً * ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً * سنة اللّه في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة اللّه تبديلاً﴾.

إن مصير دعاة الخضوع للصهاينة، والصليبيين الذين تقودهم أمريكا هو الأخذ والقتل تقتيلاً تنفيذاً لسنّة اللّه في الخونة والمرجفين.

إن الآيات الكريمة في سورة الممتحنة تطالبنا بعدم البر والإحسان إلى الذين أخرجونا من ديارنا في فلسطين من إنجليز صنعوا ما يسمى بوعد «بلفور» ويهود صهاينة تجمعوا وفق هذا الوعد الزائف، وأمريكان ومن سار في ركبهم ممن يظاهرون العدو على إخراجنا بما يمدونه به من سلاح وعتاد، ورجال ودعم معنوي غير منقطع بل يجب ألا يلقوا منا إلاّ كل شدة وغلظة. **﴿إنما ينهاكم اللّه عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾** [9] إن قتال الشرك وأهله كافة هو أمر إلهي **﴿.... وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن اللّه مع المتقين﴾** إذاً فالقتال هو أمر إلٰهي وقتالهم يكون أينما وجدناهم وحيثما وصلت أيدينا لهم.إن القرآن الكريم يأمر جنود الرّحمن أن ينتظموا محافل مرصوصة لا تمنعها حدود ولا يخفيها وعيد مدركة أن الانتصار لدين اللّه واجب وأن النصر من عنده حقّ.

ليكونوا يد اللّه التي يبطش بها بأعدائه أعداء الحق والعدل.

«اقتحموا عليهم قراهم»

﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلاّ في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ [الحشر 14].

أكتب هذه السطور وبشائر أهل القرآن تلوح في أُفق فلسطين لا يملكون

(*) نفذ أحد أبطال الإسلام خالد الاسلامبولي أمر اللّه في الخائن السادات ولا تزال اللعنة لاحقة بهذا الخائن ومن ساروا ويسيرون على طريقه.

إلّا حجارة وإن كانت خير معبر فهي تعكس صلابة قلوبهم وإصرارهم على تنفيذ أمر اللّه.

كما أن مشيئة اللّه اقتضت أن تكون هذه الحجارة رجماً للشياطين من اليهود الصهاينة وأعوانهم.

ومع كل شارق يتعاظم وابل الحجارة وتتحطم أسطورة العدو الذي لا يقهر فيزداد اضطرابه وهلعه، ويستنجد بأعوانه باحثاً عن سلاح يواجه به الحجارة ومهما تفنن فيها فهو لا يعكس إلّا خوفه ورعبه، وتبقى الحجارة رمزاً للاصرار ودليلاً على الرفض، ورجماً لأبالسة الشرك.

لقد فضح اللّه تعـالى دخيلة هؤلاء الصهاينـة والصليبيين وكشف لنا حقيقتهم حيث ذكر الحق تبارك وتعالى أنهم لا يقاتلوننا مجتمعين إلّا في قرى محصنة أو من وراء جدر أي من وراء حصون سواء كانت من الحديد، مدرعات ودبابات، أو من الحجارة حصوناً وقلاعاً وأنهم وإن ظننا تحالفهم فإن قلوبهم شتى إذ أن مصالحهم هي التي تتحكم فيهم وحقائق التاريخ تعطي لنا في كل يوم دليلاً على ذلك لكل من اعتبر.

إنهم على الرغم مما يملكون من وسائل الدمار وأدوات الفناء فإنهم يخافون المؤمنين ولهذا يتلهف اليهود على ما يسمى بسياسة «تطبيع العلاقات» مستغلين الأنظمة المتخاذلة المستكينة لأنهم يخافـون مستقبل زحف جيش الرّحمن من أهل القرآن. ولا يثقون في استمرار هذه الأنظمة كما أنهم يسترقون السمع ويقيمون الدنيا ولا يقعدونها إذا علموا أن نظاماً مسلماً امتلك أي سلاح ولو كان بسيطاً حتى ولو كان هذا النظام ممن ضربت علـيه الذلّة والمسكنة فالمستقبل ضد أعداء الإسلام وهم وأعوانهم يجدفون ضد التيار ويعارضون سُنّة اللّه التي لن تجد لها تبديلاً.

إن هزائم «أنظمتنا» المتكررة أمام هؤلاء الجبناء هي لأنهم لم يطبّقوا أمر اللّه لا في الإعداد والاستعداد، ولا في القتال صفاً واحداً كأنه بنيان مرصوص، بل ناوشوهم وهم مهزومون معنوياً، ومختلفون هدفاً وبرنامجاً ووسيلة بل وربما

لأنهم يفتقدون الإيمان أصلاً. فكانوا هم الذين هزموا أنفسهم.

إن القرآن الكريم وهو يصوّر لنا أن عدونا لا يقاتلنا إلاّ في قرى محصنة أو من وراء جدر إنما يدعونا إلى قتال الاقتحام لا القتال التقليدي أي أن نقتحم عليهم قراهم المحصنة، وندمر فوق رؤوسهم جدرهم الواهية.

أي، أنه يدعو صراحة إلى نبذ أسلوب الحرب التقليدية والدخول في حرب من نوع جديد لا تنفع العدو فيها الدبابات ولا الطائرات ولا الصواريخ ولا حتى القنابل الذرية والنووية وهي أسلوب حرب الاقتحام الذي يظل الوعد الإلهي الدائم بني إسرائيل لتكون نهايتهم به بعد أن علوا في الأرض علواً كبيراً.

﴿فإذا جاء وعـد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً * ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً * إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسُؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيراً﴾ [الإسراء: 5-7].

فها قد ساءت وجوههم بحجارة الأطفال والعجائز والشيوخ وهو نذير الثانية فهل من يجوس خلال الديار... وهل هناك من أهل القرآن من يلتحم مع أطفال الحجارة... ليدخل المسجد الحرام ويتبر تتبيراً!!.

«النبي المقاتل»

اقتضت مشيئة الخالق عز وعلا أن تكون شريعة القرآن الإسلامية آخر الشرائع ليكتمل بذلك البناء الإسلامي الواحد ويكتمل الدين الإسلامي الذي ارتضاه اللّه تعالى للبشرية ديناً واحداً. والدعوة إلى الإسلام وفق هذه الشريعة لا بد أن تكون دعوة شاملة في الأسلوب والوسيلة مثلما هي شاملة في المنهج والهدف فكان القرآن الكريم بهذه الشمولية يرسم أسلوب الدعوة بشكل واضح ميسر يتعامل مع النفوس البشرية حسب طبيعة هذه النفوس حيث ينظر القرآن إلى الإنسان بشكل عام على أنه إنسان الفطرة وأن الانحراف ليس طبعاً فيه بل شذوذاً وخروجاً عن القاعدة ومن ثم يكون الدعوة عامة تتسم في طرائقها

وأسلوبها بالموعظة الحسنة والحكمة، والدفع بالتي هي أحسن. ففي سورة النمل يقول الحقّ تبارك وتعالى ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين**﴾ [آية 125] في سورة فصلت يقول الحقّ سبحانه ﴿**ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى اللَّه وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين * ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يلقاها إلاّ الذين صبروا وما يلقاها إلاّ ذو حظ عظيم**﴾ [الآيات 32-34].

إلاّ أن هذا الأسلوب الممثل في الدعوة إلى سبيل اللَّه بالحكمة والموعظة الحسنة والدفع بالتي هي أحسن ليس أمراً مطلقاً بل إنه كما ذكرت يتمشى وقاعدة الفطرة ولكن المشيئة الإلٰهية اقتضت أن يكون الأسلوب مع الكفار والمنافقين المعادين لدعوة الحق غير هذا الأسلوب على الرغم من أنه ليس من أساسات الدعوة ولا هو من طبيعة الداعية وأنه أمر فرض فرضاً وواقع منحرف اقتضى رد فعل يتمشى معه وهو دليل على مرونة أسلوب الدعوة وشمولها، **يقول** الباري عز وتعالى في سورة الفتح ﴿**محمد رسول اللَّه والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من اللَّه ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد اللَّه الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما**﴾ [الفتح 29].

وهنا يؤكد رب العالمين أن الشدة ليست صفة ثابتة في محمد صلّى اللَّه عليه وسلّم وأتباعه من المؤمنين بل هي انتصار للحق ووضع للأمور في نصابها وموقف اقتضاه واقع ومقال اقتضاه مقام أما القاعدة فهي الرَّحمة والطبع هو التراحم ويكون السجود للَّه دليل تواضع وميسم خضوع للباري جل وتعالى تقتضي مراقبته في كل شيء فهم يغضبون للَّه تعالى وعلى أعدائه تكون الشدة والغلظة لمعاداتهم للَّه وانحرافهم عن الحق والعدل. كما تسوق الآية الكريمة الحكمة من علاقات المحبة والود التي يغرسها الإسلام في قلوب أتباعه في مشهد تصويري رائع:

﴿كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار﴾.

فالتلاحم والرحمة بين المؤمنين هي مظهر قوة تخيف الأعداء وتغيظهم كما أن الشدة أسلوب تقتضيه الضرورة حتى لا يطمع أعداء الإسلام فيه وفي أتباعه.

إن الغلظة والشدة مع الكفار ليست هي الأسلوب الوحيد بلْ هي أحد هذه الأساليب ومثلما يكون رد الفعل إلى المرحلة التي يصل الأمر فيها إلى القتال. وقد أوضحنا سابقاً الآيات التي تشير إلى القتال غير أن ما نريد أن نؤكده أن محمداً صلّى اللّه عليه وسلّم باعتباره خاتم النبيين لا بد وأن يكون في حد ذاته أسوة في كل شيء فهو الداعية والمبشر والنذير والشاهد والحكم، وهو على ذلك كله النبي المقاتل. والمحرض على القتال.

والأمر للنبي بالقتال فرض عيـن مطلوب منه شخصياً أداؤه باعتباره القدوة والمثل كما يطلب منه تحريض غيره عليه يقول تعالى في سورة النساء **﴿فقاتل في سبيل اللّه لا تكلف إلاّ نفسك وحرض المؤمنين عسى اللّه أن يكف بأس الذين كفروا واللّه أشد بأساً وأشد تنكيلاً﴾** [آية 83].

وفي سورة الأنفال **﴿يا أيّها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون﴾ [66].**

إذاً فالرسول صلّى اللّه عليه وسلّم مكلّف بالقتال في شخصه صلّى اللّه عليه وسلّم وبتحريض المؤمنين على القتال وهنا تبلغ الإنسانية ذروة كمالها دعوة وهدفاً وأسلوباً، وطرائق فالرسول الأكرم هو الداعية الذي يسلك في سبيل دعوته أساليب شتى حسب طبيعة الواقع الذي يواجهه إلى أن يصل إلى قتال الذين يقفون في وجه وصول الدعوة إلى الناس، وفي القتال لا يقوم بالتحريض عليه بل بالمشاركة فيه مباشرة باعتبارها أمراً إلٰهياً موجهاً له كداعية وكقدوة وكإنسان كامل يجمع بين القول والفعل بين المثال والنموذج العملي بين ديمومة الهدف والفكرة وصيرورة الأسلوب والأداة بالشكل الذي لا يتعارض والفكرة والهدف على أن دعوة الحق وإن كان اللّه قادراً أن ينتقم من أعدائها من الكفار كما فعل بالأقوام

السابقين إلا أنه لا بد وأن يقيض لها بشراً مؤمنين يتحملون إلى جانب مسؤولية الدعوة بالحكمة والموعظة مسؤولية الشدة وقتال أعداء الحقّ، أعداء الإنسانية. وإذا كان الرُّسل السابقون قد توجهوا إلى اللّه أن ينزل غضبه على الكفار المكذبين من أقوامهم فكان انتقام اللّه عبرة مادية اقتضتها ظروف محدودية المكان والزمان لتلك الدعوات فإن شريعة القرآن الخاتمة وقد اكتمل بناء الإسلام وختم الرسالات والرسل لا بد وأن يكون أسلوب مواجهة الكفار فيها والانتصار لدعوة الحق أسلوباً بشرياً يقود رايته جنود الرَّحمن على الأرض،يقول تعالى في سورة التوبة **﴿قاتلوهم يعذبهم اللّه بأيديكم ويخزهم وينصركم عيهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب اللّه على من يشاء واللّه عليم حكيم﴾** [الآيتان 14-15] وهنا يكون النصر من اللّه والغلبة للحق وجنوده. فإلى أشباه القادة وما هم بقادة نقدم نموذج القائد الأعظم الذي لا يرسل جنوده إلى القتال ويظل قابعاً يحرسه الحراس يتابع أخبار المعارك من بعيد بل هو قائد لأنه يقوده فعلاً ويتقدمهم إلى القتال عملاً وبهذا انتصر الإسلام والمسلمون وإلى أشباه الرجال وما هم برجال من الذين يحملون رتب الحديد الصدئة وعصي «الشرف» ولا يعرفون حتى معنى الشرف نقدم نموذجاً لرجال صنعوا رتباً بدمائهموحفظوا الشرف بأرواحهم. وهل ضاع معنى الشرف إلا بعد أن جسدناه في عصا، وهل اثاقل ضباطنا إلى الأرض إلا بسبب هذه الرتب والنياشين.

إن قيادتنا اليوم تمارس الدجل والكذب والنفاق،تحرض على القتال لا في سبيل اللّه بل لحماية عروشها وكراسيها ولا غرو أنهم أحرص الناس على حياة لأن قناع الغرور يقتضي الحرص على هذه الحياة ولا عجب إذا كان تاريخ معاركنا المعاصرة مليئاً بالهزائم والخذلان.

إن انتصار الحق في حاجة إلى رجال تجسد فيهم هذا الحق وإن التغيير لا يكون بالشعارات والصحف السوداء التي تمارس الدجل والسحر وتسخير خطباء السلاطين يدعون على المنابر بل معركة التعبير تبدأ من ذات الإنسان لتفيض عما حوله **﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر اللّه إن اللّه لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد اللّه بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال﴾** [الرعد آية 12].

السّلفية والإسلام

من أخطر الدعاوي التي يروج لها الجاهلون والعاجزون عن مواجهة الحياة بالفعل الإنساني وصولاً إلى حالة الكمال الإنساني دعوى السلفية. وقبل أن أحلِّل هذا المصطلح لأوضح خطورته على الإسلام باعتباره الحقيقة الكاملة التي تتجاوز جزئية الإنسان والزمان والمكان أرى ضرورة تناول هذا المصطلح من الناحية اللغوية فالسلفية مشتقة من السلف يقول ابن منظور في مادة سلف «سلف يسلف سلفاً وسلوفاً: تقدم، وقول الشاعر:

وما كل مبتاع، ولو سَلف صفقة　　　براجع ما قد فاته برداد

إنما أراد سلف «بفتح السين» فأسكن للضرورة... والسالف: المتقدم. والسلف والسليف والسلفة: الجماعة المتقدمون «ويستشهد ابن منظور لهذا المعنى بقوله تعالى في سورة الزخرف ﴿**جعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين**﴾ [آية 56] ويورد رأي الفراء حيث يقول جعلناهم سلفاً متقدمين ليتعظ بهم الآخرون والأمم السالفة على رأي «الليث»: الأمم الماضية أمام الغابرة وتجمع سوالف، وأنشد في ذلك:

ولاقت مناياها القرون السوالف　　　كذلك تلقاها القرون الخوالف

ويضيف الجوهري إلى دلالة سلف قوله: «سلف يسلف سلفاً مثل طلب يطلب طلباً أي مضى والقوم السّلاّف.. المتقدمون. وسلف الرجل: آباؤه

المتقدمون والجمع أسلاف وسلاف»[1].

وقد وردت مادة سلف في القرآن الكريم في أكثر من موضع ودلالتها في الجميع: التقدم والسبق فعلى سبيل المثال يقول تعالى في سورة البقرة **﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلاّ كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المسّ ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحلّ اللّه البيع وحرّم الربا فمن جاءه موعظة من ربّه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى اللّه ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾** [آية 274] فمعنى له ما سلف «أي ما تقدّم».

ويقول تعالى في سورة الحاقة **﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾** [23] أي بما قدمتم في الحياة الدنيا، وفي سورة يونس **﴿هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت وردوا إلى اللّه مولاهم الحق وضلّ عنهم ما كانوا يفترون﴾** [آية 30] فمعنى ما أسلفت «ما قدمت». وهو نفس المعنى الذي ورد في سورة النساء الآية 22 والآية 23 وسورة المائدة آية 97 وسورة الأنفال الآية 38.

فالسلف إذا ما تقدم وسلف الرجل آباؤه ومن هنا تكون السلفية موقفاً شاملاً من الوجود والموجودات قوامه السلف كمرجع ومعيار. بمعنى أن معيارية السلوك عند السلفي هم آباؤه وأجداده على اعتبارهم نموذجاً للحقيقة ومعياراً لها. وبالتالي فإن السلفية تشكل عند هؤلاء «يوتوبيا» يحاولون من خلالها جعل الواقع صورة متكررة من الماضي وإن ما يعترض الإنسان فيه لا يمكن معالجته وحله إلاّ بالكيفيّة التي واجه بها سلفهم مشاكلهم كما يرى هؤلاء أن ما يتعرضون له من أزمات وما يكتنف حياتهم من مصاعب إنما هي بسبب ابتعادهم عن مسلك السلف فهي عقوبة الانحراف عن السلف أكثر منها مقتضيات تفرضها معطيات الواقع زماناً ومكاناً وإنساناً.

ولقد واجه القرآن الكريم السلفية كموقف ومعيار مواجهة حادة باعتباره يتناول الحقيقة الكاملة الشاملة التي تتعارض وجزئية السلفية،يقول تعالى في سورة الزخرف مصوراً هذا الموقف الغريب **﴿بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة**

---

(1) ابن منظور، راجع السابق، ص 158، دار صادر، بيروت.

وإنا على آثارهم مهتدون * وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلاّ قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون * قل أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ [الآيات 21، 23].

وفي سورة البقرة يقول عز من قائل **﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل اللّه قـالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾** [آية 169] وفي سورة المائدة **﴿وإذ قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل اللّه وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾** [آية 106].

إذاً فالموقف السلفي لهؤلاء الكفار موقف يدل على عناد وجهل لحقيقة الحياة الإنسانية ذاتها كما يدل في الوقت ذاته على عجز وقصور في البرهنة على مصداقية موقفهم حيث يلجأون إلى الهروبية والتعلل بأن ما يقولون به هو اتباع لآبائهم ومن تقدم من سلفهم.

«السلفيُّون موتى»

الحياة بما فيها وبحكم كونها حياة تتميز بالجدة والنمو في طريق الكمال البشري ومن ثم فإنها لا تقبل بالموتى فوق ظهرها بل يدفنون في جوف الأرض حتى لا يشاركون الأحياء حياتهم، والإنسان لا يكون حياً إلاّ إذا كان فاعلاً ومن هنا فإن للفعل الإنساني شروطاً لا بد فيها وإن كنت سأ تناولها في الجزء الثاني من هذا البحث تحت **نظرات في الحياة** إلا أنني أرى أن المقام يقتضي إيجازها فهذه الشروط هي الإنسان، والفكرة، والهدف، والوسيلة، والأسلوب،فبالفكرة الإنسانية يتم تحديد الهـدف وبالهـدف يرسم الأسلوب وبـالأسلوب تختار الوسائل. وكلها لا تتم إلاّ بالفعل. والفعل الذي هو تأكيد لإنسانية الإنسان الفاعلة باعتباره مخلوقاً إرادياً فاعلاً يتم في دائرة المكان فالإنسان والمكان شرطان من شروط الفعل أي لا يقوم الفعل «في لا مكان» إذ أن «لا مكان» هذه تعني لا فعل أو بمعنى آخر تعني «اليوتوبيا». أما الزمان فهو مرتبط بالفعل ومظهر له فلا يدرك الزمان الإنساني خارج دائرة الفعل. والإنسان الذي لا يقوم بالفعل

لا إحساس له بالزمان. وقد صوّر اللّه لنا مشهدين يؤكدان هذه الحقيقة وفي سورة البقرة يقول الحق تبارك وتعالى في شأن الذي مرّ على قرية فوجدها خاوية على عروشها **﴿أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه اللّه بعد موتها فأماته اللّه مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن اللّه على كل شيء قدير﴾** [آية 258] وفي سورة الكهف يقول تعالى **﴿وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة، فلينظر أيها أزكى طعاماً، فليأتكم برزق منه وليتلطف، ولا يشعرن بكم أحداً﴾** [آية 19] ففي الآية الأولى في سورة البقرة انعدم إحساس السائل عن إمكانية إحياء القرية بعد موتها، والذي تشير المصادر إلى أنّه عزير، بقيمة الزمن لأنه كان خارجاً عن دائرة الفعل وبالتالي أصبحت المائة عام وكأنها يوم واحد أو بعض يوم. فالخروج عن دائرة الفعل يعني عدم الإحساس بالزمن وبعبارة أخرى يعني الموت حكماً. وهذه الحقيقة تكررت مع أهل الكهف الذين لبثوا في الكهف ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً ولم يدركوا مرور كل هذه السنوات فقالوا **﴿يوماً أو بعض يوم﴾**.

إن القرآن الكريم وهو يتناول مفهوم الزمن يتناوله في إطار الفعل فالزمن يكتسب قيمة من الفعل وبدون الفعل يكون كل شيء عبثاً في حياة الإنسان لا قيمة من ورائه فالكفار لا يدركون قيمة الزمن لأنهم خارج دائرة الفعل الإنساني وقد استحقّوا غضب اللّه وعقابه لأن اللّه لم يخلق الكون عبثاً ولا البشر بما يشين وإنما خلقهم من أجل رسالة عظيمة وأمانة عجزت السماء والأرض والجبال عن تحمّلها وودت الملائكة لو تم تكليفهم بها يقول تعالى في سورة المؤمنين **﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين * قال إن لبثتم إلاّ قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون * أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾** [الآيات 114-116].

والعلاقة بين الموت حقيقة وحكماً والفعل الإنساني غير العابث هو ما يؤكده تعالى في سورة الروم **﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون * ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون﴾** [الآيتان 54 ـ 55] فالحياة الدُّنيا التي عاشوها عبثاً كانوا فيها موتى حكماً يضاف ذلك إلى موتهم الحقيقي فتكون المحصلة عدم إحساسهم بالزمن لأنهم لم يفعلوا شيئاً إنسانياً وتكون قيمة زمنهم قيمة حياتهم كلها حكماً وحقيقة تافهة تفاهة هي هذه المدة القصيرة **﴿ما لبثوا غير ساعة﴾**.

إذاً فالحياة الفاعلة هي الحياة التي يكون للزمن فيها قيمة والفعل الصادر من إنسان حي حكماً وحقيقة هو الفعل المتكاملة شروطه الإنسانية إذ أن هدفه هو تأكيد إنسانية الإنسان أو الوصول بها إلى الفطرة والإسلام ومن هنا تكون الفطرة أو الإنسانية التي يؤكدها الإسلام قيمة ومعياراً نقيم بها الفعل الإنساني أو قل الإنسان جملة. بهذه المقدمة التحليلية نعود إلى السلفيّة التي حكمنا عليها بالموت واعتبرنا السلفيين بذلك موتى إذ أن موقفهم من الحياة والكون بمنظور سلفي لا يدل إلّا على أنهم خارج دائرة الحياة حكماً وإن كانوا يشاركون الأحياء فيها حقيقة.

فالفعل الإنساني كما ذكرت يرتبط بخلقة الإنسان الفاعل والمكان الذي يتم عليه الفعل، والمكان الذي يتم عليه الفعل مليء بالظروف والمعطيات التي لا بد أن يدركها الإنسان ويسخرها حتى يستطيع أن يصل إلى هدفه وهو الوصول بالإنسانية إلى الكمال،هذه الظروف هي ما نطلق عليه الواقع فالواقع هنا هو هذا الكل الذي يحيط بالإنسان ويتفاعل الإنسان وسطه ولكل واقع أسلوبه وأدواته فالأسلوب والأدوات تكتنفها بحكم جزئية الواقعية الصيرورة والتحوّل غير أن صيرورة الأسلوب والأدوات لا تستدعي صيرورة الهدف والغايات فالهدف والغاية ديمومة وثبات مطلق اقتضته ديمومة الحقيقة وإطلاقها والوسائل والأساليب صيرورة وتحوّل وإذا لم يدرك الإنسان هذه الحقيقة عجز عن القيام بالفعل الإنساني والعجز عن إدراك الفرق بين ديمومة الحقيقة وصيرورة الوسائل كان وراء الكثير من المعضلات التي واجهت المفكرين الإنسانيين وهنا يكمن داء السلفية العضال. فالسلفيّة لا تفرق بين ديمومة الفكرة وصيرورة الوسائل كما

لا تفرق بين ديمومة هذه الفكرة وجزئية الإنسان أو قل جزئية الفعل الإنساني قبل أن يدرك مداه. بمعنى آخر يرى السلفيُّون أن الأجداد هم نموذج الكمال الإنساني وبالتالي لا بدّ من أن يكون الأحفاد نسخة منهم لا يحيدون عنها. أي أن أفعال السلف تكتسب صفة الديمومة لتصبح هذه الأفعال قيمة ومعياراً.

فالسلفيّة إذاً موقف قديم قدم الإنسان ويبدو أنه سيستمر معه ما لم يدرك الحقيقة السامية التي يقدمها القرآن باعتباره دين الفطرة.

لقد وقع في مرض السلفية هذا الكثير من المسلمين في عصرنا هذا والعصر الذي تقدمه فجعلوا من حياة الصحابة رضوان اللّه عليهم «يوتوبيا» يهربون إليها كلما عجزوا عن مواجهة الواقع من أجل تغييره.

إن الصحابة رضوان اللّه عليهم أدركوا ديمومة الحقيقة القرآنية فتفاعلوا مع الواقع من أجل تغييره وهم يحاولون تغيير الواقع جعلوا له أدواته ووسائله وإذا كانت الحقيقة القرآنية واحدة أزلية وأبدية فإن الاسلوب والأدوات ليس بالضرورة أن تكون هي نفسها.

فالذين يحاولون أن يعالجوا واقع اليوم بأساليب الأمس وأدواته بحجة أن من سبقنا قد عالج المشاكل بهذه الأساليب والأدوات هم السلفيُّون وهم الموتى لأنهم يعيشون مع السلف حكماً وإن كانوا يشاركوننا هذه الحياة كما سبق وأن قلت «واقعاً».

إن الديمومة للحقيقة وليست للأساليب والأدوات إذ أن الأساليب والأدوات مرتبطة بالفعل الذي يرتبط بجزئية الإنسان والمكان ولكل عصر أدواته وأساليبه ورجاله يعرف العصر بهم ومنهم يستمد قيمته.

إن معطيات الحياة زاخرة بالتنوع والصيرورة وما لم نواجه هذه المعطيات بصيرورة الأساليب والأدوات وصولاً إلى ديمومة الهدف الذي هو الحقيقة الأبدية والأزلية وهي «الفطرة» أو الإسلام ما لم ندرك ذلك فإننا سنظل موتى وإن كانت لنا مظاهر الحياة من حركة وأكل واستهلاك بل إننا والحال هذه نشكل عبئاً على الأحياء حقيقة وحكماً.

إن السلف من الصحابة رضوان اللّه عليهم انتصروا في معركتهم مع الباطل وأهله وكان سلاحهم وأسلوبهم سلاح ذلك العصر وأسلوبه كما كان انتصارهم بسبب اختيارهم لكل موقف فعله ولكل فعل أسلوبه ولكل أسلوب أداته وإذا كنا نشاركهم الهدف ونسعى إلى حقيقة الإسلام التي يتجاوز الإنسان والزمان لتصبح حقيقة لكل إنسان وفي كل مكان وزمان فإننا لا يمكن إلاّ أن نغيّر الواقع في ضوء الهدف بالوسائل التي نستطيع بها أن نغيره فالحقيقة الإسلامية ليست سلفية ولا واقعية ولا عصرية ولا مثالية إذ أن السلفية والواقعية والعصر والمثالية صفات لجزئية مكانية وزمانية لا يجوز أن يوصف بها الإسلام باعتباره المطلق. أي أن هذه الجزيئات صفات للبشر وليست صفات للحقيقة الإسلامية التي يقدمها القرآن.

دعوني أروي لكم قصة تعكس نموذجاً لهذه السلفية المريضة أو قل الميتة: كنت في الجامعة ألقي محاضرة حول «الإسلام والمعاصرة» واسترعى انتباهي أحد الطلاب وهو يدخل عوداً إلى فمه ويخرجه وعندما استفهمت منه سبب هذا السلوك قال إنني انظف اسناني بعود الأراك. وإن هذا العود سُنّة عن الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم. وقد حاولت أن أوضح له أن تنظيف الأسنان ليس محله الفصل الدراسي وأنه سلوك يؤذي زملاءه الجالسين حوله هذا علاوة على أن هذا العود مضر للثة وأن أسلوب استعماله علاوة على ذلك غير صحي. كما أن الأسوة ليست عود الأراك بل الأسوة هي تنظيف الأسنان وإن عود الأراك هو أداة استخدمت باعتبارها أحسن وسيلة للنظافة كانت آنذاك وإن السُّنّة هي ديمومة الفكرة وهي النظافة وصيرورة الوسائل. أي أن الإنسان عليه أن ينظف أسنانه فهذه هي الأسوة أما الأداة فعليه أن يختار أحسنها وأكثرها سلامة ويسراً و ملاءمة

وإن عود الأراك مثله مثل السيوف والرماح نحتفظ به للذكرى باعتبارها أدوات استخدمت لمعالجة معطيات وللوصول إلى أهداف وإذا كانت الأهداف دائمة فإن المعطيات متغيرة تقتضي تغيير الوسائل. فحرب السيوف والرماح لم تعد مجدية أمام حرب الهيدروجين والذرّة!!.

النظرة الثانية عشر

هزوبيّة الرّوحيّين

في نظرات سابقة أشرت إلى العلاقة بين اكتمال إنسانية الإنسان وإرادته للفعل وفعله للإرادة وذكرت أن الشرائع الإسلامية جميعها تهدف إلى العودة بالإنسان إلى الفطرة أي إلى القاعدة السليمة التي فطر اللّه الناس عليها حيث شاءت إرادته عزّ وجل أن يكون الأساس الإنساني «في أحسن تقويم» فالعودة إلى هذا الاساس أمر ضروري ليبدأ الإنسان في بناء إنسانيته إلى أن يصل بها مرحلة الكمال الإنساني وهو في مراحل هذا البناء يواجه تحديات وعقبات لا بد أن يتعرف عليها ويعمل فيها عقله ليختار ويريد ويفعل فالعلاقة إذاً بين المعرفة، والتعقل، والاختيار والارادة والفعل علاقة وثيقة ومتكاملة وهذه جميعها تؤكد إنسانية الإنسان وضرورة من الضرورات التي يجب أن تستمر إلى أن يكتمل بناؤها. وتكون الشرائع الإلٰهية التي جاء القرآن خاتمة لها ومهيمناً عليها هي الدليل الذي به يستطيع الإنسان مهتدياً به أن يميز هدفه وأن يختار طريقه إلى الهدف ويحدد أسلوبه وأدواته ومن هنا تكون الشرائع الإلٰهية نعمة من اللّه سبحانه وتعالى أنعم بها على الإنسان حتى يتخبط في هذه الحياة دونما دليل.

وقد ذكرت في نظرات سابقة أن الفعل الإنساني هو مرآة تعكس الإنسان ذاته وبالتالي إذا جردت الإنسان من معطيات الفعل الإنساني «المعرفة» و «التعقل» و «الاختيار» و «الإرادة» و «الفعل» جردته بالتالي من إنسانيته. وقصة الصراع هي قصة تأكيد الإنسان لإنسانيته والشهداء هم أولئك الذين يقدمون

أنفسهم قرباناً للقيم المطلقة «الإنسانية» إذا شعروا أنهم في وضع لا يليق بإنسانيتهم أو اعتقدوا أن تقديم حياتهم قد يكون سبباً في انتصار هذه القيمة «الإنسانية الكاملة» التي تدعو إليها الشرائع ويؤكدها الإسلام والتي هي سبيل اللّه وسنّته التي أرادها لعباده الصالحين.

ومن هنا فإن القرآن يؤكد أن الذين قتلوا في سبيل اللّه هم «أحياء» حقيقة وحكماً لأنهم وإن ماتوا جسداً فإن القيمة الإنسانية ظلت حية بموتهم وبالتالي استحقوا الخلود في الدنيا والآخرة.

وإذا كانت السلفية كما أشرت في النظرة السابقة هي مظهر موت وإنها تقف في مواجهة الإسلام وأصحابها هروبيُّون فإن الروحيين هم الآخرون موتى حكماً وهروبيُّون وعاجزون عن مواجهة الحياة والقيام بالفعل الإنساني.

وحتى أحلّل هذه النظرة أرى من الضروري أن أتناول الدلالة اللغوية لروح والعلاقة بين «الموقف الروحي والتصوف» وجذور هذا الموقف وظروف تسربه إلى فكر المسلمين وأنا هنا لا أقول الفكر الإسلامي لأن الفكر الإسلامي لا يقبل بمثل هذا الموقف السلبي العاجز.

يقول ابن فارس «روح: الراء والواو والحاء أصل كبير مطرد، يدل على سعة وفسحة واطراد وأصل ذلك كله الريح. وأصل الياء في الريح الواو. وإنما قلبت ياء، لكسرة ما قبلها فالروح روح الإنسان. وإنما هو مشتقّ من الريح وكذلك الباب كلّه. والروح: نسيم الريح، ويقال أراح الإنسان، إذا تنفس وفي شعر امرىء القيس:

لها منخر كوجار السماع * فمنه تريح إذا تنبهر

ويقال أروح الماء وغيره، تغيرت رائحته، والروح جبرئيل عليه السلام، قال اللّه جل ثناؤه ﴿**نزل به الروح الأمين على قلبك**﴾، والرواح، العشي، وسمي بذلك لروح الريح فانها في الأغلب تهب بعد الزوال... ويقال: فلان يراح للمعروف، إذا أخذته أريحيته... ويقال للميت إذا قضى: قد أراح ويقال أراح الرجل إذا رجعت إليه نفسه بعد الإعياء... والريح: ذو الريح، يقال يوم

ريح: طيب. وسميت الترويحة في شهر رمضان لاستراحة القوم بعد كل أربع ركعات.. والراح: الخمر»[1].

ويضيف ابن منظور إلى مفهوم الريح دلالة هامة لها علاقة بالروح يقول «وقد يكون الريح بمعنى الغلبة والقوة، قال تأبّط شراً، وقيل سليك بن السلكة:

انتظران قليلاً ريث غفلتهم   أو تعدوان فإن الريح للعادي

ومنه قوله تعالى: ﴿وتذهب ريحكم﴾[2].

إن المتتبع لكل الدلالات اللغوية التي سبق ذكرها يرى أنها جميعها ترتبط بدلالة القوة والنشاط فالريح من مظاهرها القوة، واستراح الإنسان أي استعاد قوته ونشاطه والريح أو الطيب هي التي تبعث في الإنسان النشاط والقوة، والراح هي الأخرى أخذت دلالتها من هذا المعنى فالذين يتعاطونها يعتقدون واهمين أنها تعطيهم النشاط والقوة وإن كانت في حقيقة الأمر قوة ونشاطاً كاذبين سببهما الهروبية التي تعطيها الخمر لشاربها إذا ما عجز عن مواجهة مشاكل الحياة حيث تجلب له هذه الهروبية شعوراً كاذباً بالراحة.

وإذا كان القرآن الكريم قد تناول الروح في أكثر من موضع فإنه قد تناول مظاهرها لا حقيقتها إذ أن حقيقة الروح هذه من علم الله وعدم قدرتنا على إدراكها لأنها أمر اختص به الله وأن علمنا بالأشياء التي في حدود علم البشر فقط ولا يتجاوزه:

يقول تعالى في سورة الإسراء **﴿وإذا أنعمناعلى الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يؤوساً * قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً * ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلّا قليلاً * ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً﴾** [الآيات [86 ـ 87]

(1) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، جـ 2، ص 454-457 مركز النشر، مكتب الاعلام الإسلامي، إيران.
(2) ابن منظور، المرجع السابق، جـ 2، ص 457، دار صادر، بيروت.

فهذه الآيات تؤكد ضرورة أن يعمل الإنسان فالعمل وحده هو مقياسه سواء أكان هذا العمل خيراً أم شراً وهو موضوع معياري إذ أن الإنسان الذي يتبع الشريعة الإلٰهية هو الأهدى سبيلاً ولهذا امتن الله على الرسول والمسلمين **﴿ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً﴾**. فمجيء آية الروح بين المطالبة بالعمل وذكر الوحي دليل على أن المطلوب من الإنسان تحديد هدفه وانتقاء سبيله واختيار وسائله واختيار الهدف والسبيل والوسيلة عمل متكامل أساسه الحقيقة الإسلامية فالمؤمنون الذي يتبعون ما أوحى الله به سيكونون أهدى سبيلاً والصراط المستقيم لا يتم عبر الشطحات والهروبية بل عبر العمل بالمنهج الإلٰهي والوحي القرآني وهذا في حد ذاته دليل ورد قرآني.

وكما سبق وأن أشرت فإن تناول القرآن للروح في غير هذا الموضع هو تناول لمظاهرها فجبريل هو مظهر لإرادة الله ومشيئته، ونفخ الروح في الإنسان في قوله تعالى في سورة السجدة **﴿ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم * الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين * ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين * ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾** [الآيات 5-8] هو علاقة اكتمال خلق وحياة وحركة وفعل تكون دليلاً على قدرة الله وإرادته.

الصعود هبوطاً

حاجة الإنسان إلى المعرفة وطريقة الوصول إليها من المشكلات التي واجهت وتواجه الإنسان فرداً وجماعات والروحية وإن كانت نتاجاً لهذه المشكلة فإنها تعبر عن العجز والقصور عن إدراك الحقيقة الإنسانية وإذا اتبعنا جذور هذه المشكلة فإننا نجدها قديمة قِدم الإنسان ذاته حتى قبل أن يهبط إلى الأرض، فالإنسان باعتبار هذه الإنسانية يسعى إلى المعرفة ومأساة الإنسان بدأت بهذه المشكلة التي يبدو أنها لن تنتهي وقصة الشجرة التي ورد ذكرها في القرآن في أكثر من موضع هي رمز لهذا المثير الذي يدفع الإنسان إلى المعرفة كما أن عدم التزامه ؟؟؟؟؟؟؟ الله هو دليل محاولة الإنسان تجاوز حدود معرفته الإنسانية فيكون المصير هبوطاً وإن كان يعتقد أنه سيمضي صعوداً. ويكون الطرد هو

إخراج من دائرة الرحمة الإلهية التي هي نتاج الالتزام بالحقيقة والعمل بمقتضاها وقصة طرد إبليس من الجنة والتي تكررت مع آدم تحكي ذلك وإذا كان آدم قد تاب من ذنبه فكان جزاؤه الهبوط إلى الأرض ليحاول عليها أن يكفر عن ذنبه بالفعل الإنساني ليصعد إلى الله بفعله وعمله فإن إبليس كفر وطغى فاستحق اللعنة في الدنيا والآخرة **﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس لم يكن من الساجدين * قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين * قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبّر فيها فاخرج إنك من الصاغرين * قال أنظرني إلى يوم يبعثون * قال إنك من المنظرين قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين * قال اخرج منها مذءوماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين * ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين * فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمها إني لكما لمن الناصحين * فدلأهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليها من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين * قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين * قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾** [الأعراف 10-23].

فالربط إذاً بين قصة هبوط إبليس وهبوط آدم واضح تماماً وهي نفس قصة الجهل بالحقيقة وعدم المعرفة التي تستتبع الظلم والتجاوز كمحصلة لهذا الجهل فإبليس جهل المعرفة بنفسه فأوصله الجهل إلى الطغيان الذي هو التجاوز فظن بهذا التجاوز أنه أفضل خلقاً من الإنسان لأنه خلق من نار بينما كان خلق آدم من طين فأعماه اعتقاده الخاطىء ورفض تقبّل أمر الله له وهو الأعلم بأصل خلقه فرفض السجود لآدم فكان جزاؤه الطرد واللعنة. وآدم الذي تجاوز هو الآخر أمر الله الذي حذّره من كيد إبليس وغوايته ومنعه من الاقتراب من الشجرة

فاقترب منها «معتقداً الخلود أو أن يكون ملكاً» هو الآخر استحق ومن هنا كان سلوك إبليس وسلوك آدم هو نتاج المعرفة الخاطئة بحقيقتيهما. وعدم الاستجابة لأمر اللّٰه العليم الخبير.

ويبدو أن الإنسان قد ورث عن أبيه آدم النهم الشديد إلى المعرفة فلا غرو إذن أن تكون المعرفة من أقدم المشاكل الفلسفية التي واجهت الإنسان ولا تزال تواجهه، والرغبة في التجاوز أي تجاوز حدود المعرفة الإنسانية تحلق من نفس الإنسان هذا «المثير أو الشجرة» التي تجعله لا يهدأ ولا يستريح. وكما هبط آدم من الجنة إلى الأرض فإن قدر أبنائه إذا انحرفوا أن يهبطوا من على الأرض إليها أي إلى المستوى الأدنى من المستوى البشري أو المستوى المادي ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ وربما يأتي انقسام مدارس التفكير البشري بسبب اختلافهم في طرائق الوصول إلى المعرفة فمنهم من اعتقد أن الوصول لها بالعقل وهؤلاء هم مدرسة العقل، ومنهم من اقتصر على المادة باعتبارها الحقيقة وهم الماديُّون ومنهم من حاول أن يتجاوز كل شيء إلى لا شيء وهم الروحيُّون فاعتقدوا بقصور المادة والعقل وإن الحقيقة موضوع روحي بحت.

إن العجز عن إدراك الحقيقة الإنسانية التي يقود إليها الوحي الإلهي عبر شرائع الإسلام قد قاد هؤلاء إلى الاعتقاد بأن المعرفة لا تأتي إلاّ روحية على الرغم من الحق تبارك وتعالى أمرنا أن نتوقف عند حد الإدراك الإنساني باعتبار أن أمر الروح يتجاوز هذا الإدراك. . وتظل محاولة الإنسان التجاوز تقوده إلى نفس النتيجة التي يوصل إليها الطغيان والتجاوز في كل زمان ومكان فهؤلاء «الروحيُّون» يعتقدون أنهم عن طريق التصوف يستطيعون تجاوز حدود الإنسان إلى اللّٰه وهذا جهل وعدم معرفة بحقيقة الإنسان ذاتها. فاللّٰه لم يخلق الإنسان ليتجاوز إنسانيته بل خلق بشراً سوياً معتدلاً والاعتدال أصلاً ضد الظلم والجور هبوطاً أو صعوداً.

وإذا كان التصوف هو وسيلة الروحيين إلى إدراك المطلق فإنه كوسيلة يقف في الصف المعادي للقرآن وشرائع الإسلام وهو وسيلة فاسدة لفساد هدفها.

إن القرآن وهو يتحدث عن الروح كما سبق وأن أوضحت يجعلها من أمر اللّٰه وإن الإنسان لا يطلب منه أن يسعى لغير الكمال الإنساني الذي لا يكون إلاّ

باتباع أوامر اللّه ويظل الرسل عليهم السلام في معاناتهم وجهادهم على الأرض نموذجاً وأسوة حسنة لمن أراد هذا الكمال الإنساني ولمن كان يرجو اللّه واليوم الآخر.

البوذيُّون والموقف الروحي

البوذية من المحاولات التي يمكن إدخالها ضمن المدرسة «الروحية» وربما سبقها عدة محاولات إذ أن الروحية كما قلت موقف قديم قدم الإنسان وتعبير عن عجز معرفة وقصور إدراك. فالمدرسة البوذية تهدف إلى وصول الإنسان إلى السعادة أو «النرفانا» وهي مرحلة الوصول إلى المطلق حسب زعمهم وتأتي الرياضات المختلفة التي يمارسونها وسيلة لقهر الجسد وتصفية الروح كما يقولون، والصوفية عندنا ليست سوى شكل من أشكال هذه الممارسات التي يعتقد أصحابها أن السعادة لا تكون إلّا بانتصار الروح على الجسد وقد اختلف المتتبعون لدراسة الصوفية في الأصل اللغوي للتصوّف فمنهم من اعتقد أنه مشتق من الصوف لأن هؤلاء كانوا يلبسون الصوف الخشن ومنهم من رأى أنه من التصفية والصفاء ومنهم من ذهب غير ذلك إلا أن الفرق شكلي في نظري إذا أن لباس الصوف والتقشف وتعذيب النفس ليس سوى وسيلة للوصول إلى الصفاء أو التصفية كما يقول أتباع المدرسة الروحية من «المسلمين» أو النرفانا كما يقول بها فلاسفة البوذية. والحقيقة التي يمكن لنا ببساطة إدراكها من تتبع هذه الظاهرة هي أن موجة الصوفية والاتجاه الروحي تظهر وتشتد كحالة من حالات العجز الإنساني فرداً أو جماعات عن مواجهة الواقع الذي يستدعي التغيير بالفعل الإنساني أي أن عجز الإنسان عن القيام بالفعل الإنساني هو الذي يقوده إلى محاولة الانتصار في عالم الوهم أو «اليوتوبيا» سواء يوتوبيا السلف عند السلفية، يوتوبيا الروح عند الروحية أو يوتوبية الواقع عند الماديين.

ولقد حاول مؤرخو الفكر عند المسلمين أن يعزو «ظاهرة الصوفية» إلى موجة المجون التي ظهرت في عصر الدولة العباسية نتيجة اتساع الدولة ودخول عناصر وثقافات ماجنة وكرد فعل سلبي لهذا الواقع أي بدل أن يتحول ردّ الفعل إلى الردّ بالفعل أي بالثورة من أجل تغيير الواقع الخاطىء كان رد الفعل في

الاتجاه المعاكس غير الإنساني أي الاتجاه الهروبي السلبي العاجز. وهنا يمكن القول إن نظرية الإمام المنتظر ليست سوى مظهر لمظاهر العجز عن تعبير الواقع والهروب إلى ما فوق أي بدل تغيير الواقع بالفعل الإنساني ينتظر الإنسان هذا «المنتظر» الغيبي الذي سيأتي ليملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً. وهذه النظرية ذات نتاج ثقافات جاهلية غير إسلامية.

إن التغيير بالفعل هو السلوك الإنساني الذي يدعو اللّه سبحانه وتعالى إليه **﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر اللّه إن اللّه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد اللّه بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال﴾** [الرعد آية 12].

بوذيُّون في إهاب المسلمين

تؤكد الأحداث التاريخية في الهند أن البوذية كموقف هروبي جاءت نتاجاً لعهود من التحكم والقهر كانت طبقة البراهمة تمارسه على الفقراء ممن يسمون «بالمنبوذين» والبراهم هم طبقة الحكام الذين حاولوا استغلال الطقوس من أجل المحافظة على السلطة والثروة التي احتكروها فكان «رد الفعل السلبي» هو القفز على هذا الواقع بدل مواجهته. أي بدل الثورة عليه من أجل تغييره كان رد الفعل الهروب من هذا الواقع والاتجاه إلى التصوف والتقشف ونسج حياة وهمية بدل الحياة الواقعية المليئة بالظلم والتي عجز هؤلاء عن تغييرها.

ويقول المؤرخون إن «بوذا» هذا كان ابن أمير وأنه رفض حياة البذخ واتجه إلى الفقراء والمنبوذين ولو أنني ممن يفلسفون التاريخ لقلت إن بوذا كان حليفاً للبراهمة لا عدواً لهم وإنه قدّم خدمة كبيرة لهذه الطبقة الظالمة الطاغية. وأية خدمة أكثر من تغيب المقهورين والمعذبين وخلق وهم السعادة لهم في عالم «يوتوبيا الروح» بدل تحريضهم على تغيير الواقع وممارسة الفعل الإنساني فبوذا إذاً نبي السلبية والهروب والبوذية وإن كانت تحاول أن تبحث عن السعادة «أو النرفانا» كحقيقة تقفز بها فوق الواقع فهي حركة خطرة على الأفراد والجماعات ولا يستفيد منها إلّا الطغاة والجبابرة من الحكام.

إن مدرسة القرآن التي علمتنا العمل وحده وسيلة لتأكيد إنسانية الإنسان هي نفسها المدرسة التي يأمر اللّٰه معلمها محمداً صلّى اللّٰه عليه وسلّم بتحريض المؤمنين على القتال والقتال هو الرد على الفعل بالفعل وإن كان محدوداً غاية وهدفاً أي إلى أن يزول الظلم ويعود مناخ الفطرة الذي يستطيع الإنسان أن يبني فيه نفسه ساعياً بها إلى الكمال البشري فالمتصوفة «المسلمون» هم في الواقع مسلمون شكلاً لا حقيقة فهم إلى البوذية أقرب لأنهم بسلوكهم الهروبي يبتعدون عن الإسلام ومنهجه في تغيير الباطل ويدخلون مدرسة بوذا السلبية الخانعة الذليلة.

ودراسة تاريخ الشعوب المسلمة يوضح لنا حقيقة العلاقة بين ازدهار حركة التصوف والهروبية وبين الظلم والاضطهاد[1]. فالصوفية لا تنشأ إلا تعبيراً عن حالات العجز الشعبي في مجتمعات القهر والظلم وفي عهد البطش والدكتاتورية هذا بالإضافة إلى أن الدكتاتوريين والطغاة الذين يخلقون ظروف وجودها هم أنفسهم الذين يشجعونها إذ أن أخشى ما يخشاه المتجبرون والطغاة أن يتحول الظلم والإحساس به إلى رفض وثورة تقتلع جذورهم وبالتالي فهم يحاولون إلهاء الشعوب بكل وسيلة وحلقات الصوفية هي وسيلة من هذه الوسائل.

وقد رأينا حلقات الصوفية تنتشر في عهد الاضطهاد التركي في الوطن العربي، وأفريقيا، وآسيا، بشكل لم يسبق له مثيل ورأينا كذلك أن السلاطين الأتراك كانوا وراء تشجيعها بل إن بعضهم كان يشرف عليها شخصياً ويشجع أقطابها ويمكن أن نشير إلى أن أبا الهدى الصيادي شيخ الطريقة الرفاعية كان مستشاراً للسلطان عبد الحميد.

كما شجع المحتكرون الأوربيون الطرق الصوفية في أفريقيا ففي الوقت الذي كانوا ينصبون فيه المشانق للأحرار والرافضين كانوا يغدقون الدعم والرعاية على الطرق الصوفية وحلقات التصوف ويشجعون انتشار الخوارق التي يقوم بها

(1) انتشرت ظاهرة التصوف في فارس بشكل واسع أيام اضطهاد المغول وأغلب المتصوفة الفرس «المسلمين» هم من هذه الفترة هذا علاوة على أن الثقافة الزرادشتية تشجع التصوف كما أنها مرتبطة بالثقافة الهندية القديمة.

«المتصوفة» لتكون موضع حديث يلهي الناس عن التفكير في تغيير واقعهم بل إن الكثير من الأضرحة والقبور التي يتخذ منها الصوفيون مقراً كان إصلاحها وترميمها من الخزانة الأوربيـة.

مصطلحات عربية ودلالات بوذية

ومن الطريف في هذا السياق أن نشير إلى دلالات بعض المصطلحات التي يستخدمها (المتصوفة) في حلقات اللهو العابث التي يطلقـون عليهم «الحضرة» والأصل البوذي لهذه المصطلحات والذي قد يخفى حتى على أعضاء هذه الحلقات. ففي ليبيا مثلاً يردد الصوفيون مصطلحات «الحضرة ـ الجديب ـ الطياح ـ الورد» وبالطبع فإن الحضرة تعني عند هؤلاء هي الحلقات التي تعقد «للذكر». اما الحديب فهي الحركات التي يقوم بها الشخص في هذه الحلقة وهي دائماً تكون وفق إيقاع ولحن تصاحبه أشعار حتى يصل إلى مرحلة «الطياح» والدلالة اللغوية للطياح كما يقول الفيروزآبادي مصدر الفعل «طاح ـ يطوح ويطيح هلك أو أشرف على الهلاك وذهب وسقط وتاه في الأرض وطوحه متطوح توهه فرمى بنفسه ههنا وههنا»[1] فالطياح يعبر عن المرحلة التي يصل إليها الشخص بعد قيامه بجملة من الحركات العنيفة حيث يكون في هذه الحال قد وصل مرحلة الإعياء الكامل وعدم القدرة على الحركة «نفس الدلالة اللغوية للمفردة وحتى يمكن لنا أن نـدرك مدى الارتبـاط بين هذه المصـطلحات والدلالات البوذية فإنني أرى أهمية أن أقوم بتحليلها إن «الحضرة» كمصطلح صوفي لا يعني الحلقة كما يتوهم البعض «ولكن يعني الحضرة الإلهية، أو الطاو عند البوذيين، والجديب «هو الجذب أو الانجذاب» أي انجذاب روح الإنسان نحو «المطلق أو الحقيقة» بشكل مؤقت عند هؤلاء أو بشكل مطلق كما نظر لها فلاسفة الصوفية من «المسلمين» ليصبح الكل في واحد.

والطياح هي مرحلة النشوة التي يقول هؤلاء إنهم يصلون إليها وهي نفسها مرحلة «النرفانا» عند البوذيين.

---

(1) الفيروزآبادي، المرجع السابق، جـ1، جـ2، ص 247، مطبعة الجلس، مصر، 1952.

أما الأذكار فهي جملة من الأدعية والأشعار التي توصلهم إلى الورد بكسر الواو لا الورد بفتحها وإذا كان البوذيُون قد اعتبروا التقشف والسير على المسامير وغيرها من الوسائل الضرورية لتعذيب الجسد وصولاً إلى المطلق فإن الحركات العنيفة التي يقوم بها أصحاب حلقات الصوفية عندنا هي الأخرى تعذيب للجسد بشكل مؤقت وصولاً إلى النرفانا والتي يكون الطياح مظهراً لها.

ومن هنا كانت هذه الحركات دليل موت لا حياة وهي أشبه بالحركات والتشنجات التي تظهر على الميت قبل الموت ووجه الشبه أنها كلها تقود إلى «لا فعل» وإن كانت الثانية موتاً حقيقياً فإن الأول موت حكمي وتظل الحركة الإنسانية هي الحركة الفاعلة المؤثرة وأيّة حركة لا تكون في اتجاه الفعل المؤثر هي حركة غير إنسانية وهي دليل موت لا دليل حياة.

المتصوفة والمشعوذون وتأويل القرآن

المتصوفة لا يعترفون أنهم بسلوكهم الذي يقومون به يخرجون عن دائرة القرآن وبالتالي نراهم يحاولون تأويل الآيات القرآنية وتحريفها عن مواضعها للدفاع عن موقفهم المخالف **﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾** وبالتالي فإنهم يقولون عن الأشعار التي يرددونها في حلقاتهم بأنها ذكر ويدخلون البسطاء في وهم أنها الذكر الذي أشار إليه الحق تبارك وتعالى في القرآن. إلا أننا نقول رداً على هؤلاء وفضحاً لهم إن الذكر هو القرآن الكريم وإن تذكر الله وحده وإن كان القول مظهراً له فإن الفعل دليل عليه هذا القول، والفعل يحدد القرآن الكريم وسيلته وهدفه فالحق تبارك وتعالى يؤكد أن ذكر الله بقراءة القرآن هو الذي تطمئن به النفوس الحيارى فتجد فيه الشفاء من مرضها فتقدم على الحياة فاعلة مغيرة لتبني مجمع الفطرة الذي يليق بالإنسان أن يعيش فيه.

يقول الحق تبارك وتعالى مؤكداً هذه الحقائق **﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين * لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين﴾** [يس الآيات 68، 69] ويقول عز من قائل في سورة ص **﴿ص والقرآن ذي الذكر بل الذين كفروا في عزة وشقاق﴾** [آية 1].

ويقول عز من قائل في سورة الأنبياء **﴿الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون * وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون﴾** [آية 49-50].

فالقرآن إذاً هو الذكر لأنه وحده الذي يذكر الإنسان فيخلق عنده الضابط لسلوكه ليكون في الاتجاه الذي رسمه الحق تبارك وتعالى كما أن ذكر اللّه وحده هو الذي يخلق في الإنسان قوة الرفض للباطل ونزع وهم الخوف ممن هم دون اللّه فيتحول الإنسان إلى قوة فاعلة لتدمر الباطل وأهله وتقيم مجتمع الإسلام مجتمع الفطرة ومن هنا فإن العاجزين والجبناء هم الذين يهجرون القرآن كمحرض على الفعل لأنهم لا يريدون الثورة ويقبلون بالخضوع والاستكانة أو الهروبية وفي كلا الحالين تكون النتيجة ذاتها،يقول تعالى في سورة الإسراء مصوراً هؤلاء **﴿وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولّوا على أدبارهم نفوراً﴾** [الإسراء 46].

إن أية محاولة لتذكير هؤلاء بأن ذكر اللّه لا يكون إلّا بالقرآن قولاً وعملاً وإن هذه الحلقات ليست ذكراً بل هي مكاء وتصدية عن سبيل الجهاد والقتال هي محاولة سيكون مصيرها الرفض والعناد من قبلهم وهذا أمر بديهي أكّده القرآن لأن هؤلاء لا يؤمنون بالآخرة ولو آمنوا بها لعملوا عملها **﴿وإذا ذكر اللّه وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾** [الزمر 42] وهنا نقول إن خطورة هؤلاء لا تكمن فقط في خروجهم هم عن دائرة التأثير بالفعل في تغيير الباطل ورفع الظلم وتحقيق العدل بل إن خطورتهم تكمن في غوايتهم غيرهم عن طريق ابتداع فرق وتسميتها بأسماء ما أنزل اللّه بها من سلطان وكلها ضالة مضلة فاتنة مفتونة لا تفيد سوى أعداء الإسلام الذين يريدون لأهله الضعف والخنوع والاستكانة وعدم الفعل وقد وجد المشعوذون طريقهم إلى هذه الفرق والتي بدأت حلقاتهم تزخر بأولئك الذين يقومون بالحركات البهلوانية والشعوذة حتى يوهموا العامة بأنهم فوق مستوى البشر العادي وأنهم «أصحاب كرامات» فنراهم يتظاهرون بضرب السكاكين وبلع المسامير والزجاج والدخول في النار وهي جميعها حيل لا تنطلي إلا على البسطاء ولا تعمل عليها إلا في جو الخوف والرهبة الذي يجعله هؤلاء في نفوس

المتفرجين فالشعوذة والسحر ليسا فعلاً على وجه الحقيقة ولكنه وهم الحقيقة ولا ينزع قدرة الأشياء على فعل فعلها على وجه الحقيقة إلاّ خالق الأشياء ذاتها ويكون ذلك كمعجزة مثلما نزع اللّه خاصية الإحراق من النار التي ألقي فيها إبراهيم فكانت «برداً وسلاماً» والبرد والسلام على حقيقة النار باعتبارها إحراقاً وهلاكاً.

وقد أوضح اللّه لنا الفرق بين المعجزة الإلٰهية والشعوذة والسحر في قصة موسى مع السحرة يقول تعالى في سورة الأعراف **﴿وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين * قال نعم وإنكم لمن المقربين * قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما ان نكون نحن الملقين * قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤوا بسحر عظيم * وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون * فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون * فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين * وألقي السحرة ساجدين﴾** [112-119].

فالآيات القرآنية توضح موقف الاسترهاب والخوف الذي يعطل قدرة العين البشرية عن تحسس ما يدور حولها ويدخل العقل بذلك مرحلة الوهم فيتعطل دوره على التمييز الصحيح ويصبح الإنسان في وضع المسترهب العاجز حيث يقدم إليه الوهم باعتباره حقيقة وقد وصف الحق تبارك وتعالى عمل السحرة بأنه إفك وباطل.إننا لا ننكر أن شعور الخوف غريزة بشرية ولكن ندرك تماماً أنها تعمل عملها وبقوة إذا خلت نفس الإنسان من روح اللّه فيكبر الصغار في نظره ويتحول وهم الفعل إلى خوارق،أما المؤمنون فهم الذين لا يجعلون للخوف سلطاناً عليهم ولا للوهم مكاناً في قلوبهم فيعودون إلى اللّه كلما اقترب الإحساس بالضعف منهم، يقول تعالى في مقام الحديث عن موسى والسحرة: **﴿فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى * قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً وقد أفلح اليوم من استعلى * قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى * قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى * فأوجس في نفسه خيفة موسى * قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق**

ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ [طه، الآيات 61-68].

إن الفرق واضح بين المعجزة التي هي على وجه الحقيقة ﴿فإذا هي حية تسعى﴾ وبين الوهم والخيال. وهنا نقول الفرق واضح بين وهم المشعوذين والدجالين الذين يدعون أنهم قادرون على ضرب السكاكين والمشي في أتون النار المستعرة وبين الذين يتلقون السكاكين بصدورهم ويدخلون نار المعارك ليصنعوا الحياة ويضعوا نهاية لإبليس وجنده.

درس مستفاد

إن قصة موسى والسحرة يمكن لنا ونحن في إطار التحريض على الفعل الإنساني لتدمير أركان الباطل أن نستلهم منها الدروس والعبر فهؤلاء الحكّام والطغاة وأنصارهم من المشعوذين والسحرة يرهبون الناس ويخيفونهم حتى لا يقوموا بالثورة رفضاً لظلم وانتصاراً لكرامة الإنسان وشرفه ومن هنا فإن وسائل الإعلام التي يمتلكها الطغاة وشرطتهم السرية والعلنية ليست سوى سحرة فرعون. كما أن موسى ليس سوى نموذج الثائر الرافض للظلم وكما قال فرعون وسحرته للناس في محاولة لتضليلهم ﴿قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى﴾.

يقول هؤلاء الطغاة للناس إذا ما تمكنت أجهزتهم من القبض على ثائرين ورافضين إن هؤلاء لا يريدون لكم الأمن وهم يسعون إلى نشر القلاقل والفتن وإنهم ضد الهدوء والاستقرار،فإلى الثائرين في كل مكان نقول: إن دبابات الحكام والأنظمة ووسائل إعلامهم ليست سوى حبال وعصي السحرة لا تلبث أن تظهر على حقيقتها أما الثورة والفعل الإنساني الحقيقي وكم من دبابات مصفحة تحولت إلى ورق وكم من حكام طغاة تحولوا وعروشهم إلى رماد وإن أول شروط الانتصار طرد سلطان الخوف فسلطان الخوف يدخل الرهبة ويمكن للسحر الذي يقلب الحقائق ولا يزول سلطان الخوف من البشر إلاّ إذا ملأ قلب الإنسان الخوف من رب البشر.

أولياء الله والمرابطـون

﴿ألا إن أولياء اللّه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [يونس الآية 62].

أولياء جمع ولي والولي «الصديق، والنصير، ابن الأعرابي: الولي التابع المحب. . والموالاة ضد المعاداة، والولي ضد العدو، ويقال منه تولاه. وقوله عز وجل ﴿فتكون للشيطان ولياً﴾، قال ثعلب: كل من عبد شيئاً دون اللّه فقد اتخذه ولياً. وقوله عز وجل: ﴿اللّه ولي الذين آمنوا﴾، قال أبو إسحـق: اللّه وليهم في حجاجهم وهدايتهم وإقامة البرهان لهم لأنه يزيدهم بإيمانهم هداية، كما قال عز وجل: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾، ووليهم أيضاً في نصرهم على عدوهم وإظهار دينهم على دين مخالفيهم، وقيل: وليهم: أي يتولى ثوابهم ومجازاتهم بحسن أعمالهم»[1].

وفي «قاموس عميد»: «ولاء: محبت، دوستي، قرابت، خويشي // ياري، دوستداري» ملك پادشاهي»[2] (ودوستي // صداقة ـ خويشي // قرابة، نسبة /ياري/ مساعدة، معونة دوستداري/ صداقـة، پادشـاهي/ الملكية ـ التملك).

أمّا المرابط ـ فهو اسم فاعل من رابط يرابط و«الرباط من الخيـل: الخمسة فما فوقها، قال بشير بن أبي حمام العيسى:

وإن الرباط النكد من آل داحِس . . أبين فمـا يفلحن دون رهان

والرباط والمرابطة: ملازمة ثغر العدو، وأصله أن يربط كل واحد من الفريقين خيله، ثم صار لزوم الثغر رباطاً، وربما سميت الخيل أنفسها رباطاً. والرباط: المواظبة على الأمر. قال الفارسي هو ثان من لزوم الثغر، ولزوم الثغر ثان من رباط الخيل. وقوله عز وجل: ﴿وصابروا ورابطوا﴾، قيل: معناه

(1) ابن منظور، المرجع السابق، جزء 15، ص 411.

(2) حسن عميد، المرجع السابق، مجلد 2، ص 1954.

حافظوا، وقيل: واظبوا على مواقيت الصلاة» والرباط في الأصل: الإقامة على جهاد العدو بالحرب، وارتباط الخيل واعدادها»[1].

إن ما دعاني إلى كتابة هذه المقدمة المعجمية لتوضيح معنى أولياء اللّٰه والمرابطين ذلك أن هذين الاسمين **اللذين** وردا في القرآن الكريم قد أسيء استخدامهما وتم استغلالهما لخدمة طوائف الشعوذة والدجل وخاصة تلك المنتشرة في بلدان القارة الافريقية. والتي يطلق أصحابها على أنفسهم المرابطون وعلى رؤساء حلقاتهم أولياء اللّٰه.

فإذا حاولت أن تحاجج أحدهم ذكر لك قوله تعالى **﴿ألا إن أولياء اللّٰه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** وحتى يتم توضيح سفاهة ادعائهم بأنهم المرابطون وأن أقطابهم أولياء اللّٰه دون غيرهم لا بد من ذكر بعض الآيات القرآنية في هذا السياق بعد أن تم توضيح معنى الأولياء والرباط في اللغة.

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة **﴿اللّٰه ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور * والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾** [256] ويقول عز من قائل في سورة التوبة **﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون اللّٰه ورسوله أولئك سيرحمهم اللّٰه إن الله عزيز حكيم﴾** [72] ويقول تعالى في سورة المائدة واصفا أولياء الله وحزبه **﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون * ومن يتول اللّٰه ورسوله والذين آمنوا فإن حزب اللّٰه هم الغالبون﴾** [57-58] وفي سورة يونس **﴿ألا إن أولياء اللّٰه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات اللّٰه ذلك هو الفوز العظيم﴾**[62-64].

إذاً فهذه الآيات تتحدث عن أولياء اللّٰه المؤمنين جميعاً دون تخصص لنفر معين دون غيره فالذين يؤمنون باللّٰه ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون

(1) ابن منظور، المرجع السابق، جزء 17، ص 302.

هؤلاء هم أولياء اللّه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وأولياء اللّه الذين ذكر اللّه صفاتهم يقفون في مواجهة صف آخر هم أولياء الشيطان الذين تناولهم القرآن في أكثر من آية،يقول تعالى في سورة الأعراف **﴿. . . إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون * وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا واللّه أمرنا بها قل إن اللّه لا يأمر بالفحشاء أتقولون على اللّه ما لا تعلمون﴾** [27-26] ويقول تعالى في سورة آل عمران **﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾** [175].

فكما أن للّه أولياء فللشيطـان أولياء والناس في هذه الحياة الدنيا إما أن يكونوا من أولياء اللّه وهم الذين تتوفر فيه صفات الإيمان التي تناولتها الآيات الكريمة أو يكونوا في الصف المعادي للّه ورسوله والذين آمنوا وهم أولياء الشيطان.

ومن هنا فإن ادعاء طائفة أن فلاناً ولي اللّه مخصصين إيّاه بالولاية دون المؤمنين هو ظلم واعتداء على بقية المؤمنين في الاتصاف بهذه الصفة العظيمة وقبول الإنسان القول أن فلان فقط هو ولي اللّه كأنه يقبل بذلك أن يكون في الصف الآخر إذ لا وسط في هذه الحال فأما أن يكون الإنسان ولياً للّه أو ولياً للشيطان ومن هنا فإن المؤمنين جميعاً أولياء اللّه واللّه وليهم وناصرهم والكفار جميعاً أولياء الشيطان فهو وليهم وخاذلهم والمؤمنون جميعاً مطالبون بمقاتلة أولياء الشيطان **﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل اللّه والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾** [النساء 75].

من هم المرابطون؟

ظهـرت حركـة المرابـطة على الثغور كنتـاج للصـراع بين المسلمين والصليبيين وأصبح الجندي المسلم المرابط رمزاً للمجاهد المتفرغ للعبادة وحراسة حدود الإسلام وصد أعدائه إذاً فالمرابط هو الذي يباشر المرابطة والاستعداد للدفاع عن حياض الإسلام والمرابطة بذلك من المهام الخطيرة والصعبة التي تفرغ لها نفر من الذين صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه. إلا أنه وكما

هو معلوم في كل عصر ومكان توجد دائماً طائفة من الهامشيين الكسالى الذين يبحثون فقط عن الألقاب والمظاهر ويتشبهون بالمؤمنين الصادقين حيث ظهر ولا يزال في بعض بقاع الإسلام نفر يطلقون عن أنفسهم «المرابطون» مع العلم أنهم لا يعرفون الرباط ولم يقوموا يوماً بالمرابطة وهم جملة من التافهين الذين يعيشون على هامش الحياة لا عمل لهم ويعيشون عالة على الآخرين بل ويقومون عن طريق الشعوذة والدجل بسلب أموال السذج والبسطاء.

والغريب في الأمر أن كثيرين يطلقون على هؤلاء لقب المرابطة وأهلها، يقول تعالى في سورة آل عمران **﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾** [آية 200].

وفي مجال الإعداد والاستعداد للقاء الأعداء من الكفار يقول تعالى في سورة الأنفال **﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾** إن المتدبر لهاتين الآيتين الكريمتين يمكنه أن يدرك ببساطة مدى ادعاء وتخرص هؤلاء النفر وكذبهم على الله والمؤمنين بادعائهم عملاً لم يقوموا به أنهم يقومون به. إن الواجب يقتضي مواجهة هذه الفرق الضالة وإرغامها على الكف عن الدجل والانتحال. إن الذين يستحقون لقب المرابط[1] هذا اللقب **الجهادي** العظيم هم أولئك الجنود والضباط الشجعان الذين يحرسون ثغور بلاد الإسلام «إن وجدوا» فأولئك هم المرابطون حقاً. أما هذه الفئة فإن من الواجب إرغامها على التدريب على السلاح وإرسالها إلى الحدود لترابط هناك إذا أرادت الاحتفاظ باللقب أو إدخالها السجون بتهمة انتحال الشخصية وهي جريمة تعاقب عليها جميع القوانين!!

(1) المرابطون هنا غير دولة المرابطين المعروفة في تاريخ مراكش.

معجزات مؤقتة ومعجزة مستمرة

﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلّا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلّا تخويفاً * وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلّا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلّا طغياناً كبيراً﴾ [الإسراء 60:59].

شاءت الحكمة الإلٰهية أن يكون القرآن شريعة بها اكتمل البناء الإسلامي الأزلي الأبدي وأن تكون هذه الشريعة بحكم هذه المكانة مهيمنة على بقية الشرائع ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل اللّٰه ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء اللّٰه لجعلكم أمّة واحدة ولكن ليبلوكم في ما ءاتاكم فاستبقوا الخيرات إلى اللّٰه مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ [المائدة 50]، ومهيمن في الدلالة اللغوية «الشاهد»، وهو من آمن غيره من الخوف، وأصله أمن من مؤامن، بهمزتين، قلبت الهمزة الثانية ياء كراهة اجتماعهما فصارت مؤيمن، ثم صارت الأولى هاء كما قالوا: هراق وأراق، وقال بعضهم، مهيمن معنى مؤيمن، وكما قالوا إيّاك وهياك، قال الأزهري: وهذا على قياس العربية صحيح مع ما جاء في التفسير أنه بمعنى الأمين. . . وأورد الجوهري لفظة مهيمن بمعنى الشاهد قول العباس بن عبد المطلب رضي اللّٰه

عنه في مدح الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم:

حتى احتوى بيتك المهيمن من خندف علياء تحتها النطق

أي بيتك الشاهد بشرفك. وقد أورد الجوهري المهيمن خمس دلالات لا تكاد تخرج عن الدلالة الأصلية بمعنى الاشراف رأيت أن **أذكرها يقول**: «وفي المهيمن خمسة أقوال: قال ابن عباس المهيمن المؤتمن، وقال الكسائي: المهيمن: الشهيد، وقال غيره هو الرقيب، يقال هيمن يهيمن هيمنة إذا كان رقيباً على الشيء، وقال أبو معشر «ومهيمناً عليه» معناه وقَبّاناً عليه وقيل، وقائماً على الكتب، وقيل مهيمن في الأصل مؤيمن، وهو مفيعل من الأمانة وفي حديث وُهَيْب: إذا وقع العبد في أُلْهَانِيّة الرب ومهيمينية الصديقين لم يجد أحداً يأخذ بلقبه، المهيمنية، منسوب إلى المهيمن، يريد أمانة الصديقين، يعني إذا حصل العبد على هذه الدرجة لم يعجبه أحد، ولم يحبّ إلاّ اللّه عزّ وجل»[1].

وسواء أكان المهيمن بمعنى الأمانة أو الإشراف أو الرقابة والميزان فهذه كلها لا تكون إلاّ لأن القرآن احتوى الكل بحيث أصبح شاهداً على كل الشرائع السابقة ومعياراً لصدق الأحكام التي يقول أتباعها إنها منها وميزاناً يقاس به ما جاء من عند اللّه وما حرّفه البشر وادعوا كذباً وبهتاناً أنه من اللّه.

وقد وردت هذه الآية في سورة الإسراء في مجال الحديث عن الأحكام التشريعية في التوراة التي حاول اليهود أن يحرفوها فجاء القرآن يؤكد هذه الأحكام ليكون شاهداً ودليلاً يظهر كذب اليهود وتحريفهم.

وقد رأيت أن أوضح مكانة شريعة القرآن الإسلامية من الشرائع الأخرى لأن هذه الهيمنة لا بد وأن تكون شاملة كاملة ليس فقط في مجال الأحكام والتشريع بل وكذلك في مجال الإعجاز والتحدي.

لقد شاء اللّه أن تكون للرسل السابقين معجزات مادية مؤقتة تعمل وفق ظروف محدودية المكان والزمان بحكم محدودية الشريعة **مكاناً** وزماناً وكانت هذه المعجزات دليل صدق الرسل والأنبياء بمقتضى هذا الدليل المعجز في

(1) ابن منظور، المرجع السابق، جـ 13، ص 346-347، دار صادر، بيروت.

عصر كان موضوع الإعجاز فيه معروفاً بحيث يتجاوز الإعجاز الإلهي مستوى ما تعارف عليه البشر ليدرك البشر أن ما جاء به الرسل صدقاً وحقاً ويقبلون على ما بعد المعجزة وهو الإيمان بصدق رسالة الرسول ثم الإيمان بالله وتنفيذ شريعته وأحكامه.

إذاً فالمعجزة كانت مادية ومحدودة، ووسيلة لغاية يتجاوز الجانب المادي في المعجزة إلى الجانب التعقلي الذي يقود إلى الإيمان بالغيب والذي هو غير متعقل بل يقبله الإنسان بقبول المتعقل الذي هو في مقدوره وفي حدود بشريته.

وكون المعجزة مادية لأن أكثر الناس لا يعقلون فتكون المعجزة مجالاً للتعقل والإيمان وقد رأينا كيف أن معجزة موسى كانت تحدياً وكان أول من آمن بموسى السحرة باعتبارهم أهل علم بالسحر أدركوا بمقتضى علمهم بفنون السحر أن ما جاء به موسى ليس سحراً.

وما يقال عن معجزة موسى يقال عن معجزة عيسى. غير أن المعجزة القرآنية شكلاً وجوهراً وهدفاً تعود إلى منهج عظيم.

يمكن لنا أن نطلق عليه مطمئنين المنهج القرآني في الإيمان هذا علاوة على أن هذا المنهج نستطيع من خلاله أن نرد على مناهج الماديين والعقليين والروحيين باعتبارها مناهج جزئية لا يمكن أن تعود إلى معرفة الحقيقة التي هي وسيلة الإيمان الفاعل، والفعل المؤمن.

فالشريعة القرآنية بحكم أنها مهيمنة لا يمكن أن يكون أسلوبها الإعجازي محدوداً مكاناً وزماناً شأنها شأن الشرائع السابقة في الوقت الذي لا يمكن أن تكون بدعاً منها بمعنى أنها وإن لم تحـو معجزات مادية مؤقتة فإنها في منهجها كانت تبدأ دائماً بالآيات المادية المحسوسة وصولاً إلى التعقل والإيمان وقبل أن أوضح هذه الحقيقة لا بد من الإشارة إلى أن بعض الجاهلين بحقيقة الإعجاز القرآني من المسلمين وبتأثير الثقافات المتسربة من الشرائع القديمة وبحكم أن أكثرهم لا يعقلون حاولوا أن يجعلوا للرسول صلّى الله عليه وسلّم معجزات مادية مؤقتة شأنه شأن بقية الرسل السابقين عليهم صلوات الله وسلامه فقالوا بأن

نار الزرادشتية في فارس انطفأت، وإن إيوان كسرى اهتزت أركانه، وأن الرسول الكريم ولد مختوناً وأنه في طفولته شق صدره وأخرج قلبه ثم نظف وأعيد إلى مكانه. . !. . !

وأنا لا يهمني في هذا الموضع رفض هذه الروايات أو تأكيدها إذ لا قيمة لهذا الرفض أو التأكيد من ناحية الإعجاز القرآني فلا يقدم هذا ولا يؤخر. والمؤمنون بشريعة القرآن لا يعنيهم هذا في قليل أو كثير لأنهم وإن كانوا يعلمون أن هذا ليس مستحيلاً على اللّه تعالى إلا أنهم يؤمنون أن مشيئة اللّه هي التي لم تجعل معجزة الرسول الخاتمة كمعجزة من سبقه بحكم الهيمنة والشمول وهذا ما تؤكده الآيات التي ذكرتها في صدر هذه النظرة من سورة الإسراء.

إن معجزة القرآن هي في ضرب الأدلة والشواهد من الإنسان ذاته والكون الذي حوله والتي هي دلائل معجزة على وجود اللّه ودلائل ثابتة ومستمرة استمرار البشرِ هدفِ هذه الرسالة وقد جاءت عدة آيات في القرآن توجه الإنسان إلى هذه الآيات في السماء والأرض، والإنسان الذي أصبح ذاته موضوعاً للمعجزة وليصبح ما حوله وما فوقه من كواكب ونجوم وسماوات مدعاة للتعقل الذي يقود إلى الإيمان وبالتالي كانت معجزة الرسول في الوصول إلى الحقيقة هو تقديم المعرفة الصحيحة التي تقود إلى الإيمان بالغيب بعد تعقل الذي هو دون العقل. إنه نهج إبراهيم عليه السلام في الوصول إلى الحقيقة يقدمه القرآن مباشرة نعمة من اللّه تعالى تيسيراً على الإنسان حتى لا يخوض في متاهة الوصول إليها وربما لا يصل بحكم قصوره، وكم من البشر في إيمان إبراهيم وحبه للحقيقة وإصراره على الوصول إليها بتوفيق من ربّه. . !. . !.

وهنا أعود فأقول إن معجزة القرآن الخالدة التي أطفأت نار فارس ودمرت عرش كسرى وقيصر هي هذا الإيمان الذي حوّل الضعف قوة والشك يقيناً فإذا القلة كثرة بالإيمان وإذا المستضعفون في الأرض أئمة ووارثين وهذا وذاك ما كان بفعل بلا إيمان يقود إلى الطغيان المدمر ولا إيمان بلا فعل فيكون عجزاً ممقوتاً ولكن كان بإيمان فاعل وفعل مؤمن.

لقد ربط القرآن الكريم في أكثر من آية بين المنهج الذي يدعو إلى اتباعه

ونهج إبراهيم عليه السلام الذي وصفه بأنه «الملة الحنيفة» المسلمة، والتي اشترط اللّه لها أن تبدأ من قاعدة البحث عن الحقيقة على أساس التسليم والانقياد والإيمان **﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه للّه وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ اللّه إبراهيم خليلاً﴾** [النساء 124].

ملة إبراهيم حنيفاً

إذاً ما هي ملة إبراهيم التي أمر اللّه رسوله الكريم أن يتبعها؟ **﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم وما كان من المشركين﴾** [النمل 123].

يقول الحق تبارك وتعالى في توضيح المنهج الإسلامي في الوصول إلى الحقيقة الذي اتبعه إبراهيم وهو نفس المنهج الذي يقدمه القرآن إلى البشرية باعتباره خاتمة الرسائل والمهيمن عليها والمتجاوز باعتبار الحقيقة الأبدية والأزلية محدودية المكان والزمان.

يقول تعالى في سورة الأنعام **﴿وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون * قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير * وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين * وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين * فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين * فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون * إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين * وحاجه قومه قال أتحاجوني في اللّه وقد هداني ولا أخاف ما تشركون به إلّا أن يشاء ربي وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون﴾** [73 _ 81].

فالآيات القرآنية الكريمة وضحت لنا هذه الملة الحنيفة والمنهج الإبراهيمي في الوصول إلى حقيقة الإيمان فقد بدأ إبراهيم بداية إيمانية قوامها البحث عن تأكيد الإيمان إلى حقيقة الإيمان فقد بدأ إبراهيم بداية إيمانية قوامها

البحث عن تأكيد الإيمان وهي القاعدة العامة التي أشار إليها تعالى في سورة النساء ﴿أسلم وجهه للّه وهو محسن﴾ أي صادقاً في البحث وقد بدأ إبراهيم مرحلة الوصول إلى معرفة الحقيقة باستنكار عبادة الأصنام التي يصنعها أبوه وقومه بأيديهم ثم يتخذونها آلهة حيث اعتبر إبراهيم هذا السلوك دليل ضلال ظاهر إذ كيف يكون الذي يصنعه الإنسان وهو دونه إلٰهاً يعبده، فالصانع أكبر من المصنوع وأقوى! ثم تشاء الإرادة الإلٰهية أن «يرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض» والإرائة هنا إرائة متعقلة لا إرائة مادية شأن البشر الآخرين الذين ينظرون كل يوم إلى السمـوات والأرض ولا تحرك فيه سؤالاً ولا تبعث فيهم نزعة إلى التأمل.

وهذه الإرائة هي حكمة من اللّه تعالى ليكون من الموقنين ثم يوضح الحق تبارك وتعالى تلهف إبراهيم في الوصول إلى معرفة اللّه فهو يسعى دائماً إلى الأكبر الدائم ولأن الكوكب قد أفل فقد اتجه إلى القمر ولأن القمر أصغر من الشمس فقد اتجه إلى الشمس لأنها أكبر وأخيراً أدرك خطل المعادلة فترك الجميع إلى الأكبر الدائم حيث قد صرخ نداء الإيمان في عقله وقلبه ﴿لا أحب الآفلين﴾.

إنه وهو ينتقل بحثاً عن المطلق الأكبر والدائم كان يؤكد إيمانه باللّه إذ يلتمس منه وقد عجز عن الهداية ﴿لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين﴾

ثم يحوله الإيمان وقد أدرك أن اللّه فوق هذه الظواهر جميعاً وهو خالقها إلى متحد رافض للكفر وأهله حيث نزع الإيمان باللّه خوفه من البشر فلم يعد للخوف منهم في قلبه مكاناً وقد ملأ قلبه خوف الخالق للبشر ﴿ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون﴾.

فهذه هي إذن ملة إبراهيم المؤمن الباحث عن الحقيقة بهدى اللّه الثائر الرافض للكفر وجنده المدمر للأصنام بالفعل المؤمن وهو نفسه المنهج الذي يؤكده القرآن باعتبار إبراهيم الأسوة الحسنة والملة الحنيفة التي تقود إلى اللّه. ومن هنا لم تكن حاجة الرسول الكريم إلى معجزات مؤقتة وقد امتلك بالقرآن

المعجزة الأزلية الأبدية ولم يكن في حاجة إلى عصا تتحول إلى أفعى وقد امتلك بالقرآن آيات لا تنقطع عن الإعجاز والتحدي وتبقى مهمة الرسول التذكير بها إن نفعت الذكرى.

إسـراء ولا معـــراج

﴿وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي أرينـاك إلا فتنة للنـاس والشجـرة الملعونة في القـرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً﴾ [الاسراء: 60].

تناولت سورة الإسراء الكريمة قصة إسراء الرسول ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله **﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾** [الإسراء: 1].

وقد تناولت هذه السورة قصة الإسراء بداية ونهاية وأوضحت الحكمة منه ولكن لأن قصة الإسراء هذه قـد ارتبطت بالرؤيا التي أراها الله رسوله الكريم ليلة أسري به والرؤيا هنا قلبية وليست بصرية فهي رؤيا وليس «رؤية» فقد كانت هذه الرؤيا فتنة فتن بها الكثيرون فأضافوا إليها من نسج خيالهم قصصاً تقول أن الرسول قد عرج به إلى السموات العلى جسداً وأنه رأى مناظر وصور لا نجد لها شبيهاً إلا في قصص الاسرائيليات المحرفة.

إن القرآن الكريم في سورة الإسراء ينفي صراحة قصة المعراج المادي هذه لأنها لا تلائم إلا عقول الكافرين المعاندين الذين لا يكتفون بما في القرآن من ادلـة فيبحثون عن أدلة يقبل بها خيالهم المريض بالوثنية يقول تعالى: **﴿ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً * وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلاّ بشراً رسولاً﴾** [الآيات: 89-93].

فالرسول بحكم كونه بشراً رسولاً لا يجوز له أن يفعل كل هذا بما في ذلك أن يرقى إلى السماء وإن كان هذا كله على الله أمراً يسيراً ولكن حكمة الله أن يكون خاتم الرسل يؤكد هذه البشرية كما يؤكد مشيئة الله بأن تكون رسالة الإسلام القرآنية دائمة صالحة ما بقي الإنسان على الأرض. **﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً﴾** [الإسراء: 59].

لقد أكد الله حقيقة الرؤيا القلبية للرسول الكريم في سورة النجم حيث يقول الحق تبارك وتعالى: **﴿والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى * علمه شديد القوى * ذو مرة فاستوى * وهو بالأفق الأعلى * ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ما أوحى * ما كذب الفؤاد ما رأى * أفتمارونه على ما يرى * ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى * إذ يغشى السدرة ما يغشى * ما زاغ البصر وما طغى * لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾** [النجم: 1 - 17].

فهذه الآيات القرآنية الكريمة تؤكد صدق الرؤيا التي تحدث الرسول عنها فالرسول ما ينطق عن الهوى إذ أن القرآن الكريم هو وحي من عند الله تعالى الذي استوى على العرش.

والضمائر في قوله تعالى: **﴿وهو بالأفق الأعلى.ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى.فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾** كلها تعود على الحق تبارك وتعالى وهي على سبيل المجاز فالأفق الأعلى دليل على القدرة الإلّهية والتدلي وإن كان من معانيه النزول من أعلى إلى أسفل «هو كذلك على وجه المجاز لا الحقيقة فالرسول كان على الأرض عندما شاءت حكمة الله أن تقرب إليه بحكم بشريته الحقائق الإلّهية حيث عبر القرآن عن هذا «التقريب بالتدلي» ولأن الرسول بشر فبحكم هذه البشرية لا يمكن له أن يدرك هذه الحقائق إلا إدراكاً عقلياً فحواسه البشرية أعجز من أن تدرك ما فوق قدرة البشر إدراكه **﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾**.

فالفؤاد الذي أراه الله الحقيقة جعله للعين يقيناً ﴿**ما زاغ البصر وما طغى**﴾ إن فهم حقيقة الإسراء والرؤيا من خلال القرآن دونما تأويل أو تمحل والوقوف هو الذي يمنع عوسج الفتنة من أن يقترب من حديقة الإيمان ويظل الذين يخوضون في يم الشك ولجج الكفر فهم الذين يريدونه أن يكون رسولاً ملكاً لا رسولاً بشراً.

﴿**ربنا لا** تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت **الوهاب**﴾.

القرآن والتعقل

الملك الذي لا يفنى والخلد، القوة والعظمة والديمومة والاستمرار هما سبب شقاء الإنسان الجاهل لحقيقته، وتظل الشجرة الملعونة التي ذكرها اللّه في القرآن رمزاً لمعرفة القوة التي يسعى الإنسان دوماً إلى امتلاكها وكلما اعتقد الإنسان أنه يصعد بالقوة يجد أنها تهبط به إلى ما هو أدنى وأسفل. وهذا الوسواس القلق الدائم الذي ينغص على الإنسان عيشه ويدفعه دفعاً إلى هذه الشجرة اللعينة **التي** هي قدر الإِنسان على ما يبدو منذ بدء الخلق **وإلى أن يرث الله** الأرض وما عليها **﴿فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾** [طه ـ 117] **الخلد**. والملك الذي لا يبلى غاية وهدف الإنسان لا تنقطع إلا إذا عاد إلى نفسه وأدرك حدود بشريته **﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون﴾** [الأنبياء الآية 34].

إن هبوط إبليس الدائم وهبوط آدم إلى الأرض هما رمزان سيظلان دائمين لكل من يحاول أن يتجاوز معتدياً حدوده وأن يجهل عناداً حقيقة ذاته. وإذا كان آدم وإبليس قد هبطا يدفعهما الغرور وحب الخلود والقوة فإن إبراهيم العارف لنفسه قد سما وارتفع في المقابل وهو ينطق من قاعدة الإيمان باحثاً عن الخلود والكبر والعظمة لا لنفسه بل لربه وكان وهو يلفظ كل صغير زائل باحثاً عن الأكبر الدائم، يسمو عن درك الآدمية المحدودة إلى مستوى الإنسانية الكاملة فكان بذلك وحده «أمة»، واستحق بمعاناته وانتصاره على عقدة الخلود والملك

البشري بأصباغها على رب البشر أن يكون قدوة وأسوة فيكتب له الخلود المعنوي.

إن معرفة الإنسان لما سواه تبدأ من معرفته بنفسه ومن هنا كانت مشكلة المعرفة هذه مشكلة المشاكل وتظل الشجرة الملعونة رمزاً دائماً كما ذكرت يستحث الإنسان إلى أن يعرف.. ويعرف،فإذا أدرك الإنسان حدود المعرفة فقد وصل إلى المعرفة الكبرى وهي معرفته ذاته أما إذا جهلها وحاول أن يتجاوزها هبوطاً أو صعوداً فإن النتيجة المنتظرة دائماً هي الهبوط والهبوط المزري.

لقد ذكرت في نظرة سابقة مأساة المدرسة الروحية التي أوصلت الإنسان من خلال منهجها إلى مرحلة الهروبية والعجز وكان سبب ما وصلت إليه جهلها بحقيقة الإنسانية وحدود معرفتها. والمأساة التي وصلت إليها المدرسة المادية التي حولت الإنسان إلى ما هو دون الإنسان فهبطت به وهي تعتقد أنها قد أحاطت بكل شيء علماً. والعقل هو الآخر بدل أن يكون وسيلة الإنسان للتمييز حتى يتمكن من الاختيار والفعل تحول هو الآخر إلى صنم اعتقد أصحابه أن في مقدورهم أن يعرفوا به كل شيء.

وقبل أن أحلل هذه النظرة التي رأيت من خلالها أن أوضح «موقع التعقل» في عملية الاختبار والفعل كما يحددها القرآن استعرض الدلالة اللغوية للعقل وعلاقتها بالوظيفة الحقيقية للعقل بقول ابن منظور «العقل الحجر والنهي ضد الحمق، والجمع عقول.. وعقل، فهو عاقل وعقول من قوم عقلاء، ابن الأنباري: رجل عاقل وهو الجامع لأمره ورأيه، مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه، وقيل العاقل الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها أخذاً من قولهم: قد اعتقل لسانه إذا حبس ومنع الكلام.. والعقل التثبت في الأمور. والعقل القلب، والقلب العقل، وسمي العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك ويحبسه، وقيل العقل هو التمييز الذي يتميز به الإنسان من سائر الحيوانات، ويقال: لفلان قلب عقول، ولسان مسؤول،وقلب عقول: فهم، وعقل الشيء يعقله عقلاً: فهمه.. واعتقل: حبس. وعقله عن حاجته يعقله وعقله واعتقله: حبسه. وعقل البعير يعقله عقلاً واعتقله: ثنى وظيفه مع ذراعه

وشدهما جميعاً في وسط الذراع وكذلك الناقة، وذلك الحبل هو العقال، والجمع عقل. وعقلت البعير من العقل، شدد للكثرة. وقال بقيلة وكنيته أبو المنهال:

يعقلهن جعد شيظمي وبئس معقل الذود الظوار

والعقل الدية، وعقل القتيل يعقله: وداه، وعقل عنه: أدى جنايته، وذلك إذا لزمته دية فأعطاها عنه، وعقل الوعل أي امتنع في الجبل العالي يعقل عقولاً وبه سمي الوعل عاقلاً على حد التسمية بالصفة، وعقل الظبي يعقل عقلاً وعقولاً: صعد وامتنع، ومنه المعقل والملجأ» من خلال هذا العرض نلاحظ أن الدلالة اللغوية التي يقدمها لفظ عقل تعني «الثبات والتوقف» عامة ويمكن لنا أن نخرج على أساسها الأمثلة التي وردت فعقل الوعل «يعني أن الوعل بصعوده أعلى الجبل يكون قد أوقف وحبس طالبه عن الوصول إليه وكذلك العقل بمعنى الدية لا يخرج عن هذا المعنى في رأينا فالدية هي التي تعقل المشاكل وتوقف الأمر عند حده فلا يستفحل.. ويكون العقل بهذا تلك العملية من التأمّل والتفكر والتوقف والثبات التي يحتاج إليها الإنسان وصولاً إلى التمييز الذي يسبق عملية الاختيار فالفعل. ومن هنا نقول إن عملية التعقل والتمييز والاختيار والفعل كلها مظاهر إنسانية.

وتجدر الإشارة هنا إلى ملاحظة هامة وهي العلاقة بين التعقل والحبس والتوقف التي تعطيها الدلالة اللغوية للمرحلة التي تسبق التمييز وبين ما تم التعارف عليه في نظريات التفكير الفلسفي «بالديمومة» والتي هي خلاف «الصيرورة» والتحول قد تبنى أصحاب المدرسة العقلية مبدأ الثبات وفي المقابل تبنى خصومهم الماديّون مبدأ الصيرورة والتحول. ونرى من الطريف في هذا المقام أن نذكر بما قلناه في أول ـ هذا المبحث من حديث حول نظرية المثل التي قال بها الفيلسوف اليوناني الشهير أفلاطون الذي يعتبر رائداً من رواد مدرسة العقل. فقد جاء أفلاطون في الفترة التي **كان فيها** السوفسطائيّون

---

(1) ابن منظور، المرجع السابق، مجلد 11، ص 458-465 دار صادر، بيروت لبنان.

الحسيّون ينادون بمبدأ النسبية والتحول والصيرورة هذا المبدأ الذي دفعهم إلى القول بعدم ثبات ونسبية كل شيء حتى القيم. وقد عاش أفلاطون النهاية المفجعة لأستاذه سقراط الذي آثر تجرع السم انتصاراً لمبدأ الثبات وكمحاولة إخلاص لمبدأ أستاذه وثأراً انصبت محاولاته على تأكيد أن الأصل هو الثبات والديمومة وأن المتغيرات التي نراها في عالم الحس ليس حقيقة ولكنها ظلال الحقيقة أو وهم لها فالحقيقة في عالم المثل وحتى يقدم مثالاً مرياً على هذا المذهب غير المرئي جاء بمثال الكهف ليوضح العلاقة بين الحقيقة والوهم إن الوصول إلى الحقيقة ليس أمراً سهلاً وفي مقدور كل إنسان أن يصل إليه فالفلاسفة وحدهم فقط الذين يستطيعون عن طريق الجدل الصاعد والهابط أن يدركوها.

ونعود إلى القول أن مشكلة التفكير الإنساني هي مشكلة الجزء الذي يحاول كل أن يعممه ليصبح كلاً هذه المشكلة أصابت المعرفة الإنسانية في الصميم ولا تزال. فالجزئية المادية من الحقيقة حاول الماديّون أن يجعلوها كل الحقيقة وأن يفسروا كل شيء على أساسها فكان معرفة جزئية مادية وقيماً وتحليلاً مادياً تتوالى هزائمه كل يوم ويثبت عجزه مع كل شارق حتى عن إدراك المادة ذاتها، والمدرسة العقلية هي الأخرى أعطت للعقل مهمة أكثر من حدوده فوقعت في وهم إدراك الحقيقة بحيث تحول العقل عند هؤلاء كما ذكرت إلى صنم يعبد ارتفعت صيحات الكثير من المفكرين مطالبة بتحطيمه وتدمير سلطانه. إن المنهج القرآني بحكم شموليته جاء منقذاً للإنسان من التردي في متاهات الوهم ليعطي لكل جزء من الحقيقة حقها ولكل قطعة من فسيفساء الشخصية الإنسانية موقعها لتكتمل الصورة الإنسانية متكاملة مشرقة مستوية تكاملاً واستواء إنسانياً.

فالقرآن الكريم على الرغم من تأكيده على أهمية الحواس باعتبارها منة وفضلاً أنعم اللّه بها على الإنسان إلا أنه لا يعطي هذه الحواس أكثر من وظيفتها الحسية الإنسانية ويؤكد القرآن في الوقت ذاته أن المدركات الحسيّة ليست هدفاً في ذاتها بل وسيلة إلى التأمل فيها والتعقل أي تجاوز المدرك الحسي إلى ما

فوقه يقول الحق تبارك وتعالى في تبيان فضل اللّه على البشر بمنحهم خصيصة الإدراك الحسي ﴿**وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون**﴾ [المؤمنون 79] وفي سورة السجدة يقول عز من قائل ﴿**ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم * الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين * ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون**﴾ [الآيات 5 ـ 8].

والحواس التي يشير اللّه تعالى إليها كنعمة أنعم بها تعالى على الإنسان لا تؤدي وظيفة حسية مادية فقط شأنها شأن الحواس التي وهبها اللّه المخلوقات الأدنى بل لتؤدي وظيفة أسمى تليق بالإنسان الذي خلقه اللّه وسواه ونفخ فيه من روحه ففي سورة الملك يوضح اللّه سبحانه وتعالى في أسلوب تصويري مقارنة بين الحواس الإنسانية التي تقود إلى الاستواء والحواس الحيوانية التي تؤدي وظيفة الحس فتظل متصلة بالأدنى فإذا لم يستخدم الإنسان حواسه استخداماً إنسانياً فإن النتيجة أن يتحول إلى الأدنى حكماً وإن كان مستوياً شكلاً ﴿**أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم * قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون**﴾ [الملك الآيتان 22 ـ 23].

والربط بين استخدام الحواس والتعقل يؤكده تعالى في سورة الملك على لسان الكفار وقد أدركوا النهاية المؤلمة التي أوصلوا أنفسهم إليها بابتعادهم عن الاستفادة من نعمة الحواس واستخدامها استخداماً إنسانياً يقود إلى التأمّل والتعقل والإيمان ﴿**وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير * فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير**﴾ [الملك 10-11].

وقد اعتبر اللّه سبحانه وتعالى شر الدواب تلك التي لا تسمع ولا تعقل فالإنسان الذي لا يسمع سمعاً إنسانياً ولا يعقل يدخل ضمن هذه الطائفة ﴿**إن شر الدواب عند اللّه الصم البكم الذين لا يعقلون**﴾ [الأنفال 22].

بل وضع القرآن هذه الطائفة التي لا تسمع ولا تعقل في عداد الموتى لأنهم بتعطيلهم جواسهم عن الإدراك وعقولهم عن التدبّر يكونون عاجزين عن

القيام بالفعل الذي يقتضي الحركة والذي هو مظهر الحياة ﴿إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين * وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إنْ تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ [النمل - الآيتان 82 - 83].

إن القرآن بتذكيره بنعمة الحواس يؤكد على أهمية الموجودات المادية التي يمكن إدراكها بهذه الحواس ليست كحقيقة في ذاتها كما يرى الماديّون ولكن ربما تكون مظهراً لها أو جانباً محسوساً لها لا بد من تعقله وصولاً إلى الأبعد من مستواها المادي المحسوس ومن هنا اقتضت مشيئة اللّه أن تكون معجزة الأنبياء السابقين معجزة مادية ليست غاية في ذاتها ولكن وسيلة إلى التعقل والتدبّر والإيمان بوجود اللّه المعجز للإنسان والذي يوجب بذلك على الإنسان أن يؤدي له واجب العبادة والطاعة وهنا نقول في مجال الحديث عن المعجزات إن شريعة القرآن الكريم باعتبارها خاتمة الشرائع، ورسولها الكريم باعتباره للناس كافة بشيراً ونذيراً لا يمكن أن تكون معجزته محدودة المكان والزمان شأنها شأن الرسالات السابقة المحدودة زماناً ومكاناً بل لا بد وأن تكون معجزته متميزة بالديمومة ومستمرة استمرار الإنسان على الأرض وبالتالي جاءت الآيات القرآنية تذكر الإنسانية بجملة من المظاهر الكونية ابتداء بذاته كي يعرفها فالكون الذي حولها، وصولاً إلى التعقل والإيمان باللّه. وجاءت مهمة الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم مهمة تذكير للناس وحفز لهم على استخدام حواسهم استخداماً يليق بهم كبشر كرمهم اللّه تعالى ومن هنا يكون المنهج القرآني بحكم الشمولية في الأحكام والشمولية في دعوة الناس جميعاً منهجاً شاملاً في معجزاته ومنهجاً شاملاً في التدرج بالإنسان إلى مرحلة المعرفة بالغيب وليس العلم به لأن العلم بالغيب هي من خصوصيات اللّه سبحانه وتعالى والمعرفة بالغيب الإيمان به.

يقول تعالى في سورة البقرة ﴿ألمّ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون * إن الذين كفروا سواء عليهم

أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم اللّه على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾ [1، 6].

إن القرآن الكريم ينبه الناس كافة إلى مظاهر الكون الحسية ويدعوهم إلى تأملها وتعقلها ﴿**إن في خلق السموات والأرض واختلاف االيل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل اللّه من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخرِبين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون**﴾ [الآية 163] وفي سورة الرعد ﴿**وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون**﴾ [آية 4]. هذه الآيات التي ذكرتها على سبيل المثال وغيرها كثير توضح لنا أن القرآن الكريم يعطي أهمية كبيرة لاستخدام الحواس استخداماً إنسانياً في التأمّل في آيات اللّه لأن هذا الاستخدام يقوده إلى التعقّل فالإيمان باللّه وذلك بخلاف الاستخدام الحسي الحيواني الذي لا يقود إلى ذلك بل يقود إلى إدراك حسي يقف عند حدود الفعل الغريزي لما يدرك وليس الفعل الإرادي المتعقل الذي هو تأكيد لإنسانية الإنسان وكرامته.

ومن هنا فإن المنهج القرآني وهو يقدم المعرفة يقدمها تقديماً إنسانياً لا يهبط ليكون مادياً حيوانياً ولا يجمح ليصل إلى وهم الحقيقة بل يدرك الأشياء فيتأملها ويتعقل المتأمل فيميزه ويختار المميز فيفعله وهو منهج نقول مطمئنين إنه تجاوز جزئيات المدارس المادية والعقلية كما أن هذا المنهج هو نفسه الذي يوقف الإنسان عند حدود مداركه الإنسانية فقط التي حدودها هذه الأشياء المحيطة به وينبهه إلى عجزه عن تجاوز هذه المدركات وبالتالي فإن محاولة الإنسان إدراك اللّه كما يقول الروحيّون تظل محاولة عاجزة فاشلة لأن اللّه عزّ وعلا ليس شيئاً فيتم إدراكه وليس كمثله شيء فيمكن تصوره ﴿**ذلكم اللّه ربكم لا إله إلاّ هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل * لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير * قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ**﴾ [الأنعام 103 ـ 105].

ولأنه خالق كل شيء فهو ليس كمثله شيء **﴿فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾** [الشورى 9]. وفي قصة موسى تتضح لنا حقيقة عجز الإنسان عن إدراك اللّه لأن حدود إدراك الإنسان هي الأشياء فقط،يقول تعالى في سورة الأعراف **﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكّاً وخرّ موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾** [الآية 143].

وعنده علم الساعة

﴿إن اللّه عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن اللّه عليم خبير﴾ [لقمان 33].

ذكرت في بداية هذه النظرة أن الرغبة في المعرفة من المشكلات التي تنغص على الإنسان حياته لأنها لا تتوقف عند حد إلى الدرجة التي تتحول فيها إلى نهم لا يتوقف فيدفع الإنسان دفعاً إلى رسم نهايته بيده حكماً أو حقيقة.

والغيب إحدى القضايا التي شغلت ولا تزال تفكير أولئك الذين أضلّهم اللّه فأنساهم أنفسهم فجهلوا قدرها ولم يقدروا اللّه حق قدره فهم يحاولون وبكل وسيلة الادعاء أنهم أحاطوا بالغيب وعلموا المجهول ومن ورائهم صفوف من ضعاف النفوس والعاجزين الذين ينظرون إليهم مشدوهين وهم يتخبطون في متاهات الوهم محاولين الادعاء بأنهم يملكون صفة من صفات اللّه تعالى وهي علم الغيب الذي يؤكد القرآن الكريم أنه خصيصة إلٰهية،يقول الحق تبارك وتعالى في سورة الحجرات: **﴿إن اللّه يعلم غيب السموات والأرض واللّه بصير بما تعملون﴾** [آية 18] ويقول عز من قائل في سورة النمل **﴿وللّه غيب السموات والأرض وما أمر الساعة إلاّ كلمح البصر أو هو أقرب إن اللّه على كل شيء قدير﴾** [77] وفي سورة الأنعام يأمر اللّه تعالى رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم أن يؤكد للناس أنه لا يحيط بالغيب لأن الغيب من الأمور التي اختص بها اللّه **﴿قل**

لا أقول لكم عندي خزائن اللّه ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلاّ ما يوحى إلي قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون﴾ [آية 5] ويقول عز من قائل في سورة الجن مؤكداً حقيقة عجز المخلوقات عن إدراك الغيب **﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً * إلاّ من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً * ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً﴾** [26 ـ 28]

وكما هو واضح فإن الاستثناء هو استثناء الرُّسل الذين يختصهم اللّه بتبليغ الرسالات **الإلٰهية،** فهم لا يعلمون الغيب وإنما يبلغون ما يأمرهم اللّه إبلاغه من أحكام ويوضحون للناس الكثير من الحقائق التي قد تكون غائبة عن أذهانهم وعقولهم أما عدا ذلك فيظل ما أمر اللّه رسوله بأن يقول هو القاعدة «ولا أعلم الغيب. . .».

تدور أحياناً في أحاديث البعض تساؤلات خطيرة كثيراً ما تؤدي بأصحابها إلى دخول مرحلة الشك الذي يقود إلى الكفر، وخلاصة هذه الأحاديث إشارة إلى قوله تعالى في سورة لقمان **﴿إن اللّه عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن اللّه عليم خبير﴾** [الآية 33] حيث يقول البعض مرتاباً كيف يتسق هذا والأطباء الآن في مقدورهم أن يحددوا جنس المولود ذكراً أو أنثى كما أنه باستخدام الآلات الحديثة أصبح في المقدور من خلال ما يسمى باستحلاب المطر أن يجمعوا السحب المتفرقة في كل مكان.

والرد على هذه الشبهات الشاكة سأتناوله من خلال القرآن الكريم الذي هو بيّن **مفصّل** في ذاته وتبيان وتوضيح لكل شيء فهذه الآية تبدأ بقوله تعالى: **﴿إن اللّه عنده علم الساعة. . .﴾** والساعة هنا لها دلالة زمنية جد هامة في معرفة حقيقة علم اللّه بالغيب فالزمن مرتبط بالفعل ويأخذ دلالته منه كما سبق وأن وضحت في نظرات سابقة والإنسان لا يستطيع أن يدرك الزمن مجرداً عن الفعل فالماضي والحاضر لم نعرفها هكذا ماضياً وحاضراً مستقلين بل عرفناهما بما وقع فيهما فحدود إدراكنا إذاً هي الأشياء والأفعال التي حصلت فتكتسب بذلك معنى

الماضي أما المستقبل فإننا لا نعيشه لأنه خارج دائرة الفعل وإن كنا نعرفه أي نعرف أن الحياة مستمرة وأن الزمن يواكبها ويكتسب معناه منها باعتباره حياة فيها حركة وفيها أفعال والزمن بهذه الكيفية يفهم فهماً إنسانياً أما اللّه الذي ليس كمثله شيء فلا يمكن أن ندخله ضمن دائرة الزمن أو المكان أو العقل المرتبط بالإنسان والمكان والزمن لأن هذه كلها تقع ضمن إطار المحدودات التي تؤكد إنسانية الإنسان واللّه خالق الإنسان هو العالم بكل شيء لأنه ليس كمثله شيء فهو المطلق بخلاف الشيء الذي يحاط بظروف المكان والزمان والحركة وبالتالي فإن مجرد تصور الإنسان أن بإمكانه الإدراك خارج دائرة محدوديته هو ادعاء أن بإمكانه أن يتجاوز بشريته وهنا يكون الجهل بالذات ويكون الانحراف والكفر والهبوط. فالعلم بالغيب أو المستقبل هو تجاوز لدائرة الزمن والفعل أو قل لدائرة الإنسان وهذا ما لا يمكن في إطار قدرة الإنسان.

ومن هنا كان العلم بالغيب خصيصة إلهية. ولقد امتدح تبارك وتعالى صفة الإيمان بالغيب عند المؤمنين الذين استحقوا بذلك رضوان اللّه وجائزة الجنة **﴿وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد * هذا ما توعدون لكل أوّاب حفيظ * من خشي الرَّحمن بالغيب وجاء بقلب منيب﴾ [سورة ق الآيات 31 ـ 33].**

إذاً فعلم الساعة مفتاح معرفتنا بالحقائق التي أوردها اللّه في هذه الآيات فاللّه وحده الذي يعلم الزمن خارج دائرة الفعل والمكان والزمان وإنزال الغيث الذي تتحدث عنه الآية الكريمة إرادة إلهية فالإنسان ربما وصل عن طريق معرفة قانون اللّه في سوق السحاب بالرياح أي ما يسمى باستحلاب السحب إلا أن ما يقول به الإنسان هو تجميع لهذه السحب وليس إنزالها ثم إن إنزالها غيثاً هو في حد ذاته مشيئة إلٰهية فالمطر الذي ينزل لا يستطيع الإنسان أن يجعله غيثاً ينفع الناس والأرض أو غيثاً يفسد الحرث والنسل لأن هذا هو في دائرة المستقبل الذي لا يحيط الإنسان به علماً يقيناً بل يتوقعه والفرق كبير بين توقع الشيء والعلم به.

أما قوله تعالى ﴿ويعلم ما في الأرحام﴾ فهو واضح وضوحاً تامّاً إذ أن ما في الأرحام ليس غيباً لأنه موجود وجوداً مادياً فالجنين في بطن أمه ليس غيباً وكل ما

فعله الإنسان باستخدام أدوات المعرفة التي زادت قدرته على الإبصار العادي فاستطاع عن طريق التصوير فوق الشعاعي أن يصور عظام الإنسان وأجهزته الداخلية وأن يميز جنس المولود ذكراً أو أنثى وأن يعرف الميكروبات وغيرها من المخلوقات الصغيرة والتي هي غائبة عن بصره ولكنها جميعاً ليست غيباً أي ليست خارج دائرة المكان والزمان. فكل ما هو داخل المكان والزمان يستطيع الإنسان إذا عرف القانون أن يدركه. ولكن الآية الكريمة لا تشير إلى موضوع معرفة جنس المولود من حيث الذكورة والأنوثة فهذه كما ذكرت ليست من الغيبيات ولكنها تتحدث عن «العلم بما في الأرحام» والعلم غير المعرفة فالطبيب يعرف جنس المولود ذكر أو أنثى ولكنه لا يعلم به إذ أن العلم بما هو هذا المولود وبما سيكون عليه هي من الأمور التي لا يعلمها إلّا اللّه لأنها خارج دائرة المعرفة الإنسانية محدودة الزمان والمكان واستخدام القرآن لأن الموصول «ما» هو في حد ذاته دليل العموم أي هذا الكل الذي في الأرحام أي هذا الإنسان ماضياً وحاضراً ومستقبلاً كما أشارت الآية إلى جهل الإنسان بما سيكسب غداً وربط الحق تبارك وتعالى الكسب بالزمن المستقبل الذي رمز إليه «بغد» كما ذكر الأرض **﴿وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾** فالمكان والزمان اللذان هما ضمن معرفة الإنسان هو الماضي الذي عاشه أو الحاضر الذي يعيشه أما المستقبل فهو خارج دائرة إدراكه **﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً * إلّا أن يشاء اللّه واذكر ربّك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً﴾** [الكهف 23، 24].

فتنة التمييز والتسيير

أشرت فيما سبق إلى أن المشكلة الأساسية التي واجهت وتواجه التفكير الإنساني منذ القدم مشكلة المعرفة هذه المعرفة التي تدفعه دفعاً عن أجل الإحاطة بالمجهول إذ أن بقاء الشيء مجهولاً هو تأكيد لعجز الإنسان وعدم قدرته والإنسان كما ذكرت يكره هذا العجز ويسعى إلى تأكيد ذاته، وبالطبع فإن جهل الإنسان بهذه الذات هو الذي يدفعه إلى عدم وضع حدود لنهم المعرفة وربما يكون هذا الجهل وراء انحرافه في وسائل تأكيد ذاته وتاريخ الحركات

الإنسانية وخاصة في جانبها الفردي تؤكد مدى عمق المأساة الإنسانية. مأساة الإنسان الذي ينهد إلى معرفة كل شيء وهو لا يعرف حتى ذاته. ومن هنا فإننا نقول مطمئنين إن مشكلة التخيير والتسيير أو الاختيار والجبر التي وجدت لها أبواقاً في المجتمعات الإسلامية على الرغم من أن البعض يحاول أن يجعل وراءها دوافع سياسية مثل ما ذهب إلى ذلك الشيخ عبد الحليم محمود حيث ذكر أن رغبة معاوية في تأكيد فكرة القدرية كان بقصد أن يثبت في أذهان الناس، أن إمرته على المسلمين، إنما كانت بقضاء اللّه وقدره. فأشاع الفكرة، وشجع مذهب الجبر، وأخذ هو وخلفاء بني أمية يبثون الفكرة بمختلف الوسائل»[1] وإن كنا لا نستبعد هذا التوظيف السياسي للفكرة عند بني أمية، وتشجيع القائلين بها كالجعد بن درهم، وجهم بن صفوان وبالمقابل موقف المعارضة القائلين بنفي الجبرية والقول بالاختيار المطلق كمعبد بن عبد اللّه الجهني الذي قتله الحجاج بن يوسف، وغيلان بن مسلم الدمشقي كرد فعل لسلوك بني أمية «ودكتاتوريتهم في حكم المسلمين» مثلما يروي البعض من أن معبداً الجهني، وعطاء بن يسار كانا يأتيان الحسن البصري ويسألانه «يا أبا' سعيد إن هؤلاء الملوك يسفكون دماء المسلمين ويأخذون الأموال... ويقولون، إنما تجري أعمالنا على قدر اللّه»[2].

إن كنا لا نستبعد التوظيف السياسي والقول بالجبر لتبرير التسلط أو رد الفعل والقول بالاختيار لتحريض الناس على الثورة فإن هذا لا يعني أن فكرة الجبر والاختيار فكرة جديدة. فالجبر والاختيار هو نتاج جهل الإنسان بنفسه أي إنه نتاج أخطاء في المعرفة منذ البداية وظهور هذه الفكرة أو تلك في عصر من العصور رغم ما فيها من الغرابة هو بمثابة النبتة الخبيثة التي لا تظهر إلا على أرض أهملها أصحابها أو ذهبت بهم الظروف مذاهب شتى ومثلما لا تظهر النباتات الخبيثة إلا في الأرض اليباب فإن الأفكار الغربية والتي تدل على الجهل

---

(1) عبد الحليم محمود، التفكير الفلسفي في الإسلام، ص203، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1982.

(2) عبد الحليم محمود، المرجع السابق، ص204، دار الكتاب البناني، بيروت، 1982.

لا تظهر إلا في ظروف انحرف الإنسان فيها عن الفطرة معرفة وإرادة وفعلاً.

وقصة التفكير الإنساني تروي لنا تذبذب الإنسان الجاهل لذاته بين نقطتي المطلق، المطلق اللاإنساني الذي يحاول مرة أن يجعل الإنسان فوق دائرة الإنسانية فيحوله إلى مطلق صغير قادر على أن يفعل كل شيء لا تعترض طريقه عقبة ولا يحد من حريته أو فعله له حد. وبين المطلق الآخر الذي هو دون الإنسان والذي يحول الإنسان إلى مادة مجبرة على أن تفعل كل شيء دون أن يكون لها أية إرادة أي مطلق الجبر.

والناظر في الفلسفات القديمة يمكنه أن يشاهد وببساطة هذا التذبذب في الموقف من الإنسان والكون بين حافتي المطلق هاتين. ومن هنا فإن تسرب القول بالاختيار المطلق، والجبر المطلق التي وجدت لها مناخاً بين المسلمين لعدة ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية هي ليست سوى امتداد لتيارات سابقة هبت على العرب المسلمين عندما خرجوا أو كادوا عن دائرة الفعل الإنساني الذي أساسه المعرفة الصحيحة التي يقدمها القرآن للإنسان والكون وخلق الله ظاهره وغيبه. وتوقف سير الفعل الإنساني من أجل نشر رسالة الإسلام وتعاليم القرآن فتحول إلى بركة آسنة انبعثت منها نتانة العفن ونَقَّت فيها ضفادع الكسل وحامت حولها غربان الشر.

إن موضوع التمييز والتسيير أو الجبر والاختيار يرتبط كذلك بموضوع معيارية السلوك الإنساني والفعل الإنساني ومشكلة معيارية الفعل هي الأخرى من أقدم المشاكل التي واجهت الفكر الإنساني ووقف الإنسان عاجزاً عن إدراكها فاتخذ حيالها مواقف شتى، وعلى الرغم من أن الشرائع الإلٰهية قد حلّت مشكلة معيارية الفعل وقضية الثواب والعقاب إلا أن الابتعاد عن هذه الشرائع يجعل المشكلة أكثر صعوبة كما يجعلها أكثر غرابة في المجتمعات التي تحتضن هذه الشرائع.

ففي المجتمع العربي المسلم الذي تسرب إليه الكثير من أصحاب المذاهب والديانات الوضعية القديمة كان لموضوع معيارية الفعل شأن كبير

وارتفعت بسببه الأصوات واحتدمت معارك الكلام الوهمية التي صرفت الناس من معارك الفعل وقد كان لهذه المعارك الكلامية أبطال دنكشوتيـون كما كان لها ضحايا وإن كانت المعارك العسكرية يطحن برحاها الكثير من الأبرياء فإن لمعارك اللغو الكثير من الضحايا متمثلة في الحقائق التي يحجبها غبار الباطل وربما يحرقها أتون الفتنة المستعر[1]. وإن كان القرآن الكريم يربو بأتباعه أن يكونوا ضمن من يوقد نار الفتنة أو يسعرها فلا يعني ذلك الموقف الهروبي الذي يجعلنا نتفرج على النار تلتهم بيوتنا دون أن نحرك ساكناً فالقرآن لا يقر مبدأ الحياد لأن الحياد هو ما لا يحول إلى فعل، سواء أقلنا إنه إيجابي أم غير إيجابي فالإنسان المسلم هو إنسان فاعل مؤثر وليس إنساناً محايداً والقرآن الكريم يعلم عباد الرَّحمن ألا يمروا على معارك اللغو والزيف مروراً سلبياً بل يطالبهم أن يمروا كراماً لأنهم كما وصفهم خالقهم ﴿والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾ [الفرقان72].

ومرور عباد الرَّحمن كراماً يقتضي أولاً دعوة هؤلاء إلى مأدبة الرَّحمن إلى القرآن الكريم لأنه وحده الشفاء لهذه العقول التي تشعبت بها السبل وهذه القلوب التي عصف بها تيار الهوى والفتنة. وفيه الرحمة لهم من الاستمرار في عبثية تنحرف بهم عن الرسالة الإنسانية. فالقرآن الكريم ينفي المطلق في حق الإنسان ذلك أن القول بالإطلاق هو القول بخروج الإنسان عن طور آدميته.

فالإنسانية دائرة تنفي هذ الإطلاق جموحاً عنها أو هبوطاً بها إذ أن مشيئة الخالق جل وعلا اقتضت أن يكون الإنسـان مخلوقاً وسـطاً وخلق التوازن والمحافظة على هذه الوسطية هي بسبب الفطرة التي اقتضت تكريماً لها أن تسجد الملائكة لآدم ويسخر الكون لأبنائه فهذه الوسطية أو الفطرة الإنسانية لا بد أن تجعل الإنسان مخلوقاً متميزاً ومميزاً. ولو أراده اللّه مطلقاً لضمه إلى الملائكة التي تفعل ما تؤمر أو إلى المخلوقات الأدنى التي تأتي طوعاً وكرهاً

---

(1) اقصد بمعركة معيارية الفعل ما دار حول تقويم القتال بين علي ومعاوية من الناحية الشرعية وانقسام الآراء حوله.

ومحاولة الإنسان الخروج عن دائرة الإنسانية بكون عاقبتها الهبـوط المادي والمعنوي وقد أشرت إلى قصة هبوط آدم عندما حاول أن يصل إلى الخلد والملك الذي لا يبلى لأن هذه المحاولة العاجزة هي انحراف عن الفطرة ومحاولة للخروج إلى المطلق الذي هو فوق الإنسان والتعدي على إرادة اللّه ومشيئته التي اقتضته أن يكون على هذه الخلقة.

واللّه تعالى خالق الإنسان هو الذي حدد له نطاق آدميته لأنه أعلم به **﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾** [الملك 14].

والعلم به هو الذي جعل له وسعاً لا يكلفه إلا في حدوده **﴿ ولا نكلف نفساً إلاّ وسعها، ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون﴾** [المؤمنون 63].

والوسع يعني أن هناك حدوداً له أي أن لحركة الإنسان وفعله وقبلها لمعرفته حدوداً وأن الخروج من دائرة الإنسانية هو الخروج إلى دائرة العدمية والتي أراها تبدأ من تمرد الإنسان على حدود إنسانيته **فالعدمية هي هذا الفراغ الذي يفقد الإنسان فيه ذاته كنتاج لجهل الإنسان بها.**

وقد أشرت في المقالات السابقة إلى المعرفة الإنسانية وأهمية الحس الذي هو نعمة من نعم اللّه ثم تعقل هذا المحسوس الذي يوصل إلى الإيمان بالغيب ثم التوقف عند نقطة الإيمان بالغيب هذه إذ أن حدود معرفة الإنسان وإدراكه هي حدود (الإنسان والفعل والمكان والزمان) الغيب هو خارج هذه الدوائر.

وهنا نعود إلى القول أن الإنسان لا يمكن أن يوصف بأنه مخير أو مسير لأن وصفه بهما يعني عدم الإنسانية أصلاً فالإنسان مخلوق له وسع والتمييز والتسيير مطلق لا يقبل الوسع والوقوف بينهما لا يؤكد إنسانية الإنسان بقدر ما يؤكد إدخالها في متاهات الظن أي القول بأنه «مخير مسير» وهذا القول علاوة على أنه لا يقبله المنطق ولا تقره المعرفة السليمة فهو لا يحل المشكلة بل يهرب بها ويؤكد العجز.

فالإنسان بشر ولأنه بشر فلا يطلب منه إلا ما هو في حدود بشريته هذه ولا

يكون مسؤولاً إلا في هذا الإطار واللّه الذي لا يظلم عباده لا يمكن أن يعاقبهم عما هو خارج حدود معرفتهم وحركتهم وفعلهم أو قل عما هو خارج حدود إنسانيتهم.

إن القرآن الكريم يؤكد لنا أن الدين الذي هو تأكيد للفطرة يرفع الحرج عن الإنسان والحرج هو تكليف الإنسان بما لا طاقة له به **﴿وجاهدوا في اللّه حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا باللّه هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير﴾** [الحج 76].

إذا فاللّه تعالى لا يطالبنا بالمعرفة التي هي خارج وسعنا لأن علمنا محدود بحكم هذه البشرية وبالتالي كان العلم بالروح من أمر اللّه. والمعرفة التي يجاهد الإنسان في سبيل الوصول إليها هي المعرفة التي في حدود هذه الدائرة الإنسانية. ومن هنا فإن الإنسان إذا فقد القدرة على التعقل سقط عنه التكليف كما يسقط عنه جزاء الفعل لأن هذا الفقد خارج حدود وسعه الإنساني أي خارج إرادته كإنسان وفي هذا الإطار يرفع اللّه الحرج عن المريض والأعمى والأعرج فيعفيهم من كل المسؤوليات التي تقتضي انتفاء هذه الأمراض.

فالمعرفة والفعل المكلف الإنسان بهما هما في حدود وسع الإنسان المستوي مادياً ومعنوياً. فإذا انتفى هذا الاستواء لأمور فوق وسع الإنسان أو قل فوق إرادته انتفى التكليف وهذا غير عدم الاستواء الإرادي الذي هو نتاج التدخل الإنساني الإرادي والذي يسبب انحرافاً مادياً أو معنوياً ومن هنا كانت مسؤولية الإنسان على حفظ بدنه سليماً وعلى معرفته ومدركاته العقلية سليمة من جهة وعلى استخدامها الاستخدام الأمثل أو الاستخدام الإنساني الذي يوصله إلى الاستواء أو التكامل الإنساني من ناحية أخرى. وفي حدود الدائرة الإنسانية أو الوسع الإنساني يكون الإنسان المستوي مسؤولاً عن أفعاله مسؤولية تامة لأن هذه الأفعال في حدود دائرته البشرية وكلما ارتفعت معرفة الإنسان بذاته وبرهنت على هذه المعرفة أفعاله وسلوكاته كلما وصل الإنسان إلى الاكتمال في الدائرة

الإنسانية واستطاع أن يعيش حياة إنسانية معتدلة وفق القانون الإلٰهي الذي يحقق التناغم لا النشاز والنظام لا الاصـدام.

﴿إن كل شيء خلقناه بقدر﴾ وقدر الإنسان هو هذا الوسع الذي يحدد المسؤولية ويكون رهيناً بما كسب ﴿لا يكلف اللّٰه نفساً إلّا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ [البقرة 285].

فالجزاء هو بسبب الفعل،والفعل المجازى عليه هو الفعل الذي يكون في حدود وسع الإنسان ولو كان غير ذلك لكان الجزاء ظلماً وهو نقيض العدل الواجب للّٰه سبحانه وتعالى ﴿وخلق اللّٰه السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون﴾ [21 الجاثية] ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون * ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلّا ما كنتم تعملون﴾ [النمل 91، 92].

إن الفعل الإنساني يستدعي الحركة والفعل،والحركة يتطلبان المجال الذي تتم فيه الحركة والفعل هذا المجال هو الذي أشرتُ إليه أثناء توضيحي لمفهوم الوسع فالوسع هو المجال ولأنه وسع إنساني فالحركة فيه حركة إنسانية والحرية فيه حرية إنسانية والفعل والمعرفة فيه كذلك لا يمكن إلا أن تكون إنسانية.

مفهوم الهداية في القرآن

عندما ارتفعت معارك الفتنة بين القول بالتخيير والقول بالتسيير حاول هؤلاء وأولئك أن يستدلوا على صحة مذاهبهم المنحرفة فلجؤوا إلى القرآن الكريم ولأن القرآن واضح مبين فإن هذا الوضوح لم يسعفهم في الدفاع عن مذاهب ملتوية ضالة مضلة لذا عمد هؤلاء إلى التأويل أي إخراج القرآن عن معناه الواضح المبين الذي ارتضاه اللّٰه سبحانه وتعالى للناس والادعاء أن له معنى آخر هو الذي عند الأول وهو اللّٰه تعالى لا يدركه .إلّا الخاصة الذين علموا هذا الأول تعالى اللّٰه عن ذلك علواً كبيراً. وقبل أن أتناول الآيات الكريمة التي حاول هؤلاء تأويلها باطلاً للدفاع عن لغوهم وزورهم أرى من المفيد أن

استعرض الدلالة اللغوية للفعل هدى يهدي هدياً يقول صاحب لسان العرب «هدى : من أسماء اللّه تعالى سبحانه: الهادي، قال ابن الأثير: هو الذي بصر عباده وعرفهم طريق معرفته حتى أقروا بربوبيته، وهدى كل مخلوق إلى ما لا بد له منه في بقائه ودوام وجوده. ابن سيدة: الهدى ضد الضلال وهو الرشاد، . . . . وأنشد ابن بري ليزيد بن حذّاق:

ولقد أضاء لك الطريق وانهجت . . سبل المكارم والهدى تُعدى

قال أبو إسحق: قوله عز وجل: ﴿قل إن هدى اللّه هو الهدى﴾ أي الصراط الذي دعا إليه هو طريق الحق. .

ويستشهد ابن منظور بما روي عن الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم قوله لعلي بن أبي طالب «ك» «قل اللهم اهدني وسددني واذكر بالهدى هدايتك الطريق وبالسداد تسديدك السهم، والمعنى إذا سألت اللّه الهدى فأخطر بقلبك هداية الطريق وسل اللّه الاستقامة فيه كما تتحرّاه في سلوك الطريق، لأن سالك العلا يلزم الجادة ولا يفارقها خوفاً من الضلال، وكذلك الرامي إذا رمى شيئاً سدد السهم نحوه ليصيبه، فأخطر ذلك بقلبك ليكون ما تنويه من الدعاء على شاكلة ما تستعمله في الرمي»[1].

إن المعنى اللغوي للهداية يدل على أن هناك إنساناً يبحث عن الطريق السليم أو الجادة الصحيحة وأن مهمة الهادي هو الذي يوضح الطريق ويعرف عليها وبالمقابل يتضح السبيل الخاطىء الذي يتجنبه الإنسان الساعي للوصول إلى هدفه بأمان. وبمعنى آخر فإن الهادي إلى الطريق غير الباحث عن الطريق وهذا المعنى مهم جداً في توضيح مفهوم الهداية الإلٰهية ذلك أن الذين قالوا بالجبر جعلوا الهداية هي الفعل أي أن اللّه يفعل أفعال العباد وهذا المعنى واضح الفساد. دعونا نستعيد قصة الطريق وللّه المثل الأعلى ونتصور أنفسنا وكثيراً ما يحصل هذا وقد وصلنا طريق الوصول إلى بيت صديق أو مكان لنا فيه مقصد وهنا يكون حالنا إما التخبط في متاهات المحاولة التي قد تأخذ وقتاً طويلاً وربما

(1) ابن منظور، المرجع السابق، المجلد 15، ص 353-354، دار صادر، بيروت.

نضيع الهدف أو أن نسأل عليماً بهذا المكان فيدلنا عليها وبالتالي نوفر جهداً ووقتاً وندرك المقصود في أمان. وفي كل يكون السائر إلى الهدف هو نحو إما الدليل أو الهادي إلى الطريق فهو المساعد الذي تكون مساعدته لنا رحمة ويسراً.

ومن هنا يؤكد القرآن الكريم أن الإنسان الفطري قد هداه اللَّه بحكم رحمته وإرادته ويسر له القدرة على معرفة الطريق السليم من الخاطىء **﴿لا أقسم بهذا البلد * وأنت حل بهذا البلد * ووالد وما ولد * لقد خلقنا الإنسان في كبد * أيحسب أنْ لن يقدر عليه أحد * يقول أهلكت مالاً لبدا * أيحسب أن لم يره أحدا * ألم نجعل له عينين * ولساناً وشفتين * وهديناه النجدين﴾** [البلد 1، 10].

وفي سورة الإنسان يؤكد الحقّ تبارك وتعالى هذه الحقيقة الفطرية **﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً * إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً * إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾** [الإنسان 1، 3].

إذاً فاللَّه سبحانه وتعالى قد خلق في الإنسان استعداداً فطرياً للتمييز والاختيار وهذا هو العدل والرحمة واليسر الإلٰهي. وحتى لا يترك اللَّه تعالى عباده يتخبطون لمعرفة السبيل إلى الفطرة كلما ابتعدوا عنها يبعث اللَّه الأنبياء والرسل يهدون الناس هذا السبيل وبالتالي جاءت العديد من الآيات تؤكد على أن القرآن يهدي إلى صراط اللَّه وإلى التي هي أقوم كما تؤكد أن مهمة الرسول صلّى اللَّه عليه وسلّم هي الدعوة إلى سبيل اللَّه وهداية الناس إلى الصراط المستقيم **﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾** [الشورى 49].

والقرآن الكريم يوضح لنا أن هدى اللَّه الإنسان إلى طريق الحق مشيئة إلٰهية جاءت نتيجة سعي الإنسان في الوصول إلى الطريق السليم وقد ذكرت في قصة إبراهيم كيف أنه كان يبحث عن اللَّه تعالى وأنه طلب هدى الله عندما

تشعبت به الطرق **﴿لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين﴾** [الأنعام 77].

وهنا كانت هداية اللّه وتوفيقه كنتيجة لسعي إبراهيم الصادق إلى معرفة السبيل إلى اللّه أو النية الفاعلة.

واسمحوا لي أن أتوقف هنا قليلاً عن المقصود بالنية الفاعلة لأن الكثيرين اعتقدوا أن النية هي مجرد هذا التمني القلبي أو الرغبة غير أن النية التي يثيب اللّه عليها هي القصد والعزم الذي يتطلب الشروع في الفعل فإذا عجز الإنسان عن فعل القصد أو العزم لأسباب فوق إرادته فان اللّه يثيبه على قصده الفاعل أو نيته الفاعلة ولهذا قال صلّى اللّه عليه وسلّم «ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب» أي استقر وأصبح قصداً «**وصدّقه** لعمل». نعود إلى القول بأن قصة إيمان إبراهيم أو التي رأيت ان أسميها في موضع سابق «المنهج **الإبراهيمي**» يفسر لنا مفهوم الهداية الإلٰهية التي هي كما ذكرت نتاجاً للمعرفة السليمة والنفس المستوية التي تبحث عن السبيل إلى اللّه وتكون مهمة الشريعة والرسل هي هداية هذه النفس إلى الطريق السليم فإذا انتفى هذا القصدوالسبب انتفت الهداية والنتيجة وهذا ما يؤكده الحق تبارك وتعالى في أكثر من موضع.

يقول تعالى في سورة يونس **﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم﴾** [يونس 9].

فإيمان هؤلاء وعملهم هو الذي كان وراء هداية اللّه إيّاهم وتوفيقه لهم وفي المقابل يقول تعالى في سورة النمل **﴿إن الذين لا يؤمنون بآيات اللّه لا يهديهم اللّه ولهم عذاب أليم﴾** [104]. وفيها أيضاً يقول عز من قائل موجهاً الخطاب إلى رسوله الكريم **﴿إن تحرص على هداهم فإن اللّه لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين﴾** [النمل 37] فعدم هداية اللّه لهم وتوفيقه إيّاهم هو بسبب ضلالهم وكفرهم وإصرارهم على الغي ورفضهم الهداية.

وفي سورة الزمر يؤكد الحق تبارك وتعالى أن هدايته لا تتعلق بالكفار المكذبين والكفر والتكذيب موقف ارتضاه الإنسان لنفسه فكان عدم الهداية نتيجة له **﴿إن اللّه لا يهدي من هو كاذب كفار﴾** [آية 4].

وفي سورة الصف يؤكد الحق تبارك وتعالى هذه الحقيقة في شأن موسى والذين كفروا به **﴿وإذ قال موسى لقومه لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾** [الصف آية 5].

إن هذه الآيات الكريمة التي أوردتها على سبيل المثال والشاهد وغيرها كثيراً توضح أن هداية الله وتوفيقه هي محصلة حرص الإنسان وصدقه وعزمه على معرفة الحق والعمل لذلك أما الذي قرر عدم الاهتداء أصلاً فإن الله لن يهديه وبالتالي فلن تستطيع قوة في الأرض أن تفعل ذلك ولهذا أمر الله رسوله بعدم إضاعة وقته في محاولة هداية الذين استحبوا الكفر على الإيمان لأنهم بضلالهم وكفروا عطلوا كل الإمكانات البشرية التي أعطاهم الله إيّاها لتوصلهم إلى التفكير السليم واختيار الإيمان **﴿إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين * وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾** [النمل 82، 83].

وفي سورة يوسف يقول الحقّ تبارك وتعالى مخاطباً رسوله صلّى الله عليه وسلّم ومؤكداً حقيقة أن هداية الله هي فقط للذين أرادوا الاهتداء **﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾** [يوسف 103] كما يطمئن رسوله صلّى الله عليه وسلّم الذي كاد حرصه على أن يؤمن المكذبون به أن يوصله إلى إهلاك نفسه حزناً على هؤلاء الذين شاءوا الكفر واستحبوا الضلالة يقول عز من قائل في سورة الكهف **﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً * قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً * ماكثين فيه أبداً * وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً * ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً * فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾** [الكهف 1-6].

وفي سورة الشعراء يقول تعالى **﴿طسم تلك آيات الكتاب المبين * لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين * إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين * وما يأتيهم من ذكر من الرّحمن محدث إلّا كانوا عنه معرضين﴾** [الشعراء 1-4] إن هؤلاء الذين استحبوا الكفر على الإيمان لا يستحقون

أن يحزن الرسول من أجلهم كما لا يستحقون أن يصرف الرسول وقته في هدايتهم.

العلم بالفعل وفعل الفعل

﴿ولو علم اللّه فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾ [الأنفال 23].

هناك شبهة أخرى يرفعها المنحرفون من الجبريين لتأكيد ما ذهبوا إليه من باطل وهو قولهم إن الهداية والضلال في علم اللّه وأمره تم تقديره وبالتالي فلا مجال للإنسان في الخروج عليه الا أننا وإن كنا نؤكد على علم اللّه الذي أحاط بكل شيء لأنه خالق كل شيء **﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ [الملك ـ 14].**

إلا أن العلم بالشيء لا يعني بالضرورة فعله وحتى يتم تقريب هذه الحقيقة من الأذهان نضرب هذا المثل وللّه المثل الأعلى في كل شيء.

عندما يذهب أحدنا لشراء مذياع أو سيارة مثلاً فإنه يستفهم عادة عن طريقة الاستعمال لأنه لا يعرف طريقة التعامل مع هذه الآلة وقد يقدم له البائع كتيباً صغيراً يكون دليلاً على استعمالها يطلق عليه في المصطلح الأوربي «الكاتالوج» فإذا ما اطمئن الإنسان إلى معرفة أسلوب استخدام هذه الآلة فربما سأل عن الضمان الذي يؤكد سلامة هذه الآلة وصلاحيتها لفترة قادمة وهنا يعطيه صاحب المحل ورقة «بالضمان» لمدة محددة. ويكون الضمان مشروطاً بالتعامل مع الآلة في حدود التعليمات المقدمة في الدليل وقد يترك الإنسان الدليل جانباً ويستخدم الآلة دونما الرجوع إليه وربما أساء التعامل معها فيفسدها فيهرع إلى البائع الذي يرفض التعويض أو استبدال الجهاز لأن الخلل لم يكن من طبيعة الجهاز بل لسوء الاستعمال وهنا تضيع على المشتري أمواله ويتحسر على جهله وعدم استخدامه للتعليمات ولا يفيده محاولة تأويل ورقة الضمان لصالحه. وتكون الحالة الوحيدة التي يقبل البائع بها الجهاز هي عندما يكون توقف الجهاز عن غير فعل المشتري أي أن يتوقف الجهاز بدون تدخل جاهل من المستعمل وهنا يعاد الجهاز إلى الشركة المصنعة لأنها أعلم بالجهاز الذي صنعته ويكون التعويض.

هذا المثل البسيط هو نموذج صغير لقصة الإيمان والهداية والثواب والعقاب. فالشرائع السماوية ليست سوى الدليل أو «الكاتالوج» الذي يساعد الإنسان في معرفة السبيل إلى التعامل الصحيح مع نفسه ومع الكون وضمان الإنسان هو مدى اتباعه لهذا المنهج وسيره في الطريق المرسوم.

والله باعتباره خالق الإنسان والكون هو أعلم بما خلق فلا يكلف الإنسان إلاّ بقدر ما يستطيع فعله ومثلما يعلم صانع الجهاز طبيعة الجهاز «ولله المثل الأعلى» ويتحمل مسؤولية العطل الذي هو من طبيعة الجهاز ومثلما لا يمكن أن يحتج المشتري للجهاز على صانع الجهاز بأنه يعلم الجهاز وبالتالي يتحمل مسؤلية فساده وتكون النتيجة أن العلم بالجهاز لا يعني المسؤولية عن الاستعمال الخاطىء للجهاز ومخالفة التعليمات فلا يمكن للإنسان أن يجعل من علم الله به باعتباره الخالق مبرراً للتنصل من الفعل الخاطىء الذي ارتكبه بسبب عدم اتباعه للهدى ومن تحمل نتائج هذا الفعل.

وكما تكون حسرة وضياع مال الذي اشترى جهازاً وأفسده بجهله تكون حسرة الكفار والمعاندين عندما يرون العذاب لأنهم أساؤوا استعمال ما أعطاهم الله من قدرات مادية ومعنوية تمكنهم من الوصول إلى الطريق السليم فأضاعوا فرصتهم هدراً وكانت عاقبة فعلهم الخاطئة وبيلة مهلكة.

﴿أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين * وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون﴾ [مريم 38] ويقول تعالى في سورة الزمر مكذباً ادعاء الكفار ومحاولة تنصلهم من ظلمهم وحسرتهم على تفريطهم: **﴿أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين * أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين * بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين﴾** [الزمر 56-59].

النظرة الخامسة عشر

القرآن والشعر

قضية القرآن والشعر من القضايا التي تم طرحها في محافل الدراسات الأدبية وذهب البعض فيها إلى القول بأن القرآن الكريم قد اتخذ موقفاً معارضاً للشعر والشعراء بينما حاول البعض الآخر الدفاع عن الشعر ومحاولة إعطاء تفسيرات للآيات التي وردت في القرآن في مواضع كثيرة بما يخدم وجهة نظرهم. وعلى الرغم من إدراكي أن هذا الموضوع حقّه أن يتم تناوله في الفصل الثالث من هذا الكتاب وهو فصل «نظرات في الأدب» إلا أنني رأيت أن أتناول الآن طرفاً منه لاعتقادي بأن هذه القضية لها علاقة بموضوع المعرفة والحقيقة التي سبق وأن تناولتها نظرات سابقة من هذا الفصل. وأقول في البداية إن المشكلة تبدأ من الربط بين الشعر والحقيقة وهذا الربط ليس من القضايا الجديدة ويدرك أغلب المهتمين بالدراسات الأدبية والفلسفة موقف المفكر اليوناني أفلاطون من الشعر حيث أنّه من الأوائل الذين أثاروا هذه القضية واعتبروا الشعر بحكم موضوعه يقف في الصف المعارض للفلسفة التي تهدف الوصول إلى الحقيقة وبالتالي يكون الشعراء في الصف المعارض للفلاسفة. وإذا كان الفلاسفة هم أساتيذ الحكمة والمعرفة فإن الشعراء هم دعاة الوهم والخيال. ولأن أفلاطون يريد جمهورية الحكمة والمعرفة فقد قرر أن يستبعد الشعراء من دائرة المعلمين باعتبارهم يضللون الجماهير ويصورون لهم الوهم عن طريق فن القول حقيقة وموقف أفلاطون هذا كما نعلم له علاقة بنظرية المثل

التي قال بها. فإذا كان الفيلسوف عن طريق جدله الصاعد والهابط قد وصل إلى الحقيقة فإن الشاعر مقلد وهو لا يقلد المثل الثابتة بل يقلد الطبيعة المتغيرة والطبيعة ذاتها ليست حقيقة بل صورة للحقيقة التي في عالم المثل فإن الشعر بذلك يكون مقلداً للصورة أي يكون قد ابتعد عن الحقيقة بدرجتين وقد يبتعد عنها بثلاث درجات إذا وصف الشاعر مثلاً منظراً مصوراً قام بمحاكاة الطبيعة فيه رسام، فيكون الشاعر بهذا قد ابتعد عن الحقيقة بدرجات ثلاث لأن الرسّام قد ابتعد عنها بدرجتين وهذا يعود إلى أن الطبيعة ذاتها تبتعد عن الحقيقة بدرجة. وإذا كان أفلاطون قد ربط بين الشعر والوهم الذي هو نقيض الحقيقة فإنه بذلك قد حاول أن يفسر ظاهرة الإبداع الفني الشعري فقال إن الشعراء لا يصدرون في قولهم عن حالة تعقل وتدبر بل إن الشعراء لا يقولون الشعر إلا إذا غادروا التعقل إلى الانفعال وفي مدة الانفعال والهيجان الشديد يقذف بالشعر على ألسنتهم فيكونون هم أنفسهم عاجزين عن معرفة ما يقولون لأنهم ليسوا أصحابه بل أداته فقط. وقد انتشرت فكرة شيطان الشعر في محافل الشعر والأدب عند العرب فاعتبروا الشاعر إنساناً غير عادي بل عبقري. والعبقرية كما يقال نسبة إلى وادي عبقر الذي تقول الأسطورة إنه واد مليء بالجِنَّة، فالشعراء إذن لهم أعوانهم من الجن يساعدونهم على الإبداع وقول الشعر الذي يعجز غيرهم عن قوله وربما دعم بعض الشعراء من باب شعورهم بالتفوق والتمايز هذا القول فادعوا أن لهم جنة تقذف القول على ألسنتهم وقد صور لنا ابن شهيد في رسالة التوابع والزوابع طرفاً من هذا الاعتقاد.

وإرجاع ظاهرة الإبداع الفني الشعري إلى الجن والشيطان في حالات العجز عن إدراك كنهها أمر قديم قدم التفكير الإنساني فالإنسان الذي يعجز عن تفسير ظاهرة من الظواهر يحاول في طريقة هروبية إرضاء لنفسه وإشباعاً لعقده تأكيد ذاته التي لا تعرف الحدود بأن هناك أشباحاً وشياطين وجنة وراءها. وقد رأينا كيف كانت تقدم القرابين وتذبح الذبائح في محاولة لإرضاء هذه الأرواح الشريرة.

وربما لا يزال هذا الاعتقاد المضحك سائداً إلى يومنا هذا فالكثيرون

يقدمون الذبائح إذا ما اشتروا سيارة جديدة أو سكنوا بيتاً جديداً إرضاء للأرواح الشريرة! . . !.

لست في سبيل الاستفاضة في هذا الموضوع وربما تتم معالجته في نظرة مستقلة ولكن الذي يهمنا هو إرجاع الظواهر المثيرة إلى الجن والشياطين. ومن هنا كان موقف الكفار من القرآن الكريم والرسول صلّى اللّه عليه وسلّم فبدل أن يسلموا بأن القرآن هو من عند اللّه وأنه معجز بحروفه وألفاظه ومعانيه وأنه وإن جاء بلسانهم وعلى نمط كلامهم إلا أنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بمثله لجؤوا إلى المعاندة والكذب والتمحل إذاً فالقضية بدأت بموضوع الإعجاز ولأنهم يرون كل معجز من فعل المخلوقات الغيبية من جن وشياطين فقد قالوا بأن الرسول مجنون وهنا يؤكد الحق تعالى أنه معجز للجميع إنساً وجناً ولو اجتمعوا يظاهرون بعضهم بعضاً على الإتيان بمثله. يقول تعالى في سورة الإسراء:

﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ [آية 88].

وقد سلك القرآن معهم أسلوب التدرج في التحدي إيقاعاً للحجة عليهم فتحداهم أن يأتوا بعشر سور يقول،تعالى في سورة هود **﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون اللّه إن كنتم صادقين﴾** [الآية 12] ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة يقول تعالى في سورة البقرة **﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون اللّه إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾** [الآية 22-23].

إذاً فالقرآن بتحديه الكفار على أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو عشر سور أو سورة مثله وتحديه لهم أن يدعوا شركاءهم من الإنس والجن ليظاهروهم على الإتيان بهذا الفعل المستحيل هو جري بهم على نمط تفكيرهم الذي كانوا يعتقدونه وتحدياً من جنس الاتهام لأنهم اتهموا الرسول بأنه يفتري القرآن، وبأن الجن تقذف به على لسانه أو قولهم إنه شاعر، أو ساحر.

وقد صور اللّه حال أحدهم كشاهد على هذه المكابرة المزرية والمعاندة يقول تعالى في سورة المدثر ﴿**فذرني ومن خلقت وحيداً * وجعلت له مالاً ممدوداً * وبنين شهوداً * ومهدت له تمهيداً * ثم يطمع أن أزيد * كلا إنه كان لآياتنا عنيداً * سأرهقه صعوداً * إنه فكر وقدر * فقتل كيف قدر * ثم قتل كيف قدر * ثم نظر * ثم عبس وبسر * ثم أدبر واستكبر * فقال إن هذا إلا سحر يؤثر * إن هذا إلا قول البشر**﴾ [المدثر، 11، 22].

إن هذه الآيات الكريمة في سورة المدثر تمثل هذا الموقف المعاند المكابر، فصاحبه بعد أن فكر وقدّر كان تفكيره خاطئاً وكان تقديره منحرفاً نتيجة هذا التفكير الخاطىء ثم كان موقفه الذي انعكس على وجهه «عبس وبسر» ثم فعله «ادبر واستكبر» كفراً وعناداً بقوله ﴿**إن هذا إلا سحر يؤثر * إن هذا إلاّ قول البشر**﴾ فكيف يكون القرآن من قول البشر وقد تحدّاهم اللّه به جميعاً بل وبسورة من مثله، وكيف يكونون عاجزين عن الإتيان بمثله وهم أرباب فن القول وأساطين الشعر ووجهاً بهذه البلاغة والفصاحة. وكيف تعجز الجن مجتمعة وهم الذين يدعون أن أحدها يقذف على لسان الشاعر منه فتنثال عليه الألفاظ انثيالاً.

إن كفار قريش وقد أعيتهم الحيلة نجدهم قد قذفوا بآخر سهم في جعبة عجزهم بقولهم إن الذي يقوم بتعليم الرسول القرآنَ بشرٌ.

﴿**ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين**﴾ [النمل 103] وهنا يفحمهم الحق تعالى إذ لو كانت المسألة مسألة تعليم من بشر فإن كان بمقدورهم ذلك، فلماذا لا يفعلون.إن المسألة ليست مسألة معاني القرآن بل المسألة مسألة هذا الكل المعاني والألفاظ بل والحروف. فهذا الذي يدعون أنه يعلم الرسول معاني القرآن هو أعجمي لا يعرف اللسان **العربي** ولا يجيده.

فعلى سبيل التحدي المعجز هب أن هذا يعلمه معاني القرآن فلماذا لا يتعلمون هم هذه المعاني وإذا علم المعاني فهل يعلمه كذلك الأسلوب والكلمات والحروف المعجزة!..!.. ومن هنا كانت إشارات كثيرة إلى هذا

الإعجاز اللغـوي حيث كانت فواتح الكثير من السور تبدأ بحروف من هذه اللغة وتعقبها الإشارة عادة إلى أن هذه الحروف هي آيات الكتاب المبين ودليل إعجازه وتحديه.

يقول تعالى في سورة البقرة ﴿الٓمٓ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾ ويقول عز من قائل في سورة آل عمران ﴿الٓمٓ اللّه لا إله إلاّ هو الحي القيوم * نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل﴾ [1، آل عمران] وفي سورة الأعراف ﴿الٓمٓصٓ كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين﴾ [الآية 1] وفي سورة يونس يقول عز من قائل ﴿الٓر تلك آيات الكتاب الحكيم * أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أنْ أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين﴾ [الآيتان 1، 2].

وفي سورة هود يقول الحق تبارك وتعالى ﴿الٓر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ [آية 1] فهذه الآيات وغيرها تؤكد حقيقة الإعجاز البياني للقرآن الذي هو بلسان العرب وكلامهم حيث يتحداهم بأصغر وحدة في الكلام الصوت والحرف الذي يرمز إليه.

فإذا أوقع القرآن الحجة اللغوية على العرب الذين حملهم مسؤولية تبليغ الدعوة فإنه لا بد وأن يوقع عليهم الحجة في المعنى والقرآن وقد أعجز العرب بأقل وحدة لغوية يقدم الإعجاز الآخر الذي يقف متحدياً شامخاً لهم ولغيرهم وهو الإعجاز بالحقائق الباهرة التي يقدمها القرآن الكريم ولأنه يقدم الحقائق فلا يمكن بحال أن يأتيه الباطل الذي هو نقيض الحق يقول تعالى في سورة فصلت ﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد * ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم * ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاءٌ والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد﴾[34 ـ 40]ولأن القرآن معجز العرب فهم يفهمون ألفاظه كما يفهمون دلالات هذه الألفاظ لأنه

إذا انتفى فهم الإعجاز وتأكيد القرآن على الإعجاز والتحدي تأكيد على فهمهم له وإدراكهم لألفاظه ومعانيه فحكمته تعالى اقتضت أن يكون القرآن بلسان هؤلاء القوم ورغم ذلك فهو عزيز على أن يأتوا بمثله وعزيز على أن يأتيه الباطل. فهو دعوة إلى الحق المطلق الأزلي الأبدي. **إن الإشارة** إلى الإعجاز في البيان والإعجاز في المعاني الذي هو فوق قدرة البشر يخرج به عن القول البشري شعراً أو غيره لأن القول بعامة والشعر شكلاً منه إنما يكون بقصد تعبير الإنسان عما في نفسه وبالتالي فإنه يعكس موقف صاحبه وهو بذلك شأنه شأن أي قول قد يصاحبه الصواب والكذب ليس بحكم كونه شعراً بل بحكم طبيعة الإنسان الذي يصدر عنه الشعر إذا أضله الله وجانب الحق.

فالقرآن الكريم لا يتخذ موقفاً من الشعر بل من القول عموماً إذا كان منحرفاً وضالاً أو داعياً إلى الانحراف والضلال وأن الإنسان باعتبار قابليته للغواية قد يقول قولاً يكون أداة الشيطان في الغواية والإضلال. وقد شاء الحق تبارك وتعالى أن ينزل في محكم كتابه سورة كاملة هي «سورة الشعراء» دليلاً على خطورة الشعر وأهميته وخطره إذا استخدم في غير ما يستخدم فيه القول الصائب المدافع على الحقيقة.

يقول الحقّ تبارك وتعالى في سورة الشعراء التي بدأها بالتحدي اللغوي وذلك بإيراد الحروف كآيات على صدق الرسول والرسالة **﴿طسٓمٓ تلك آيات الكتاب الحكيم﴾** وهي السورة التي يشير فيها إلى قصة موسى والسحرة وانتصار المعجزة لأنها حقيقة على السحر لأنه وهم وباطل **﴿وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون * ذكرى وما كنا ظالمين * وما تنزلت به الشياطين * وما ينبغي لهم وما يستطيعون * إنهم عن السمع لمعزولون * فلا تدع مع الله إلٰهاً آخر فتكون من المعذبين * وأنذر عشيرتك الأقربين * واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون * فتوكل على العزيز الرحيم * الذي يراك حين تقوم * وتقلبك في الساجدين إنه هو السميع العليم * هل أنبئكم على من تنزل الشياطين * تنزل على كل أفّاك أثيم * يلقون السمع وأكثرهم كاذبون * والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم في كل واد**

يهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون * إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا اللّه كثيراً وانتصروا من بعدما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ [الشعراء الآيات 208 ـ 227]

سورة الشعراء قد بدأت بالتحدي وختمت به وقد حوت الإعجاز البياني وإعجاز المعاني والإبداع في كلٍ حيث بدأت بالتحدي اللغوي **﴿طسّمَ تلك آيات الكتاب الحكيم﴾** واختتمت بإعجاز المعاني الذي يؤكد أن القرآن لا يمكن أن تنزل به الشياطين أولاً بحكم أن هؤلاء نجس والقرآن كما وصفه منزله تعالى في سورة الواقعة **﴿إنه لقرآن كريم * في كتاب مكنون * لا يمسه إلاّ المطهرون * تنزيل من رب العالمين﴾** [الآيات 80-83].

وثانيهما أن القرآن بحكم رسالته الممثلة في الهداية والفلاح والخير يتعارض مع رسالة الشياطين الممثلة في الغواية والإضلال والشر. والثالثة أن القرآن صدق وحق وهؤلاء دعاة كـذب وباطل وافتراء وهنا تكون الاستحالة أصلاً أن يكون لهؤلاء أية علاقة به.

وإذا كان القرآن ينفي علاقة الشياطين بالحق والقرآن فإنه يؤكد علاقة هؤلاء بالكاذبين والأفاكين فالشياطين على أمثالها تقع **﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين * تنزل على كل أفاك أثيم * يلقون السمع وأكثرهم كـاذبـون﴾** فالشياطين تنزل على أتباعها من الأفاكين السادرين في درك الإثم والخطايا، وبالتالي يضلونهم عن سبيل اللّه ويوهمونهم أنهم يعرفون الحقيقة وأنهم مطلعون على الغيب وهم كما قال الحق تبارك وتعالى **﴿عن السمع لمعزلون﴾** كما يكون هؤلاء الشعراء أداة الشياطين في الغواية والإفساد.

فالموضوع هنا موضوع الحق ووسيلته وأهله والباطل وأداته وجنده فالحق هو ما جاء به القرآن الكريم ووسيلة الروح الأمين وأهله المؤمنون الذين تحرروا من سلطان الغواية والشر أما الباطل فإن أداته الشياطين وجنده هؤلاء الكفار المفتونون الذين نسوا اللّه فأنساهم اللّه أنفسهم **﴿ومن يعش عن ذكر الرّحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين * وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون﴾** [الزخرف 34-35].

ثم تنتقل الآيات القرآنية على سبيل الاستئناف غير المقطوع عن السياق إلى الشعراء بحكم أنهم أصحاب فن القول. فالقول البشري إذا لم يفد الإيمان لسان قائله فإنه يكون بذلك مدعاة للكذب والادعاء ومن هنا فإن الغواية تكون بحكم ذلك قريبة لهؤلاء الشعراء لا لأنهم شعراء بل لأنهم قد يكذبون ويقدمون كذبهم في ثوب خادع من الألفاظ وقد أكّد اللّه كذبهم بوصفهم بأنهم يقولون ما لا يفعلون أي أنهم غير صادقين في أقوالهم ولو صدقوا القول لصدقوا العمل ولأنهم يقولون ولا يفعلون يكونون بذلك غير صادقين والكذب والادعاء هما مفتاح الشيطان إلى قلوب البشر وكما يدعي الشياطين أنهم أحاطوا بالغيب كاذبين يدعي هؤلاء الشعراء أنهم يقولون الحق وهم كاذبون. إذاً فالموقف هنا موقف من الكذب والادعاء وموقف من القول الذي لا يعكس الحقيقة بل يحاول عن طريق التلاعب بالألفاظ وزخرف القول أن يخدع السامعين فيقلب لهم الوهم حقيقة ويكون الشعر هنا أقرب إلى السحر باعتبار التأثير والرسالة: التأثير في قلوب السامعين ورسالة الوهم والادعاء الباطل.

ومن الادعاءات الباطلة التي يدعيها الشعراء من الكفّار الذين يتبعهم الغاوون من الشياطين والمغويين من البشر أن ما جاء به القرآن شعر وبتأثير الجن والشياطين بينما يثبتون عجزهم على أن يأتوا بمثله فهم يقولون ما لا يفعلون أي يقولون إنه شعر ولا يستطيعون أن يأتوا بمثله ويقولون إن الرسول شاعر مجنون ومجنون لا تعني فاقد عقله بل إنه مقاد من الجن وهم يدعون أن الجن تناصرهم وتقذف الشعر على ألسنتهم ومع ذلك لا يستطيون أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو أقل.

وإذا كان القرآن قد نُبّه إلى خطورة القول بعامة واعتبر اللسان نعمة من نعم اللّه لا بد من استخدامها في الحق **﴿ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين. . .﴾** فإن الشعر باعتباره قولاً مؤثراً تتضاعف خطورته ومسؤولية الشعراء القائلين له ويكون ضرره شديداً إذا ما استخدم استخداماً سيئاً يخدم أغراض الشيطان ويكون أداته في الفتنة والغواية أما إذا كان أداة الدفاع عن الحق والانتصار للظلم فهو صفة من صفات الإيمان **﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾** كما أن التحريض على الثورة والرفض مهمة رسالية.

الإيمانُ والإسلام

﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا اللّه ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن اللّه غفور رحيم * إنما المؤمنون الذين آمنوا باللّه ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل اللّه أولئك هم الصادقون﴾

[الحجرات 14 ـ 15].

من القضايا التي طرحت ولا تزال في مجال الدراسات القرآنية قضية الإيمان والإسلام والعلاقة بينهما فهناك من يقول إن الإسلام شيء والإيمان شيء آخر ومنهم من يرى أن العلاقة بين الإسلام والإيمان علاقة خصوص وعموم فكل إيمان إسلام وليس كل إسلام إيمان وقبل أن أتناول من خلال القرآن هذه القضية أرى ضرورة استشارة معجم اللغة في معنى الإيمان والإسلام إذ أن الدلالة اللغوية تفيد في معرفة الدلالات المستجدة على اللفظ والتي غالباً لا تخرج كثيراً عن الدلالة الأصلية الأولى. يقول الجوهري «آمن بالشيء: صدق.. وأصل آمن أأمن، بهمزتين لينت الثانية، ومنه المهيمن، وأصله مؤامن، لينت الثانية وقلبت ياء وقلبت الأولى هاء، قال ابن بري: قوله: بهمزتين لينت الثانية والصواب في رأيه أن يقال أبدلت الثانية، وأما ما ذكره في مهيمن من أصله مؤامن لينت الهمزة الثانية وقلبت ياء لا يصح لأنها ساكنة، وإنما تخفيفها أن

تقلب الفاء لا غير، قال: مثبت بهذا أن مهيمناً من هيمن فهو مهيمن لا غير. وحد الزجاج الإيمان فقال: الإيمان إظهار الخضوع والقبول للشريعة ولما أتى به النبي صلّى اللّه عليه وسلّم، واعتقاده وتصديقه بالقلب، فمن كان على هذه الصفة فهو «مؤمن مسلم غير مرتاب ولا شاك وهو الذي يرى أن أداء الفرائض واجب عليه لا يدخله في ذلك ريب»(1).

وفي دلالة الإسلام يقول ابن منظور «الإسلام، والاستسلام: الانقياد. والإسلام من الشريعة، إظهار الخضوع وإظهار الشريعة والتزام ما أتى به النبي، صلّى اللّه عليه وسلّم، وبذلك يحقن الدم ويستدفع المكروه» ثم يقول (وما أحسن ما اختصر به ثعلب ذلك فقال: الإسلام باللسان والإيمان بالقلب)(1) ويمكنك أن تلاحظ أنه من خلال ما سبق استعراضه من دلالات للإيمان والإسلام فإن الدلالات الجديدة الدينية أضيفت إلى المعنى وإن الدلالة اللغوية تعطينا مفهوماً خلاصته أن الإيمان باعتباره تصديقاً يقتضي بالضرورة تسليماً وانقياداً بينما مجرد التسليم والانقياد لا يعني بالضرورة دلالته على الإيمان والتصديق. وهنا نشير إلى ما سبق وأن ذكرناه في النظرات السابقة حول موضوع الاختيار والإرادة والفعل فالإنسان الكامل هو الذي لا يفعل إلا ما يختار ويريد إذ أن فعل الإرادة هو دليل كمال هذه الإنسانية وبالطبع فإن الاختيار الإنساني يقتضي كما ذكرت معرفة صحيحة يكون التعقل فيها تعقلاً إنسانياً وهنا ينتفي وجود تعارض بين الفعل والاختيار والإرادة وتكون هي جمعاً مكملة لبعضها البعض فإيمان الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم والمؤمنون إيمان كامل لا تعارض فيه وإسلامهم أي قبولهم وانقيادهم وتسليمهم بالقول الذي يؤكده والفعل الذي هو مظهر الالتزام بالإيمان، ويكون القول مرحلة اكتمال صورة الإيمان المسلم، أو الإسلام المؤمن أما أولئك الذي يفعلون ما لا يؤمنون به أي يفعلون دونما إرادة يسبقها إيمان بوجوب الفعل هؤلاء هم دون مرتبة الإنسان إذ أن الفعل غير الإرادي ليس بالضرورة أن يكون إنسانياً فالكثير من الآلات تقوم بأفعال والعديد

(1) ابن منظور، المرجع السابق، مجلد 13، ص 23، دار صادر، بيروت.
(2) ابن منظور، المرجع السابق، المجلد 12، ص 295، دار صادر، بيروت.

من الحيوانات تدرب على القيام بأفعال هي الأخرى ولكن لا يرقى فعلها إلى الفعل الإنساني لأن الاختيار والإرادة معدومان فيها.

إذاً ففي قوله تعالى **﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾** هو تعبير عن المرحلة الأخيرة وهي مرحلة السلوك غير المختار والمراد أي هو تعبير عن المرحلة الدنيا للفعل وهو العقل الغريزي الذي يقوم به هؤلاء لحماية أنفسهم والذي من قبيله ما أورده ابن منظور «إظهار الشريعة والالتزام ما أتى به النبي وبذلك يحقن الدم ويدفع المكروه» أي هو سلوك أدنى من السلوك الإنساني الإرادي المختار الذي يكون الإنسان فيه مسؤولاً عنه ومن هنا فقد أشارت الآية الكريمة التي هي تربية وتعليم لهؤلاء الأعراب حديث العهد بالرسالة إلى الإيمان الحقيقي حيث وصف القرآن الكريم المؤمنين بأنهم الذين آمنوا بالله ورسوله والإيمان بالله ورسوله يخرج عن مرحلة القبول الظاهري الذي لا يرقى إلى مستوى التصديق والإيمان الإنساني وبالطبع فإن الإيمان بالله ورسوله لا يمكن أن يداخله ارتياب ولا شك فالارتياب والشك ربما يكون في قلوب هؤلاء الأعراب الذين يطوفون بجنة الإيمان ولما يدخلوها ثم يضيف القرآن، الجهاد بالمال والنفس أي أن الإيمان بالله ورسوله وعدم الارتياب هو الذي يدفع الإنسان إلى الجهاد بالمال والنفس اعتقاداً بثواب الله وطمعاً من رضاه كما أن الجهاد هو التأكيد العملي على صدق هذا الإيمان الذي استحق أن يصف الحق تبارك وتعالى أصحابه بقوله **﴿أولئك المؤمنون حقاً﴾** واستخدام **الإشارة** التي تدل على البعد تشريف من الحق تبارك وتعالى لهم وتأكيد على علو الشأن الذي لا يدرك إلا بالشروط التي توفرت فيهم ولم تتوفر في غيرهم.

هل يزيد الإيمان وينقص؟

﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً﴾ [الفتح 4].

أتذكر وأنا في فصول الجامعة أن أستاذ الشريعة كان وهو يلقي علينا دروساً

في «العقائد» يصر على تأكيد أن الإيمان يزيد وينقص ورغم تأكيدي على أن الوحدة الإسلامية لا تقبل بهذا الجمع في قولنا عقائد إذ أن الإسلام عقيدة واحدة وأن الإيمان **بالغيبيات** ليست عقائد بل متطلبات هذه العقيدة ونتاج لها **فإنني** استسمح أستاذي عذراً لأقول إن الإيمان يزيد ولا ينقص فإذا نقص يمكن لنا أن نعتبره أي شيء آخر لا الإيمان والحق تبارك وتعالى يقدم لنا صورة لأعلى درجات الإيمان وهي السكينة والطمأنينة والتي هي حالة الاستقرار الكامل التي تسيطر على نفس الإنسان المؤمن وهي نتاج مغالبة ومجاهدة ومعاناة يصل الإنسان بها إلى مرحلة الكمال الإنساني الذي يمثل الأنبياء صلّى اللّه عليهم وسلّم الأسوة والنموذج لها. وقصة إيمان إبراهيم عليه السلام وإبراهيم كما ذكرت سابقاً أمة بكل ما تعنيه الأمة من الأسوة والنموذج والمثال إيماناً، ومنهجاً وهدفاً، ووسيلة تروي لنا هذه الحقيقة فإبراهيم عليه السلام الذي آمن بربّه كان يبحث عن المرحلة الأعلى للإيمان التي تليق بالأنبياء **والرسل** وهي المرحلة التي وصفها القرآن بالطمأنينة **﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن اللّه عزيز حكيم﴾** وكما ترى فإن السؤال يدور حول «كيفية» إحياء الموتى أي على الأسلوب الذي سيتم به الإحياء وليس الإحياء ذاته إذ أن الاحياء والبعث قضية آمن بها إبراهيم وأسلم لها ومن هنا كانت إجابة إبراهيم على «الاستفهام الإعلامي» لا الإنكاري إذ أنه تعالى يعلم حقيقة إيمان إبراهيم ولكن ليعلمنا نحن أن إبراهيم بسؤاله كان مؤمناً **﴿أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾** فالسؤال عن الكيفية إذاً للطمأنينة والطمأنينة مرحلة استقرار ومرحلة سكينة يكون الإيمان الذي هو من الأمن أولى مراحلها. إن الآيات الكريمة في سورة الحجرات التي وصفت الذين آمنوا بأنهم لم «يرتابوا» دليل على أن الإيمان الحق لا ينقص ولا يقبل أصلاً بهذا النقص كما أن مقتضيات الإيمان الكامل هو الفعل الإيماني **﴿وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل اللّه﴾** وقوله تعالى في سبيل اللّه قيد لهذا الجهاد بالمال والنفس فالإنسان قد يقاتل وقد ينفق أمواله ولكن ليس في سبيل اللّه بل ربما يكون في الصف المعادي للّه تعالى وفي صف

الشيطان ومن هنا يذم اللّٰه تعالى الفعل الشائن لليهود الكفار الذين يدعون الإيمان ويفعلون خلافه **﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾** [البقرة 92].

إذ كيف يدعي هؤلاء اليهود الكفار الإيمان وهم يفعلون نقيضه قولاً وعملاً؟ وفي سورة الأحزاب يضرب اللّٰه مثلاً لنجاح المؤمنين في الامتحان العملي وبالمقابل يقدم نموذج الأعراب الذين جاءوا من البادية ليعلنوا إسلامهم دونما إيمان بالغيب وبأن وعد اللّٰه حق بإثابة المؤمنين وخذلان الكفار كما يطلق على هؤلاء الأعراب المتخاذلين الذين لا يكتفون بالهروب من ميدان الامتحان العملي بل ويحاولون تثبيط العزائم وإعاقة من سواهم **﴿قد يعلم اللّٰه المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلمَّ إلينا ولا يأتون البأس إلاّ قليلاً * أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم من الخوف كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط اللّٰه أعمالهم وكان ذلك على اللّٰه يسيراً * يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلاّ قليلاً * لقد كان لكم في رسول اللّٰه أسوة حسنة لمن كان يرجو اللّٰه واليوم الآخر وذكر اللّٰه كثيراً * ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا اللّٰه ورسوله وصدق اللّٰه ورسوله وما زادهم إلاّ إيماناً وتسليماً﴾** [18-22 الأحزاب].

فهذه الآيات تصور الفرق بين الإيمان الذي يزيد في المواقف التي تقتضي تأكيداً عملياً على صدق الباطن وبين التسليم الظاهري الذي لا يقوى على الثبات فالمؤمنون يزيدهم موقف الاستعداد لقتال الكفار إيماناً بالنصر وإيماناً بلقاء ربهم والفوز بنعيمه والإيمان بأمر اللّٰه تعالى لهم بوجوب أن يجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم أما المخلفون من الأعراب المعوقون فقد صور القرآن بأسلوبه المعجز حالهم تصويراً حسياً حتى لكأننا نراهم رأي العين حيث يعكس التصوير حالهم المخزية التي كثيراً ما نرى لها نماذج اليوم **﴿تدور**

أعينهم من الخوف كالذي يغشى عليه من الموت﴾ فإذا ذهب الخوف كان التشدق وكانت المزايدة والادّعاء الباطل ﴿سلقوكم بألسنة حداد﴾ وهنا يكشف الحق تبارك وتعالى باطنهم ﴿أولئك لم يؤمنوا﴾ إذ كيف يكون مؤمناً من يخاف لقاء أعداء الله وقد وعده الله بالنصر في الدنيا والفوز في الآخرة؟!

النظرة السابعة عشر

بين السُّنّة والأسوَة

لقد درج البعض على القول بالسنة النبوية وعلى نمط التقسيم المدرسي يقسمون هذه السنة إلى قول وفعل وإقرار فالقول هو ما قاله الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم «فعله أو لم يفعله»، والفعل هو ما قام به الرسول «قاله أو لم يقله» والإقرار هو ما أقر آخر أو آخرين على فعله بالقول أو السكوت. وفي اعتقادي أن القول بوجود سنة للرسول صلّى اللّه عليه وسلّم اسمها السنة النبوية قول يمس جوهر التوحيد أصلاً ويتعارض مع المهمة الرسالة التي حددها اللّه سبحانه وتعالى لرسوله الكريم وكما درجنا على القول فلا بد أن أتناول الدلالة اللغوية للفظ سنة قبل أن نفصل القول فيها. ففي لسان العرب يقول ابن منظور «سنة اللّه: أحكامه وأمره ونهيه، هذا عن اللحياني وسنّها اللّه للناس بينها. وسن اللّه سنة أي بين طريقاً قويماً: قال اللّه تعالى: **﴿سنة اللّه في الذين خلوا من قبل﴾**، نصب سنة اللّه على إرادة الفعل أي سن اللّه ذلك في الذين نافقوا الأنبياء وأرجفوا بهم أن يقتلوا أين ما ثقفوا أي وجدوا والسُّنة: السيرة، حسنة كانت أو قبيحة قال خالد بن عبد الهزلي:

فلا تجز عن سيرة أنت سرتها فأول راض سنة من يسيرها

وفي التنزيل: **﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين﴾**، قال الزجاج: سنة الأولين أنهم عاينوا العذاب فطلب المشركون أن قالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا

حجارة من السماء» **وسننتها سناً، واستننتها: سرتها»**[1].

فالسنة هنا الطريقة والسيرة وسن فلان سنة أي طرق طريقاً وهي لا تكون في هذا المعنى إلاّ عملية فالقول ليس سنة لأنه لم يتحول إلى مرحلة الفعل بعد كما أن إقرار شخص آخر على فعل هو سنة الفاعل لا سنة الذي يقره على الفعل. ولهذا فإننا نرى أنه عندما لم تسعف الدلالة اللغوية للسنة التي لا تقبل القول والإقرار القائلين «بالسنة المحمدية» جاؤوا «بتقسيم مدرسي» ينم عن تمحل وإكراه وتمطيط للألفاظ لتسع غير ما هي قادرة على احتماله.

فإذا تجاوزنا هذا التوسع اللغوي غير المقبول إلى القرآن الكريم فاننا نجد السنة قد تكررت في القرآن الكريم في أكثر من موضع وكلها تشير إلى سنة اللّه تعالى يقول تعالى في سورة الأحزاب **﴿ما كان على النبي من حرج فيما فرض اللّه له سنة اللّه في الذين خلوا من قبل وكان أمر اللّه قدراً مقدوراً﴾** [39] فالتطبيق والتنفيذ هنا للرسول استجابة لسنة اللّه تعالى وشرعته وليس سنة الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم وفي سورة الأحزاب أيضاً، يقول عز من قائل: **﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلاّ قليلاً * ملعونين أين ما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً * سنة اللّه في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة اللّه تبديلا﴾ [60 _ 62].**

فهذا حكم اللّه في الكفار الذين في قلوبهم مرض والذين يصنعون الأراجيف ويحاولون تضليل الناس إذاً فهي سنة اللّه والرسول والمؤمنين يتبعون سنة اللّه وينفذون حكمه.

وفي سورة فاطر يقول تعالى في شأن الكفار المعاندين **﴿وأقسموا باللّه جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلاّ نفوراً * استكباراً في الأرض ومكر السيىء ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنت الأولين فلن تجد لسنت اللّه تبديلا ولن تجد لسنت اللّه تحويلاً * أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من**

---

(1) ابن منظور، المرجع السابق، مجلد 13، ص 225، دار صادر، بيروت.

قبلهم كانوا أشد منهم قوة وما كان اللّٰه ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان علياً قديرا﴾ [فاطر 42-44] فسنة اللّٰه في الذين خلوا من قبل من المعاندين أن كان مصيرهم غضب اللّٰه وانتقامه الذي لم يستطع وهم القوة البشرية التي كانت وراء الاستكبار والعناد أن يبدل حكم اللّٰه فيهم.

إذاً فهذه الآيات وغيرها تؤكد لنا أن السنة كما يقدمها القرآن الكريم هي سنة اللّٰه تعالى والحكم والشرعة هي كلمته وشرعته أما الرسول صلّى اللّٰه عليه وسلّم باعتباره رسولاً من اللّٰه تعالى فإنه لا يسن ولا يشرع ولكن ينفذ أمر اللّٰه ويعمل بمقتضى هذه الأحكام ويعلم الناس الكتاب والحكمة فلا يفعل من أمر الشريعة إلاّ ما أمره اللّٰه به أن يفعل ولا يقول في مجال الشريعة إلاّ ما أمر اللّٰه به أن يقال **﴿فلا أقسم بما تبصرون * وما لا تبصرون * إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون * تنزيل من رب العالمين * ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾** [الحاقة 38، 47].

إن القول بأن الرسول سن وإنه يسن هو ادعاء باطل يصل إلى مرحلة الشرك باللّٰه وكذب على اللّٰه ورسوله لا يتحمل إصره إلا القائلون به فلا حكم إلاّ للّٰه ولا تشريع إلا للّٰه ولا سنة إلا سنة اللّٰه تعالى.

الرسول الأسوة

بعد أن استعرضنا مفهوم السنة باعتبارها قاصرة شرعاً على اللّٰه تعالى في مجال الشريعة وأن الرسول باعتباره رسولاً للّٰه تعالى فان هذه المهمة تقتضي أن يكون المبلغ عن ربه قولاً والمنفذ لأمره عملاً وهو في قوله وعمله الشرعي لا يصدر إلا عن هذه السنة حكماً وممارسة. ومن هنا كان الرسول صلّى اللّٰه عليه وسلّم أسوة لنا لا باعتباره يسن ويشرع ولكن باعتباره يعمل ويسلك وفق ما أمره اللّٰه به والأسوة ذات دلالة غير دلالة السنة إذ هي تعني القدوة. أي أن الرسول الكريم صلّى اللّٰه عليه وسلّم هو قدوة لنا باعتباره المثل الأعلى في الكمال الإنساني في الصدق قولاً وعملاً وليس باعتباره يسن سنناً ويشرع شرائع ويطرق

طرقاً. وان كان للبشر الآخرين أن يفعلوا ذلك لأنهم بشر وسننهم قد تكون حسنة أو سيئة فإن الرسول ليس مثلهم فهو لا يسن من عنده ولا يسلك في أمر الشريعة عن هواه بل هو في ذلك مجيب لأمر اللَّه ومنفذ وهو بذلك مثل بقية الرسل صلّى اللَّه وسلّم عليهم جميعاً أسوة وقدوة للمؤمنين في كل عصر.

وفي توضيح معنى أسوة:

يقول صاحب معجم مقاييس اللغة «لي فلان أسوة أي قدوة، أي إني **أقتدي** به. وأسيت فلاناً إذا عزيته، من هذا، أي قلت له: ليكن لك بفلان أسوة فقد أصيب بمثل ما أصبته به فرضي وسلم ومن هذا الباب: آسيته بنفسي»(1).

وفي هذا المعنى يقول الحق تبارك وتعالى في سورة الأحزاب في حقه صلّى اللَّه عليه وسلّم **﴿لقد كان لكم في رسول اللَّه أسوة حسنة لمن كان يرجو اللَّه واليوم الأخر وذكر اللَّه كثيراً * ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا اللَّه ورسوله وصدق اللَّه ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾** [الأحزاب 21، 22].

فالمقام هنا مقام الرسول القدوة والأسوة الحسنة الذي قال صدقاً وصدق عملاً. وفي سورة الممتحنة ضرب اللَّه لنا مثلاً إبراهيم والذين معه باعتباره أسوة لنا يقول عز من قائل **﴿قد كان لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون اللَّه كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا باللَّه وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من اللَّه شيئاً ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير * ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم * لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو اللَّه واليوم الآخر ومن يتول اللَّه فإن اللَّه هو الغني الحميد * عسى اللَّه أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة واللَّه قدير واللَّه غفور رحيم﴾** [الممتحنة 4-7].

ومقام إبراهيم عليه السلام والذين معه ليس مقام السنة والتشريع بل مقام

(1) أبو الحسن أحمد بن فارس، المرجع السابق، المجلد الأول، ص 105، 106.

القدوة والمثل في الموقف والسلوك فموقفهم من الكفار موقف مبدئي ثابت لا يتراجعون عنه إلا إذا آمن هؤلاء الكفار بالله وحده واستغفار إبراهيم لأبيه هو واجب البنوة البارة ولا يفهم منها غير ذلك ومن هنا كان موقفه من أبيه بعد أن اتضح كفره وعناده صارماً تمثل في البراءة منه. وبالتالي فموقف إبراهيم والذين معه أسوة للرسول والذين آمنوا واجبة الاتباع يقول الحق تبارك وتعالى ﴿**ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعدما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم * وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين لـه أنه عـدو لله تبرأ منـه إن إبراهيم لأواه حليم**﴾ [التوبة 114-115] والوعد الذي ألزم إبراهيم الوفاء به هو ما ذكره القرآن الكريم في سورة الممتحنة على لسان إبراهيم: ﴿. . **لأستغفرن لك وما أملك لك من الله شيئاً** . .﴾.

إننا في هذا العصر المليء بالأزمات التي تعتصر المسلمين اعتصاراً وقد أطلت الفتنة بطلعها كأنها رؤوس الشياطين نجد أنفسنا انطلاقاً من عقيدة التوحيد التي لا تقبل التجزؤ في أمس الحاجة إلى جيل مسلم جديد يرى في شريعة الله سنة وفي رسوله أسوة جيل لا يقول بمصادر التشريع بل بمصدر واحد للتشريع هو القرآن الكريم ولا بمشرع إلا الله فالشرعة شرعته والسنة سنته فالله الواحد تستلزم وحدانيته الشريعة الواحدة التي تهدي إلى الصراط الواحد ورسول هذه الشريعة السمحاء والسنة الثابتة هو النموذج وهو الأسوة والقدوة في تنفيذ أمر الله ﴿**إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة * التي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين * وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين * وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون**﴾ [النمل 93:95].

أفما آن لنا أن نرى الآيات ونعرفها ونعود إلى الاستمساك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، تـاركين الميل إلى حكم الهـوى والتشبث بخيوط العنكبـوت الواهية! . . . ! . . . !

النظرة الثامنة عشر

القرآن والنسخ

ألححت في أكثر من موضع على حقيقة أن الشرائع الإلّهية جميعها تهدف إلى العودة بالإنسان إلى حياة الفطرة أي إلى الإنسانية الكاملة المستوية التي صبغ اللّه الناس عليها وأن هذه الشرائع بحكم هذه المهمة ينزلها الله رحمة للناس كلما انحرف بهم سلطان الهوى وغواية الشيطان عن الصراط المستقيم فتوضح لهم هذا الصراط وتهديهم إليـه وبالتالي تسقط الحجة على المنحرفين والرافضين لدعوة اللّه إياهم إلى العودة إلى الفطرة فيستحقون بذلك أي بكفرهم وعنادهم رغم وضوح الطريق واستقامة الصراط واكتمال المنهج، يستحقون غضب اللّه ويكون العذاب نتيجة كفر مثلما تكون الجنة ثواب إيمان وعمل، **يقول** الحق تبارك وتعالى في سورة الإسراء ﴿**من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً**﴾ [الإسراء: 15]. وفي سورة المائدة يقول عز من قائل ﴿**يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير**﴾ [المائدة: 21].

إذاً فالرسالات الإلّهية تأتي على فترة من الرسل يكون الناس فيها قد ابتعدوا عن جادة الصواب وانحرفوا عن سواء السبيل فتكون الشريعة نوراً يضيء الطريق من جديد ويكون الرسل رحمـة ينقذ اللّه بهم النـاس من التخبط والضلال. وربما تساءل البعض عن مدعاة هذه المقدمة وعلاقتها بنظرة حول

القرآن والنسخ إلا أن هذه المقدمة أراها توطئة هامة لهذه النظرة للتأكيد على أن الشرائع عامة لا ترسم شكلاً جديداً للإنسان بل ترجع إلى البدء فهي شرائع رجوعية والفطرة باعتبارها الأصل تتميز بالديمومة والثبات لأنها الحقيقة. والحقيقة بحكم كونها كذلك فهي تتجاوز كما ذكرت سابقاً الزمان والمكان. والإنسان بحكم محدوديته زماناً ومكاناً يحتاج إلى أسلوب يماشي حركة الإنسانية ومحدودية الزمان والمكان الذي يعيش فيه وهو يتميز بالصيرورة فالثبات إذاً للقيم والحقيقة والتغيير والصيرورة الموصلة إلى القيم أو الحقيقة أو الغاية المطلقة التي يجسدها الإنسان الفطري الكامل للأساليب والوسائل. ومن هنا كانت الشرائع الإلهية بحكم تعاملها مع هذا المحدود وصولاً به إلى المطلق وبحكم أنها من الخالق الذي يعلم ما خلق ولا يكلف نفساً إلا وسعها إذاً فالشرائع تكون بحجم قدرة الإنسان على احتمال التكاليف من جهة وبمدى استفحال المرض والانحراف الذي يقتضي طرائق في العلاج وأساليب قد تتنوع لتنوع المرض باعتباره حالة طارئة ومن هنا كانت الشرائع الإلَهية شرائع تتميز بحكم «الفترة» بمرحلية العلاج لمرض لا ديمومة الصحة بالكمال والفطرة، وقد أشرت في نظرات سابقة إلى العلاقة بين الشرائع والمعجزات وكيف أن المعجزات ذاتها قد تعاملت في هذه المحدودية الإنسانية والمكانية والزمانية وأوضحت علاقة ذلك بشريعة القرآن الكاملة المهيمنة إن هذه المقدمة أراها هامة لحديث هو موضوع هام وخطير وهو موضوع النسخ ولكن وقبل أن أسترسل في القول أرى لزاماً أن أتناول الدلالة اللغوية للنسخ والآيات القرآنية التي تناولت هذه اللفظة كي أستطيع من خلالها التوطئة لتوضيح مفهوم النسخ في القرآن يقول صاحب اللسان «نسخ الشيء ينسخه نسخاً وانتسخه واستنسخه اكتتبه عن معارضة وفي التهذيب: النسخ اكتتابك كتاباً عن كتاب حرفاً بحرف، والأصل نسخة، والمكتوب عنه نسخة لأنه قام مقامه، والكاتب ناسخ ومستنسخ» وهو ما يؤكد عليه ابن منظور بقوله والاستنساخ كتب كتاب من كتاب، وفي التنزيل: ﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾، أي نستنسخ ما تكتب الحفظة فيثبت عند الله، وفي التهذيب أي نأمر بنسخه وإثباته، ويضيف ابن منظور قائلاً والنسخ إبطال الشي وإقامة آخر مقامه، وفي التنزيل: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو

مثلها﴾، والآية الثانية ناسخة والأولى منسوخة. وقرأ عبد الله بن عامر: ما ننسخ من آية «بضم النون الأولى» يعني ما ننسخك من آية ويرد ابن منظور قول ابن عامر باعتبار القراءة هي الأولى، أي بفتح النون، كما يورد رأي ابن الأعرابي الذي يقول «النسخ تبديل الشيء من الشيء وهو غيره، ونسخ الآية بالآية: إزالة مثل حكمها. والنسخ: نقل الشيء من مكان إلى مكان وهو هو»[1].

إذاً فلمفردة نسخ دلالتان لغويتان الأولى بمعنى النقل من مكان إلى مكان، والثانية بمعنى الإزالة والإبطال.

وما دمت بصدد توضيح الدلالة القرآنية لهذه المفردة فإنني أرى من الضرورة تناولها في جميع المواضع التي وردت منها في القرآن الكريم. حيث نجدها قد وردت في مقامات أربع: الأولى في سورة البقرة والثانية في سورة الأعراف والثالثة في سورة الحج والرابعة في سورة الجاثية.

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا أنظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم * ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم * ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن اللّه على كل شيء قدير * ألم تعلم أن اللّه له ملك السموات والأرض وما لكم من دون اللّه من ولي ولا نصير * أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل * ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا عنهم واصفحوا حتى يأتي اللّه بأمره إن اللّه على كل شيء قدير * وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند اللّه إن اللّه بما تعملون بصير * وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين * بلى من أسلم وجهه للّه وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف**

---

(1) ابن منظور، المرجع السابق، مجلد 3، ص 61، دار صادر، بيروت.

عليهم ولا هم يحزنون﴾ [البقرة: 103 - 111].

أما الموضع الثاني في سورة الأعراف فيقول عز من قائل ﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال يا ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين * قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين * إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين * والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم * ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾ [الأعراف: 150 - 154]. وفي سورة الحج يقول الباري عز وعلا ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ اللَّه ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم * ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد * وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن اللَّه لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم * ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾ [الحج: 50 - 53]. وفي الموضع الرابع في سورة الجاثية يقول العزيز الحكيم ﴿ولله ملك السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون * وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون * هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين * وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين * وإذا قيل إن وعد اللَّه حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين﴾ [الجاثية: 26 - 31].

هذه هي المواضع الأربع التي ورد فيها لفظ نسخ في القرآن الكريم وقد حاول الكثيرون من خلالها إثبات أن هناك نسخاً بمعنى الإزالة في القرآن الكريم

وأن هناك آيات ناسخات وآيات منسوخات بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك فقالوا إن حديث الرسول ينسخ القرآن وحاشا له أن يتقول على اللّه الأقاويل، وابتدعوا لدعواهم هذه طرائق شتى لا يقبل بها إلا من أضله اللّه بسوء عمله. ويستشهد هؤلاء عادة في إثبات النسخ في القرآن بالآيات التي وردت في سورة البقرة والتي سأرجىء الحديث فيها لأن تناول المواضع الأخرى هو الآخر يظل ضرورياً لإيضاح الوهم الذي علق بأذهان بعض الذين تصدوا للقرآن الكريم بالتفسير فذهبوا في تفسير هذه الآيات مذاهب شتى لا تنم إلا عن قصور وعجز كان له التأثير الكبير في ثقافات وعقول الكثير من المسلمين.

ففي سورة الأعراف يصور الحق تبارك وتعالى الحال النفسية التي كان عليها موسى عندما أخبره الحق تبارك وتعالى عما صاروا إليه فوجدهم قد أضلهم السامري فاتخذوا العجل الذي استحقوا به أن يعجل اللّه عذابهم وكيف أن موسى ألقى الألواح التي فيها حكم اللّه وأخذ برأس أخيه يجره وهو بحال الغضب التي استولت عليه فألقى الألواح ثم يرعوي بعد قليل ويسكت **عنه الغضب البشري** وينتبه إلى المهمة الرسالية الصعبة فيأخذ الألواح **﴿وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾** والنسخ هنا بمعنى التحويل والانتقال أي تحويل الأحكام من اللوح المحفوظ إلى ألواح موسى التي استنسخها أي نقلها واللوح المجفوظ لا يبدل اللّه فيه القول إذ أن تبديل القول باطل **﴿ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد﴾** [ق: 29].

وفي سورة الحج وهذا موضع يحتاج منا إلى الوقوف كثيراً لأن الظن قد ذهب بالناس فيه مذاهب شُتى حيث يقول الحق تبارك وتعالى **﴿وما أرسلنا من قبلك من نبي إلاّ إذ تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ اللّه ما يلقي الشيطان ثم يحكم اللّه آياته واللّه عليم حكيم * ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد﴾**.

فقد ذكر المفسر الشيعي الفيض الكاشاني في كتابه تفسير الصافي وهو الكتاب المليء بالتأويلات والتمحلات التي تناسب هواه الشيعي أنه «**روي** عن أبي عبد الله عليه السلام أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أصابته خصاصة

فجاء إلى رجل من الأنصار فقال له هل عندك من طعام فقال نعم يا رسول اللّه وذبح له عناقاً وشواه فلما أدناه منه تمنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أن يكون معه علي وفاطمة والحسن والحسين عليه السلام فجاء أبو بكر وعمر ثم جاء علي بعدهما فأنزل اللّه عز وجل في ذلك وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته يعني أبا بكر وعمر فينسخ اللّه ما يلقى الشيطان يعني لما جاء علي عليه السلام بعدهما ثم يحكم اللّه آياته للناس يعني ينصر اللّه أمير المؤمنين علي عليه السلام»[1].

ولا أظـن اننا هنا في حاجة إلى إيضاح هذا التهافت ويكفيه أنه في تفسير اسمه «الصافي». . ! ولكن أريد التنبيه هنا إلى تحريف في القرآن الكريم حيث يضيف صاحب «الصافي» أو محدّث «ثم يقول في تعليل هذه الإضافة» وفي الكافي في عدة روايات أن الأئمة عليهم السلام كانوا **محدّثين** كانوا يسمعون الصوت ولا يرون الملك!!![2].

أما النسفي في تفسيره فيروي قصة باطلة غريبة ولا يقل عنها غرابة سوى تأويله المضمن لها حيث يقول «ألقى الشيطان في **أمنيته**: تلاوته **قالوا**: إنه عليه السلام كان في نادي قومه يقرأ والنجم فلما بلغ قوله ومناة الثالثة الأخرى جرى على لسان تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى ولم يفطن له حتى أدركته العصمة فتنبه عليه وقيل نبهه جبريل عليه السلام فأخبرهم أن ذلك كان من الشيطان ثم يقول النسفي: «وهذا القول غير مرضي لأنه لا يخلو **إما** أن يتكلم النبي عليه السلام بها عمداً وأنه لا يجوز لأنه كفر ولأنه بعث طاعناً للأصنام لا مادحاً لها أو أجرى الشيطان ذلك على لسان النبي عليه السلام جبراً بحيث لا يقدر على الامتناع منه وهو ممتنع لأن الشيطان لا يقدر على ذلك في حق غيره لقوله تعالى **﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾**، ففي حقه أولى أو جرى ذلك على لسانه سهواً وغفلة وهو مردود أيضاً لأنه لا يجوز مثل هذه الغفلة عليه في حال تبليغ الوحي ولو جاز ذلك لبطل الاعتماد على قوله ولأنه تعالى قال في صفة

---

(1) االفيض الكاشاني، المرجع السابق، جزء ـ ص 386.

(2) الكاشاني، المصدر السابق، جزء 3، ص 386، مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت.

المنزل عليهم ﴿**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه**﴾ وقال: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾، فلما بطلت هذه الوجوه لم يبق إلا وجه واحد «وهو الوجه المرضي عنده طبعاً» وهو أنه عليه السلام سكت عند قوله ومناة الثالثة الأخرى فتكلم الشيطان بهذه الكلمات متصلاً بقراءة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فوقع عند بعضهم أنه عليه السلام هو الذي تكلم بها فيكون هذا إلقاء في قراءة النبي عليه السلام وحتى يؤكد النسفي ما ذهب إليه يقول «وكان الشيطان يتكلم زمن النبي عليه السلام ويسمع كلامه فقد روي أنه نادى يوم أحد: إلا أن محمداً قد قتل وقال يوم بدر: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم!!!»(1).

وفي نظري أن ما قاله النسفي جهد ضائع من الأساس لأنه جاء كمحاولة لتأويل رواية هي باطلة أصلاً ولا علاقة للموضع الذي ذكره القرآن الكريم في سورة الحج بها، والنسفي بدل أن يأتي إلى الآية الكريمة فيفهمها فهماً قرآنياً ذهب إلى هذه القصة المزعومة فجعلها مسلمة لا شك فيها رغم تعارضها الكامل مع حقيقة أن الرسول الكريم لا ينطق عن الهوى وإن القرآن الكريم وحي يوحى، وإن الشياطين لا يكون لها إذا ذكر الرحمن مكاناً هذا علاوة على الأسباب التي أشرت إليها أثناء تناولي لنظرة القرآن والشعر.

إن هذه الآيات التي وردت في سورة الحج مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالآيات التي وردت في سورة البقرة فهي تشير إلى موضوع هام له علاقة بموضوع النسخ ومفهوم الآية التي أشار اللّه إليه في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿**ما ننسخ من آية...**﴾ ففي سورة الحج يتحدث القرآن الكريم عن أماني الرسل جميعاً وليس محمداً صلّى اللّه عليه وسلّم وحده فالرسل جميعاً كان يتمنون أن يهدي اللّه جميع أقوامهم المبعوثين إليهم وكانوا في سبيل ذلك يعملون ليلاً نهاراً حتى لقد صوّر القرآن الكريم حال رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم وفي سورة الكهف ﴿**فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً**﴾ كما صور القرآن حال إبراهيم ونوح وغيرهما من أولي العزم من الرسل. وهؤلاء الرسل رغم

---

(1) عبد اللّه بن أحمد بن محمود النسفي، تفسير النسفي، جـ3، ص106، دار الكتاب العربي بيروت.

جلدهم وصبرهم ومعاناتهم في سبيل تبليغ الدعوة ورغبتهم أن يدخل الجميع الإسلام كانوا يودون لو استجاب اللّه لادعاء أقوامهم وذلك بتخفيف من الأحكام التي تتناولها الشرائع زعماً منهم أنه في غير مقدورهم القيام بها وكذلك طلب هؤلاء الأقوام من الرسل الإتيان بمعجزات تؤكد صحة الرسالات والرسل وقد كان الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم وحباً في هداية الناس يتمنى أن ينزل اللّه تعالى هذه الآيات الحسية على أمل أن يصدقه الكفار ويقبلون على الأخذ بالرسالة ولكن تبارك وتعالى يؤكد لا فائدة من إنزالها لأن طلبهم لها ليس دليل إيمانٍ يحتاج إلى الطمأنينة مثلما هو حال إبراهيم عليه السلام بل دليل كفر وتحد لا ينفع معه مشاهد ولا تفيد فيه آية بل إن الآيات في هذه الحال لن تزيدهم إلا عناداً أو كفراً،يقول تعالى في سورة النساء مؤكداً حقيقة أن هذه الطلبات والأسئلة قديمة من قبل المعاندين والكفار ﴿**يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا اللّه جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً * ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا ادخلوا الباب سجداً وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً**﴾ [النساء: 152 - 153].

فأهل الكتاب يتحدون الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم أن ينزل كتاباً من السماء وربما تمنى الرسول ذلك آملاً في إيمانهم وإقامة للحجة عليهم وعلى الكفار ولكن اللّه تعالى يوضح أن هذه الأسئلة لا يرجى من ورائها إيمان بل هي دليل كفر وأنهم قد سألوا الأنبياء أكثر من هذا ورغم أن اللّه قد استجاب لدعوات الأنبياء التي كانت تلبية لأماني أقوامهم إلا أنها لم تحقق الأمل الذي كان الأنبياء يرجونه من وراء تحققها فاتضح أنها لا تزيد الكفار إلا عناداً وتكذيباً.

إذاً فعدم نزول هذه الآيات الحسية استجابة للتحدي من قبل المشركين من أهل الكتاب والكفار هو مشيئة إلٰهية أحاطت بنفوس هؤلاء المكذبين والمعاندين علماً فأوضحت للرسول أن يكف عن تمني ما لا يريد اللّه أن يفعله، يقول تعالى في سورة الإسراء موضحاً سبب عدم إنزال الآيات المادية ﴿**وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً**﴾ [الإسراء: 59].

إن القرآن الكريم يوضح للرسول وأتباعه أن شريعة القرآن الإسلامية الخاتمة هي غير الشرائع السابقة وبالتالي فإن إعجازها لا يمكن أن يكون إعجازاً حسياً مؤقتاً فالشرائع السابقة مرتبطة بمحدودية المكان والزمان بل أدلة دائمة وثابتة ديمومة هذه الشريعة وثباتها كما أن معجزة القرآن هي في هذه الحقائق التي يقصها مصدقة لما بين أيدي أهل الكتاب من العلم وهي وحدها آية كبرى على صدق رسالة الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم **﴿وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى﴾** [طه: 132] وفي سورة يونس **﴿ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب للّه فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾** [يونس: 20].

وفي سورة غافر يوضح الحق تبارك وتعالى أن آية الرسول الخاتم هي آية ثابتة ودائمة وهي مشيئة من اللّه وأن الرسل لا يأتون بالآيات إلا بأمر اللّه ووفق ظروف المكان والزمان التي يعلمه اللّه بها **﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن اللّه فإذا جاء أمر اللّه قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون * اللّه الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون * ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون * ويريكم آياته فأي آيات اللّه تنكرون﴾** [غافر: 77 - 80].

إذا فالآيات التي يطلبونها موجودة ومادية وثابتة فأية آيات مادية أخرى يطلبون!...

إن النتيجة التي أخلص إليها من كل ما تقدم يمكن تلخيصها في الآتي:

1 ـ إن النسخ في مجال الشريعة يعني تحويلها ونقلها من اللوح المحفوظ إلى الرسول ولا يجوز أن يكون النسخ في أحكام اللّه فاللّه تعالى لا يبدل القول عنده.

2 ـ ولأن الشرائع هي نسخ من اللوح المحفوظ فإن كل رسول ينسخ له بقدر ما يلائم حاجة المرسل إليه لأن اللّه كما تؤكد الآيات القرآنية ينزل كل شيء

بقدر أما القرآن فلأنه خاتم الرسالات فقد جاء مهيمناً على كل الشرائع أي شاملاً لها لا ناسخاً لأحكامها بل ومصدقاً لها وسؤكداً.

3 ـ إن التكليفات في الشرائع هي بحسب وسع الناس لها وهي علاجات تقتضيها حالات المرض التي تكون عليها الأمم وهي وسائل تخدم غاية واحدة وهي الوصول بالإنسان إلى الفطرة والإسلام.

إن الآية التي أشار اللَّه إليها في قوله تعالى في سورة البقرة ﴿**ما ننسخ من آية**﴾ ليست الأحكام ولكن الآية هي العلامات الدالة على صدق الرسل والقرآن الكريم يبين هذا المعنى فالمسألة مسألة كراهية المشركين وأهل الكتاب أن ينزل اللَّه خيره على المؤمنين وأن هذا الحسد الذي يأكل قلوبهم يجعلهم يحاولون بكل وسيلة التشكيك في الأدلة القرآنية والآيات الواضحة البينة ويحاولون إغاظة المسلمين بأن الرسل السابقين قد أنزل اللَّه عليهم آيات وأن رسول القرآن لم يعط آيات مؤقتة كهؤلاء وهذا بالطبع قد يؤلم المسلمين ويكون فتنة لضعاف الإيمان والكفار ولذا حذر اللَّه المسلمين أن يسألوا رسولهم هذه الأسئلة ﴿**أم تريدون أن تسألوا رسولكم**﴾.

فالآيات التي أعطاها اللَّه للرسول غير الآيات التي أعطيت للرسل وليس بالضرورة أن تكون مثلها ﴿**ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن اللَّه على كل شيء قدير**﴾.

وسواء كان النسخ هنا الإزالة أو التحويل والنقل فإن المقام مقام الحديث عن الآيات المعجزة التي يعطيها اللَّه رسله فسواء تكررت هذه الآيات أو لم تتكرر فإن اللَّه يأتي بمثلها أو خير منها وقد حوى القرآن الكريم من الأدلة والآيات المادية المعجزة ما شمل هذه الآيات التي تقدم بها الرسل وما كان خيراً منها فآيات صدق رسالة الرسول بحكم الديمومة والثبات تستوعب جزئية البشر زماناً ومكاناً والكل يقوم مقام الجزء وليس العكس وهذا فضل من اللَّه يؤتيه رسوله صلّى اللَّه عليه وسلّم يجب أن يدركه أتباعه فلا يسألون أدلة ومعجزات كتلك التي سألها الأقوام السابقون المحدودون مكاناً وزماناً.

إن الآيات القرآنية التي نزلت في سورة الحج في قوله تعالى ﴿**وما أرسلنا قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم**﴾. . . هذه الآيات لا يمكن الذهاب بها مذهب الذين اخترعوا لها القصص وأولوها لتلائم هواهم بل هي تروي موضوعاً نفسياً وأمنية لا سلوكاً وعملاً أو قولاً. فكل نبي يتمنى أن يؤمن الناس به وربما تمنى هؤلاء الأنبياء أن ينزل الله من الآيات المعجزة ما يؤكد رسالته حتى تتحقق أمنيته أو أن يخفف الله في الأحكام حتى يقبل المعاندون على الشريعة. هذه الأمنية هي مرحلة ضعف بشري يوشك الشيطان أن يجد خلالها مدخلاً وهذا ما أكده الحق تبارك وتعالى في سورة الإسراء ﴿**وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلاً * ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً * إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً**﴾ [الإسراء: 73 - 75].

فهذه الآيات توضح أن هؤلاء الكفار كادوا. وكاد كما هو معلوم تفيد المقاربة لا الوقوع فالركون إليهم قليلاً لم يتحقق وإن كانْ قريباً. . والسبب في «كدت» هذه أمل ودليل حب من الرسول لأنهم قالوا له لو بدلت بعض هذه الآيات لاتخذناك خليلاً. ومن هنا كان تثبيت الله رسوله لا على القيام بفعل «الافتراء» فهذا لا يجوز في حق الرسل أصلاً بل على مجرد الركون إليهم شيئاً قليلاً. لأن الركون إليهم ولو شيئاً قليلاً والاستجابة إلى أهواءهم يعارض أمانة تبليغ الرسالة أصلاً وتكون عقوبة هذا الفعل ما أشار الحق تبارك وتعالى إليه.

وحالة الضعف هذه التي أوصلت إلى (كاد) أي إلى المقاربة ليست حالة طرأت على الرسول فقط بل للرسل جميعاً إذ أنهم جميعاً تمنوا أن يدخل الناس جميعاً دين الله وأن هذا التمني هو الذي يلقى «بلو» مفتاح الشيطان في الطريق فيحاول الشيطان أن يدخل به وإن كانت وسوسة الشيطان للبشر جميعاً قد تحققت بما في ذلك الرسل فإن الرسل هم الذي يثبتهم الله بالقول الثابت والفعل الثابت فلا تجد هذه الوسوسة لها صدى في قلوبهم المملوءة بالإيمان والصدى لا يكون إلا مع فراغ.

فالعودة إلى الآيات الكريمة في سورة الحج هي من هذا القبيل أي من قبيل تمني الرسل حيث يلقى الشيطان في هذه الأماني فينسخ اللّه أي ينقل هذا الإلقاء الشيطاني فيتحول إلى طلبات من الكفار إلى الرسول الذي يتمنى أن يتم هذا، ثم يكون التثبيت فلا يكون للشيطان مجال وإن كان ما ألقاه الشيطان سيظل فتنة لا للمؤمنين الذين يثبتهم اللّه بل للذين في قلوبهم مرض، والقاسية قلوبهم وسيظل الشك في قلوبهم إلى قيام الساعة أو يأتيهم اللّه بالعذاب فيتيقنوا ولكن بعد فوات الأوان أنّ ما وعد اللّه به حقاً.

النظرة التاسعة عشر

خَطل الدّارونيّة

لقد كنت أنوي أن أتناول النظرية الدارونية في المبحث الخاص بنظرات في الحياة والذي سأخصصه بمشيئة اللّٰه لتناول جملة من القضايا التي تهم الإنسان في هذه الحياة وبالطبع تناول النظريات والمدارس التي حاولت بعيداً عن المنهج الإلّهي أن تفسر الموجود المرئي واللامرئي وأن تقدم تفسيرات قاصرة كان لها أكثر الأثر في معارف الناس ومن ثم سلوكهم. غير أن ما دفعني إلى كتابتها ما راعني من أن بعض الشباب «المسلم» يقبل بمذهب «الانتقاء الطبيعي» وما صاغه دارون حول التطور بل يحاول بعضهم أن يستشهدوا لذلك بالقرآن الكريم مشيرين إلى قوله تعالى في سورة نوح عليه السلام ﴿**ما لكم لا ترجون للّه وقاراً وقد خلقكم أطواراً**﴾ [نوح: 14].

وقبل أن أوضح مدى الخطأ الذي وصل إليه دارون في استنتاجاته لا بد من تقديم نبذة عن حياة دارون وشخصيته ثم الظروف التاريخية والثقافية التي عاشها والتي كانت وراء صياغة هذه النظرية وقد رأيت أن أعتمد في سيرة دارون على مصدرين معتمدين عند الغرب الذي احتضن هذه النظرية وشجعها وروج لها وهي دائرة المعارف الدولية، ودائرة المعارف الأمريكية فدائرة المعارف الدولية (Encyclopedia International) في جزئها الرابع تقول «تشارلز روبرت دارون ولد في سنة 1809 ومات سنة 1882 وهو بريطاني ارتبط اسمه بنظرية التطور Evolution وعلى الرغم ارتباط هذه النظرية به إلا أن ما قام به دارون ليس سوى

استكمال لما كان معروفاً بالانتقاء الطبيعي.

وقد قدم دارون نظرية في كتابه المعروف نشوء الأنواع The Original of Species والذي تم نشره 1859 وتشير دائرة المعارف إلى الرحلة التي قام بها إدوارد إلى ما يسمى بالعالم الجديد وإلى تأثير هذه الرحلة العميق في تفكيره ونتائجه كما تشير إلى التأثيرات العظيمة التي كانت لصديقه Charles Lyell (1797 - 1875) الذي أشار في كتابه أسس طبقات الأرض إلى أن الظواهر طبيعياً.. كالحرارة والماء، والهواء لها تأثير كبير في التغيرات التي حصلت في الطبيعة ولا يمكن إرجاع هذه التغييرات إلى القوى الطبيعية. وبالإضافة إلى تأثيرات Leyll فقد استفاد دارون من كتابات جون هنتر John Hunter، ومالثوس Malthus، وبفون Buffon، ولامارك Lamark كما استفاد كثيراً من معاصره Edward Blyth ادوارد بليث الذي كان يكتب في مجلة التاريخ الطبيعي والذي كان من خلال كتاباته يشير بحذر إلى نظرية الانتخاب الطبيعي، وإمكانية التطور طبيعياً.. وتذكر دائرة المعارف أن كتابة هؤلاء وما تناوله دارون كانت محصلة الجدل الذي كان قائماً في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر والذي كان يحاول البعض من خلاله تبرير الصراع الإنساني باعتباره ضرورة لبقاء النوع الإنساني وتطوره. وقد كان دارون من المؤمنين شأنه شأن صديقه ألفرد روسل ولاس Elfred Russal Wallace بمبدأ الصيرورة والتحول.

وفي الختام تشير دائرة المعارف إلى التأثير الكبير الذي كان لأحد أصدقاء دارون المغمورين وهو Thomas Huxlely الذي كانت أفكاره وتحليلاته رغم عدم إجادته صياغتها مؤثرة تأثيراً كبيراً على أسلوب دارون وتحليلاته كما أن جد دارون Eransmus Darwin هو الآخر كان مؤثراً في ثقافته»[1].

أما دائرة المعارف الأمريكية فتذكر أن والده Robert Worning Darwin كان طبيباً في مدينة شرويس برك Shrewsburg وأن جده Erans mus Darwin كان هو الآخر طبيباً وشاعراً وفيلسوفاً وأن جده لأمه المسماة Josion Wedgwood كان من

(1) Encyclopedia International, Vo 5, P.451 - 452, U.S.A. 1963.

المعروفين بإجادة فن نحت الخزف. وتتعرض دائرة المعارف لحياته الدراسية وسلسلة الإحباطات والفشل التي مر بها فتقول إن والده أدخله المدرسة في شراوس برك ولكنه فشل في الدراسة حيث اضطر والده إلى إخراجه منها. وقد أنبه قائلاً «إنك لا تجيد سوى إطلاق النار على الكلاب واصطياد الجرذان وسوف تكون مبعث عار لك ولأسرتك» وقد أرسله والده بعد ذلك إلى ادنبره ليدرس الطب إلى أنه فشل في دراسة الطب ولم يقر على حضور عملية جراحية واحدة في وقت كانت فيه العمليات الجراحية تجري بدون تخدير. وفي أدنبرة اهتم بمرافقة هواة الرياضة وكانت له علاقات مع بعض الباحثين والعلماء ممن كان لهم تأثير في حياته مثل John Stevens Henslow «جون ستيفنز هنسلو» والذي كان أستاذاً في علم النبات. وعندما تحصل دوران على شهادة إتمام الدراسة الجامعية أصبح مهتماً بالنباتات وجمع الحشرات والخنافس. وقد كان أستاذه Henslow وراء ترشيحه في رحلة H.M.S. Begle» والتي كانت متوجهة من مهمة استكشافية استعمارية وكانت مهمة دارون في هذه الرحلة مهمة الباحث في الطبيعيات.

وفي هذه الرحلة أصيب بمرض شخصه الأطباء مرض «Chagas» وقد كان لهذا المرض تأثير كثير في صحته حيث أصبح شبه عاجز»[2].

وعلى الرغم من أن حياة دارون هذه وثقافته جديرة بالدراسة والتحليل لأنها تكشف عن جوانب كثيرة من شخصيته المريضة المرهقة وتعكس جانباً كبيراً من سلسلة من إحباطاته المادية والمعنوية إلا أن الشيء المهم حقاً هو أن هذه النظرية جاءت في فترة كانت تمثل مرحلة الزحف الأمبريالي الأوروبي على العالم في أعقاب فترة ما سمي بالانقلاب الصناعي، هذه الفترة التي واكبها كالعادة زعزعة في القيم من ناحية والحاجة التي تبرر الغزو والاحتلال والقتل من ناحية أخرى. فنظرية دارون هي الصياغة التي تكسبت المظهر العلمي لتبرير نظرية الاحتلال والتوسع وتميز الجنس الأبيض باعتباره «انتخاباً طبيعياً» ولا يمكن لنا أن نفهمها وما واكبها من نظريات مماثلة إلا في هذا الإطار. وربما

---

(1) Encyclopedia Americana, Vo8, P. 508 - 509, U.S.A. 1979.

يكون لنا مجال في المستقبل لتناول النظريات التي تمثل مظهراً للمرض النفسي الذي كانت تمر به الشخصية الأوروبية ولا تزال والمتمثل في الشعور بالتفوق والتمايز الذي يعطيهم الحق في اضطهاد البشر وقتلهم باعتبارهم مخلوقات أدنى، إلا أنني أفضل العودة إلى القرآن الكريم لأفصل القول في هذا المجال.

فالقرآن الكريم يؤكد أن اللّه سبحانه وتعالى قد أبدع كل شيء خلقه **﴿بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾** [البقرة: 116] والإبداع هو مرحلة الاكتمال والتناسق في الخلق وفي سورة الملك يشير الحق تبارك وتعالى إلى كمال الخلق الذي لا يقبل التفاوت **﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير * الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور * الذي خلق سبع سماوات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾** [الحق: 1 - 4] كما يؤكد القرآن الكريم أن اللّه سبحانه وتعالى الذي أبدع كل شيء لا يمكن أن يخلق بحكم هذا الإبداع شيئاً ناقصاً إذ أن النقص نقيض الإبداع والاستواء والكمال.

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة الأعلى **﴿سبح اسم ربك الأعلى * الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى * والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى﴾** [الأعلى: 1 - 5] وفي سورة البقرة يؤكد الحق تبارك وتعالى على هذا الخلق المستوي الكامل **﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم﴾** [البقرة: 28].

وفي سورة النازعات يقول عز من قائل **﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاها﴾** [النازعات: 27 - 30]. والإنسان الذي كرمه وفضله على كثير مما خلق هو الآخر يعطي نموذجاً لهذا الخلق المبدع المستوي الكامل وفي سورة الحجر يؤكد القرآن الكريم أن المشيئة الإلهية قد اقتضت خلق الإنسان مستوياً **﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون * والجان خلقناه من قبل من نار السموم * وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ**

مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ [الحجر: 29] وفي سورة السجدة يقول الحق تبارك وتعالى ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين * ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين * ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾ [السجدة: 8 - 6]. إن هذه الآيات الكريمة وغيرها تؤكد على اكتمال الخلق الإلّهي واستوائه وإبداعه الأمر الذي لا يعطي مجالاً لدعاوى الضالين المنحرفين الذين يحاولون من خلال باطل القول أن يبرروا نواياهم المريضة وأن يحققوا أهواءهم المنحرفة.

غير أننا لا بد أن نؤكد هنا أنه وإن كان الله تعالى قد خلق الإنسان كاملاً مستوياً سواء في بدء الخلقة من طين أو عن طريق التزاوج والإنجاب ليخرج إلى هذه الحياة بعد مروره بأطوار النمو في بطن أمه سليماً متكاملاً شاهداً على خلق اللّٰه وإبداعه إلا أن هذا الإنسان قد يجني على نفسه بانحرافه عن الفطرة فيهبط إلى ما هو أدنى من البشر وبالتالي فالقرآن يؤكد الهبوط بعد **الكمال** لا العكس والهبوط بعد الكمال والاستواء هو نتيجة الانحراف والخروج عن القانون الإلّهي.

ويقص الحق تبارك علينا خبر اليهود الذين لعنهم اللّٰه بأن جعل منهم القردة والخنازير وهي مخلوقات ترمز للقذارة وتبعث على السخرية والضحك، يقول تعالى في شأن اليهود ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون * ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل اللّٰه عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين * ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين * فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين﴾ [البقرة: 62 ـ 65]

وفي سورة المائدة يؤكد الحق تبارك وتعالى على اللعنة التي لحقت بالمكذبين والمعاندين من اليهود بسبب كفرهم وانحرافهم عن الفطرة الإلّهية ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند اللّٰه من لعنه اللّٰه وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل﴾ [المائدة: 62].

وفي سورة الأعراف يقول عز من قائل في شأن اليهود **﴿فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون * فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾** [الأعراف: 165-166] من هنا نعيد القول إن الحقيقة القرآنية تؤكد أن الإنسان بكفره وعناده قد يمسخ قرداً أو خنزيراً وأن هذا المسخ هبوط عن المستوى الإنساني المستوي أي أن القرآن يقبل بهبوط الإنسان من الكمال إلى ما هو أدنى وليس العكس وأن الهبوط لا يكون إلا نتاجاً لما يقوم به الإنسان من أعمال هي أقل من مستوى البشر فيكون العدل الهبوط به إلى درك أعماله ليستوي الشكل والمضمون والمظهر والمخبر.

وإذا كان هبوط الإنسان مادياً ومعنوياً عن درك الإنسانية له ما يؤكده كل يوم فإن نظرية دارون بعد أن أدت ثمارها واستفاد بها المستعمرون والمحتكرون بدأت تفقد بريقها المصطنع ولم يعد لها من الأنصار المتحمسين إلا أصحاب الثقافة المتعالية التي كانت نتاجاً لصياغة هذه النظرية والتي استمرت بعدها وهي الثقافة العنصرية التي تقول بالتمايز العرقي والمكاني خروجاً عن القانون الإلهي الذي يجعل كرامة الإنسان بالعمل الذي خلق له أصلاً وجعله الله به مستخلفاً في الأرض والتقوى التي يحافظ بها على ما كسب ولا يدمره بالطغيان. **لقد استطاع** الإنسان بما أعطاه الله من معرفة أن يدرك الكثير من خصائص المخلوقات المادية وأن يتقدم في معرفة الخلايا والجينات ولكن معارفه كلها تظل في إطار ما خلق الله تعالى ويظل الإنسان عاجزاً على إدراك سر الحياة وكنهها وحقيقة الخلق ومع كل اكتشاف جديد لقانون الله الأزلي الأبدي تتضح مدى ضآلة ما عند الإنسان وإن ادعى علمه بكل شيء **﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾**.

إن اختلاف الألوان والألسن والأجناس يظل آية على قدرة الخالق الذي أبدع كل شيء **وسوّى** وإرجاع الاختلاف في الأجناس إلى طبيعة عاجزة مسيرة هو دليل عمق المأساة التي مرت وتمر بها الإنسانية فبدل التسليم بالخالق والإيمان الذي هو دليل معرفة وإنسانية يكون الضلال والكفر والعناد الذي لا يجد له دليلاً إلى الهروبية التي هي دليل فشل وأمارة عجز.

النظرة العشرون

المرأة والجاهلية المستمرة

قصة التاريخ الإنساني على الرغم مما فيها من سطور مشعّة كان زيت قناديها دماء الفاعلين الإنسانيين ورسل الخير وعشاق الحقيقة إلا أن بها من القتامة صفحات تزيد مع مرور الأيام عتمة وأحذية زمر الظلم والانحراف القذرة وهي تمر فوقها تضيف إليها ما يجعل هذا التاريخ يكاد يصبح ظلاماً كله يغيب معه الأمل أو يوشك إلا مع لَمَعٍ حيناً فتبشر بانبلاج فجر الإنسان الكامل إنسان الفطرة. إن القرآن الكريم يعلمنا أن الظلم والظلام شيء واحد، وأن الظلم هو نتاج جهالة بحقيقة الإنسان ومهمته في هذا الكون، هذه الجهالة التي تنعكس على كل شيء داخله وحوله فيتحول إلى مسخ بشع يهوي في دركات الضلالة والانحطاط إلى مستوى تستعيذ حتى القردة والخنازير بالله العظيم أن تصل إليه.

فالإنسان الظالم بما ركز في يديه من وسائل الاحتكار المادية يعتقد واهماً أنه قد استغنى فيكون البطر والطغيان، ويكون الفساد والإفساد ويكون التجاوز والظلم. والجبابرة الطغاة هم.. هم عبر التاريخ يقولون ما قاله فرعون وإن كان بألسنة مختلفة ﴿**أنا ربكم الأعلى**﴾.. ويرددون ما تبجح به قارون ﴿**إنما أوتيته على علم عندي**﴾ كلهم يجمعون سحرتهم فيملأون الدنيا خدعاً وإرهاباً للأعين والقلوب.. وكلهم يرفضون نداء الحق ويطاردون أنبياء الرحمة ويحرضون تنابلتهم ومن خلفهم الأكثر الذي لا يعقل وكم من ثائر ومجاهد.. وكم من نبي ورسول حق قتل بأيدي الذين لا يعقلون تحركهم السفاهة.. ويحرضهم الدجل

وفرعون وأمثاله يرددون اقتلوهم إنهم يريدون ﴿**أن يذهبوا بطريقتكم المثلى**﴾.

وهنا أقول إن غيضنا لا يمكن أن يصرف إلى الجبابرة والطغاة وحدهم ونذرف الدموع على المستضعفين والمقهورين بل إن لعنتنا تصب على الجميع إذ لا يشمخ بأنفه شامخ إلا وقد وضعت أنوف الآلاف في الرغام، ولا امتدت شجرة العتو الملعونة إلا بماء دموع الكسالى **الهروبيين** المستضعفين ونحن إذ نلعن الجميع إنما نطبق المنهج القرآني الذي علمنا أن الفتنة لا تصيب الذين ظلموا خاصة، وأن فساد المترفين لا يجلب هلاكهم وحدهم بل يشمل الجميع مترفين وفقراء «فحق عليها القول فدمرناها تدميراً» والضمير في عليها يعود على القرية التي سمحت لهؤلاء المترفين أن يترفوا ويفسدوا.

لقد سفه الحق تبارك وتعالى منطق الضعفاء الخانعين ﴿**إن الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض اللّه واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً**﴾ [النساء: 96].

فالظلم إذاً ليس في القيام به فقط بل في قبوله والمظلومون ظاهراً هم ظالموا أنفسهم لقبولهم الظلم ورضاهم بهذا الوضع المزري الذي لا يليق بالإنسان.

إن مدرسة القرآن العظيمة هي التي علمتنا أن خريجيها ليسوا من هواة الرتب والنياشين ولا قصوراً لدنيا ومتاعها الزائف ولم يكونوا ينتظرون تقريراً يكتبه لصالحهم مداهن أو ضدهم حاقد. وكيف يحتاج إلى وسام من قماش من وضع اللّه اسمه في قائمة الشهداء والصديقين والأنبياء.. ومن يهمه عرض الدنيا وقد أعد اللّه له جنة عرضها السموات والأرض.. وكيف يعوز من ملىء جسده جراحاً إلى أوراق سوداء توضع في ملفه لتجلب له مكسباً مادياً زائلاً. وهل هزم جنودنا في كل معاركهم المعاصرة إلا بسبب هذه النياشين والأوسمة التي تثقل أكتاف قادتهم: ملازم لم يلازم جنوده،ونقيب لم يقم بمهمة النقابة يوماً.. ورائد لم يفكر في الريادة.. ومقدم **لا** يتقدم إلا في الاستعراضات العسكرية.. وعقيد لم تعقد له راية.. فكيف بهؤلاء ومن فوقهم يتحقق النصر...!...!.

ربما اعترض معترض على هذه المقدمة ومحل اعتراضه أن لا علاقة لها بموضوع هذه النظرة وهنا أقول بل لها علاقة وأية علاقة!! إنها علاقة الظلم في كل. . . ورابط الجاهلية في الجميع. . . ومظهر الفساد والإفساد الذي حوّل ويحول حياتنا إلى تعاسة دائمة وعذاب مقيم. . . وهل المرأة الخانعة الذليلة إلا أم، وأخت وزوج، وقريب. . بل هل نتعلم دروس الشجاعة والإيثار والشهامة والحرص على الشهادة إلا من مدرسة هؤلاء!. . .

إذاً فهي مأساة متشابكة الأحداث متلاحمة العقد لا تحل إلا بالعودة إلى منهج القرآن الذي به نحدد الهدف ونرسم البرنامج ونختار الأدوات ونقوّم النتائج. وإذا كان الاضطهاد بحكم الاحتكار ميسم يطبع الجميع الذين يقعون تحت تسلط الحكام والجبابرة العتاة فإن المرأة بحكم وضعها الاجتماعي والميراث الجاهلي الذي تراكمت أثقاله حتى لتنوء به الجبال ذوات القوة قد أضحت أكثر اضطهاداً وغبناً بل إن الذكور الذين يتحكم فيهم بنو جنسهم من الطغاة يلجؤون في محاولة تعويضية إلى قهر المرأة الإنسان الأضعف. وكلما أدلهم ليل الظلم أو التخلف كلما كانت المرأة في وضع أشد سوءاً. . وأعظم بلاءً. فالمرأة إذن مضطهدة من الجميع مقهورة من الكل فهي كانت ولا تزال لولا فترة قليلة هي فترة الرسول الكريم وقد بدأت تسترد أنفاسها تعيش الجاهلية الأولى بكل معانيها.

وقبل أن أسترسل في تبيان هذه النظرة أرى العودة إلى المنهج الذي قيدت نفسي به بالرجوع إلى دلالات اللغة والاستخدام القرآني والتي تكشف لنا الغامض وتضيء لنا المعتم. . فما الجاهلية. . . وما الجاهلية الأولى؟

يقول صاحب لسان العرب وهو يتحدث عن دلالة مادة جهل «الجهل نقيض العلم وقد جهله فلان جهلاً وجهالة، وجهل عليه وتجاهل، أظهر الجهل. . وتجاهل أرى من نفسه الجهل، واستجهله عدَّه جاهلاً واستخفه أيضاً. والتجهيل: أن تنسبه إلى الجهل، وجهل فلان حق فلان، وجهل عليّ، وجهل بهذاالأمر. والجهالة: أن تفعل فعلاً بغير العلم. . والجاهلية زمن بين الفترة والإسلام، وقالوا الجاهلية الجهلاء فبالغوا، والجهل، المفازة لا أعلام فيها[1]،

يقال: ركبتها على مجهولها: قال سويد بن أبي كاهل:

فركبناها على مجهولها ... بصلاب الأرض فيهن سجع

وقولهم كان ذلك في الجاهلية الجهلاء، هو توكيد للأول، يشتق من اسمه ما يؤكد به كما يقال: وتد واتد، وهمج هامج، وليلة ليلاء، ويوم أيوم»(1).

والملاحظ لتعريفات ابن منظور يرى أنها من قبيل التعريف بالضد فالجهل ضد العلم وإن كان قد أتى بما يقرب مفهوم الجهل إذ أن التعريف بالضد تعريف ناقص وأقصد بذلك قوله «المجهل: المفازة لا أعلام فيها» والمفازة هي الصحراء سميت مفازة تيمناً وإلا فهي مليئة بالمخاطر محفوفة بالمهالك وقد سمي العرب الجبال أعلاماً لأنه بها تعرف الطرق وتحدد الاتجاهات فلا يضل الإنسان طريقه وسط الصحراء المترامية المهلكة حراً وعطشاً وهواماً. والعلاقة بين الصحراء والحياة علاقة واضحة فالحياة هي الأخرى صحراء البشرية تضرب فيها متخبطة جاهلة لا تدرك طريقها إلا بالشرائع الإلهية التي تقودها إلى حيث الأمن والراحة والسلام.

فإذا تجاوزنا الدلالة اللغوية إلى القرآن الكريم فإننا نجد لفظ الجاهلية قد ورد في أربعة مواضع. اثنان منها مع الوصف «بالأولى». واثنان بدونها. والوصف بالأولى ليس دلالة زمانية كما قد يفهم إذ أن الجاهلية لا يقيدها زمان أو مكان فلها شرائط وظواهر إذا توفرت تكررت ولكن الأولى فيها معنى الإيغال في الجهل والانحراف الذي تستحق به أن توصف بالجاهلية الأولى.

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة آل عمران مشيراً إلى وضع المؤمنين المجاهدين مقارنة بالمنافقين الجبناء ﴿**ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية الأولى يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا قل لو**

(1) ابن منظور، المرجع السابق، جـ1، ص130، دار صادر، بيروت.

كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي اللّه ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم واللّه عليم بذات الصدور﴾ [آل عمران: 159].

ويقول عز من قائل في سورة المائدة ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل اللّه ولا تتبع أهوائهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل اللّه إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد اللّه أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون * أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من اللّه حكماً لقوم يوقنون﴾ [المائدة: 49-50].

وفي الموضع الثالث يقول رب العزة في سورة الأحزاب ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً * وإن كنتن تردن اللّه ورسوله والدار الآخرة فإن اللّه أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً * يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً * ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً * يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً * وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد اللّه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً * واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات اللّه والحكمة إن اللّه كان لطيفاً خبيراً﴾ [الأحزاب: 28 - 34].

وفي سورة الفتح يقول تعالى في مقام الحديث عن الأحزاب وهم القبائل التي تجمعت في محاولة يائسة يحركها حقدها وتعصبها للباطل للنيل من الرسول صلى الله عليه وصحابته ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل اللّه سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان اللّه بكل شيء عليماً﴾ [الفتح: 26].

وكما نرى فإن اللّه تعالى قد أورد لفظ «الجاهلية الأولى» في سورة آل عمران بما يؤكد بشاعة الموقف وحقارة السلوك الذي وقفه المنافقون. إذ أن المقام مقام الصبر والمجالدة والثقة بنصر اللّه أو انتظار الشهادة وهي مطلب

المؤمنين الواثقين بوعد اللّٰه الذي وعدهم إياه غير أن هؤلاء المنافقين وقد أهمتهم أنفسهم وشغلتهم يظنون باللّٰه غير ما هو أهله وقد وصف اللّٰه ظنهم بأنه ظن «الجاهلية الأولى» جاهلية الكفر والإلحاد التي لا تؤمن باللّٰه ولا ترجو له مقاماً، فالموقف واحد والكفر والإلحاد قمة الجاهلية وذروة سنامها وكل جهد متفرع منه ناتج عنه.

وفي سورة الأحزاب يأمر تعالى رسوله أن يخير زوجاته بين عرض الحياة الدنيا وزينتها الزائلة الزائفة وبين اللّٰه ورسوله والدار الآخرة حيث النعيم المقيم. وإذا كان النساء الأخريات يردن الحياة الدنيا وبهارجها فإن المؤمنات غير هؤلاء ونساء الرسول باعتبارهن قدوة بالضرورة يكنَّ أشد حرصاً على الآخرة ورفضاً للدنيا وبريقها ومن هنا كان الأمر مشدداً عليهن بمراعاة أنفسهن قولاً وعملاً ﴿**فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفا وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى**﴾.. فالأمر بالإقامة في البيوت موجه إلى زوجات الرسول لأنهن لسن كأحد من النساء وإذا كان القول الذي فيه لين وخضوع محرم عليهن لمكانتهن العظيمة فإن السلوك الذي يحمل طابع اللغوية والرقة هو من باب آخر أكثر رفضاً وتحريماً خاصاً وأن التبرج صفة من صفات «مجتمعات الجاهلية الأولى» مما يبعث على التنفير منه وعدم التفكير فيه بل ممارسته.

أما الموضع الثالث في سورة المائدة فهو موضع الجاهلية التي تتبع هواها، وتستنكف دعوة الحق والإنسان الذي يرفض حكم اللّٰه ويسعى إلى حكم الهوى هو إنسان الجاهلية فالمؤمنون لا خيرة لهم من أمرهم إذا حكم اللّٰه ورسوله. ولا مجال لديهم لسلطان الهوى ونداء الرغبات التي تنم عن ضعف وتعكس حقيقة نفس هشة لم تجد طريقها إلى الإيمان بعد. وفي الموضع الرابع يشير الحق تبارك وتعالى إلى مظهر آخر للجاهلية لا يختلف عن الهوى وهو مظهر الحمية ـ التي وصفها اللّٰه بأنها حمية الجاهلية الأولى لأنها جاءت من الكفار. فالحمية نصرة للحق وانتصار للّٰه وشريعته أمر مطلوب ولكن لأن هذه الحمية جاءت من الكفار فقد وصفها تعالى بحمية الجاهلية حتى لا ينقطع الفكر إلى أن الحمية مطلقاً مرفوضة وجاهلية.

مظاهر وثقافات جاهلية

(أ) التبرج:

أشرت إليه عرضاً عند تناول الآيات الكريمة من سورة الأحزاب والتي يوجه اللَّه فيها الأمر إلى زوجات الرسول، فموضوع التبرج والذي حكم تعالى عليه بأن من ظواهر الجاهلية الأولى. هذه الجاهلية التي كما ذكرت متكرزة بتكرر شرائطها متجددة بتوفر أسبابها. وعصرنا هذا الذي نطلق عليه عصر «الحضارة والمدنية» هو في كثير من جوانبه عصر الجاهلية الأولى. حيث تعيش النساء فيه حياة الاحتكار والرق احتكار الحريم في قصور السلاطين والقادة، أو في بيوت أهلهم وذويهم وثقافة الرق ثقافة الجاهلية الأولى التي ترى في المرأة جسداً يرضي شبق الذكر.. وموضوعاً يشبع خياله المريض. ولأنها في اعتقادهم جسد وجسد فقط فقد حولوها إلى أشبه ما يكون بهذه التماثيل الخشبية التي تعلق عليها الملابس في صالات بيع القماش وأقنعوها أن قيمتها فيما تضع على جسدها من حلي وجواهر وحرير وأن من يريد والحال كذلك أن يشتريها فإن عليه أن يدفع في سوق النخاسين ثمنها. والنخاس هو النخاس لا يختلف سواء كان غريباً عنها أم من أسرتها ما دامت النتيجة هي البيع والشراء.

وحتى أولئك الذين يرفعون عقيرتهم مطالبين «بتحرير الإناث» هم مخادعون كاذبون إذ أن الحرية الإنسانية كما يحدها ويرسم ملامحها القرآن لا ترضي هؤلاء بل يخرجونها من حياة الحريم والاحتكار داخل القصور والبيوت إلى حياة المشاع وتظل هي هي تفر من قيود الذكور لتقع في قيودهم مرة أخرى. وقلّما ما ترى أحداً من هؤلاء الذكور المرائين الذين يتحدثون عن «حرية المرأة بثقافة جاهلية» من يقبل أن تخرج إلى الشارع زوجته أو ابنته أو أخته ذلك أن الخروج إلى الشارع «شوارعية» إذا جاز لنا النسبة ولأنهم ليسوا شوارعيين فإذا لا يمكن أن يكون أهلهم في الشارع. فالشارع والشوارعية هي مطلوبة فقط كحقل تجارب لأفكار المهووسين، وهي مطلوبة أن تمتلىء إذا كان الغرض من امتلائها تأييداً وهتافاً ويظل بعدها الشوارعيون شوارعيين. ولا فرق بين أن توضع المرأة داخل بيت أو أن تخرج إلى الشارع إذا لن تكون في كلا الحالين إنساناً ويكون

الفرق كالذي بين أن يوضع الحيوان في داخل قفص مما يطلق عليه «حديقة الحيوان» المقفلة أو أن يوهم بالحرية فيوضع في «حديقة الحيوان» المفتوحة. فهو لا زال الحيوان المروض الذي لا دور له سوى إشباع فضول المتفرجين أو إضحاكهم أو ركوبه إذا ما أرادوا. . . !(*).

إن الحرية التي نريدها للمرأة هي الحرية التي نريدها للإنسان عامة ذكراً أو أنثى والمجتمع الذي سيبنى هو مجتمع الإنسان الذي يختفي فيه التدجيل والتسلط بل ينتهي فيه سوط المدجلين ويتنفس الناس فيه نسيم الحرية الإنسانية وهذا لا يكون إلا بتدمير ثقافة الجاهلية الأولى وإحساس المرأة أنها إنسان وتنتهي في داخلها عقدة الأنوثة لتصبح الأنوثة رسالة بشرية مثلها مثل الذكورة تؤدي وظيفتها البيولوجية فقط وفوق هذا تكون الإنسانية المستوية والكاملة والقرآن يرسم نمط السلوك الذي يجب أن تتوخاه المرأة داخل بيتها وخارجه كما أن مسؤولية إعداد مناخ هذا السلوك هي على عاتق المجتمع كله رجالاً ونساء يقول تعالى في سورة النور **﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون * وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾** [النور: 31].

فهذه الآيات قسمت مجال حركة المرأة إلى قسمين داخل بيتها وخارجه ففي داخل البيت تحددت شروط إظهار الزينة وفي خارجه لا مجال لها وتقع كما أشرت المسؤولية في غض البصر على الذكور والإناث فهو مطلوب من الجميع وحفظ الفرج أمر مطالب به الذكور والإناث فإذا ما تحقق هذا الأمر الإلهي فلا

(*) يطالب ادعاء «حرية المرأة» بخروجها إلى الشارع متبرجة ويحاولون إقناعها أنها إذا تعرت فقد تحررت وهم بذلك يعيدونها إلى حياة الجاهلية وبمعنى آخر يخرجونها من حياة الحريم الذي تكون فيه جسداً يرضي شهواتهم إلى الحريم الأوسع وفي كل هي جسد فقط.

خوف أن تخرج المرأة كما لا خوف أن تبقى في بيتها لأنها تكون والحال كذلك إنساناً في داخله وإنساناً في خارجه تعيش وسط مجتمع إنساني لا مجتمع وحوش وكواسر(*).

(ب) حكم الجاهلية

أشارت الآيات القرآنية في معرض الحديث عن مظاهر الجاهلية إلى حكم الجاهلية باعتباره حكم الهوى الذي لا يستند على دليل ولا يقوم على أي أساس. وقد ضرب اللّه مثلاً لأحد أحكام الجاهلية المتكرر وهو رد فعل الآباء من إنجاب أزواجهم **إناثاً** وما **يعتري** هؤلاء من حال تنم عن غيظ شديد وحنق يبدل سجنتهم فتستحيل سوداء بما يصعد فيها من دم نتيجة الانفعال الشديد المحزن الذي يعتريهم يقول تعالى في سورة النمل ﴿**وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون**﴾ [الآية: 59].

فالمقام مقام بشارة بهذا المولود الجديد الذي وهبه اللّه والديه واجبة الشكر غير أن حكم الجاهلية وثقافة الجهل بحقيقة الأشياء هي التي تجعل من البشارة نذير شؤم وتطير تسود له الوجوه ويملأ الإنسان بدل أن تملأ السعادة جوانبه شعور الخجل وكأنه ارتكب فضيحة شنعاء وجريمة نكراء حيث يتوارى من القوم خجلاً. وهو إذ يفعل ذلك تتصارعه رغبتان الأولى تحركها الأبوة الغريزية التي تلح أن يمسك هذه المولودة الجديدة ويكون بذلك قد اختار حال الضعف والهون وهذا الإحساس نتاج ثقافة الجاهلية أما الرغبة الثانية فتكون حكم الجاهلية الشنيع بأن يدسها في التراب وهو موقف خاطىء من الأنثى نتاج

(*) على الرغم من أننا كثيراً ما نشبه حياة الانحراف في المجتمع البشري بأنها حياة الغاب إلا أن حياة الغاب في كثير من مظاهرها هي أفضل من حياة المجتمع البشري المنحرف فالحيوانات يحكمها قانون فطرتها الغريزي فهي لا تأكل إلا إذا جاعت ولا تنزو إلا في أوقات محددة أما الإنسان المنحرف فهو الذي يأكل وهو شبعان، ويكنز وهو مريض بالتخمة وينزو عما له وعما لغيره ولو علمنا اللّه منطق الحيوان لاعتذرنا له على هذه المقارنة...!..!.

جهل بطبيعة الخلق وحكمة الخالق التي اقتضت أن يجعل من كل شيء زوجين اثنين ﴿**ومن كل شيء خلقنا زوجين اثنين لعلكم تذكرون**﴾ [الذاريات: 49].

وهو ما تؤكده الآية الكريمة في سورة النجم ﴿**وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى**﴾ [الآية: 44] واستمرار الحياة وبقاؤها لا يكون إلا بالزوجين الذكر والأنثى من كل شيء ولهذا يأمر الحق تبارك وتعالى نوحاً أن يحمل على سفينته من كل زوجين اثنين لتبدأ مسيرة الحياة بعد الطوفان من جديد ﴿**حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل**﴾ [هود: 40].

فحكمة اللّه إذ اقتضت وجود الزوجين الذكر والأنثى فالقبول بالذكر ورفض الأنثى منطق يدل على جهل بسنة الحياة أصلاً إذ كيف تستمر الحياة بالذكور بل كيف أمكن لهذا الذي يحكم على ابنته بالدس في التراب أن يأتي لو دست أمه في التراب وكيف يكون له زوج لو حكم والدها عليها بنفس مصير ابنتها. ثم ما علاقة الجنين في أن يكون ذكرا أو أنثى فالذكور والأنوثة مشيئة إلٰهية على الإنسان أن يقبل بها ويشكر اللّه تعالى عليها ﴿**هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم**﴾ [آل عمران: 6].

فالموقف من الأنثى والذي يتكرر لـلأسف حتى الآن في مجتمعات التخلف دليل جاهلية وعلامة جهل.

إن أحد أسباب الموقف الكاره للأنثى حسب منطق الجاهلية أنها ضعيفة وغير قادرة على الدفاع عن نفسها وأنها تنشأ في الحلية والزينة ﴿**أو من يُنشؤا في الحلية وهو في الخصام غير مبين**﴾ [الزخرف: 17].

ولنا أن نسأل أصحاب هذا المنطق الغريب من الذي يحكم على الأنثى أن تكون مخلوق حلية وزينة فحسب، أليسوا هم هؤلاء الذين يجردونها من إنسانيتها ويحولونها إلى جسد ثم كيف يطلب ممن تمت تربيتها بهذا الأسلوب المعارض للفطرة أن تكون قادرة على الإبانة أثناء الخصام. إنه بحق حكم الجاهلية الفاسد المنحرف!...

(جـ) حواء والجنة

كثيراً ما يصادفك وأنت تقرأ فقرات من آراء مثقفي الجاهلية الأولى أحكاماً جائرة ضد المرأة كقولهم إنها «شر لا بد منه» وأنها «حليف الشيطان» و «اللعنة التي أخرجت آدم من الجنة» إلى غير ذلك من الأحكام التي لا تصدر إلا عن مرضى ومنحرفين. . . إنها نتاج ثقافة الذكور التي تراكمت عبر مسيرة البشرية المليئة بالظلم والاضطهاد والقهر. ولأن الثقافة الجاهلية واحدة فإنها تعمل عملها حتى بين الذين يقولون عن أنفسهم إنهم مسلمون فنراهم يشاركون هؤلاء أحكامهم ويحاولون تأويل الآيات القرآنية لتلائم هذا المنطق الأعوج حيث يقرر هؤلاء أن (حواء) زوج آدم كانت سبباً في إخراج آدم من الجنة. وهنا نقول إن المشيئة الإلّهية اقتضت أن يكون الإنسان مخلوقاً أرضياً **﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾**.

ولكن مشيئة اللّه اقتضت أن يكون هبوط آدم نتيجة انخراف ليكون درساً له على الأرض كما أن القرآن يؤكد أن الذي غوى آدم ووسوس له هو الشيطان مباشرة وأن الشيطان وسوس لزوجه كما وسوس له يقول تعالى في سورة الأعراف: **﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما رغداً ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين * فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين * فدلـهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين * قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين * قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾** [الآيات: 18 - 23].

وفي سورة طه **﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى * فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى * إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى * وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى * فوسوس إليه**

الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى * فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورقة الجنة وعصى آدم ربه فغوى * ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى * قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى * فمن تبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾ [الآيات: 113 121]. فالآيات القرآنية كما هو مبين تشير إلى أن الأمر بعدم الاقتراب من الجنة كان موجهاً لآدم وزوجه وأن الشيطان وسوس لهما معاً فأكلا منها وأن عقوبة التعري كانت لهما كلاهما باعتبارها عقوبة عصيان لأمر إلَهي كما أن الهبوط من الجنة جزاء آدم وزوجه فالنهي واحد، والغواية واحدة والعقوبة بالضرورة عقوبة متساوية.

(د) الضلع الأعوج

الضلع الأعوج خرافة أخرى يمكن إدخالها في باب الطرف والنوادر إذ لا مجال لقبولها إلا من هذا الباب ومؤدى هذه الخرافة كما يروج لها وارثو ثقافة عصور الانحطاط البشري والتعصب الذكوري أن زوج آدم «حواء» خلقت من ضلعه الأعوج ولأنهم لا يملكون دليلاً على ذلك يحاولون دعم هذه الخرافة التي وجدت لهم صدى في كتاب الإسرائيليات بحديث ينسبونه بهتاناً إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقولون عنه إنه قال «خلقت المرأة من ضلع أعوج إن رضيت بها وبها عوج وإن ذهبت تصلحها كسرتها وكسرها طلاقها» ولكن السؤال لماذا الضلع بالذات؟ وربما تكون الإجابة لأن الضلع من أدق العظام وأكثرها هشاشة، ولأنه كذلك أعوج غير مستقيم ولأنه يحيط بالقلب موطن العاطفة لهذا فالمرأة ضعيفة وعوجاء، وبكاءة.

وهذه سخافة لا يقبل بها حتى دارون نفسه رغم قوله بالتطور إذ أنه لا بد أن يعجز في البرهنة عن تطور هذا الضلع الأعوج الذي أصبح إنساناً كاملاً ملىء لحماً وعظماً واكتملت ضلوعه دون أن تنقص ضلوع آدم ضلعاً!..

ثم كيف يدعي هؤلاء نسبة هذا الحديث لهذا الرسول وهو الذي يقول «الجنة تحت أقدام الأمهات» والذي يصفها زوجاً بأنها ربة البيت إلاّ إذا تصورنا أن ابن

آدم بلحمه وعظمه وشحمه لن يدخله الجنة إلاّ ضلعه الأعوج.

إنّ القرآن الكريم يرد على هذه السخافات بالتأكيد على أن خلق الإنسان ذكراً وأنثى إنما كان من طين وإن كليهما خلقا من نفس واحدة بما يضمن الاكتمال والوحدة التي هي جوهر العقيدة ولباب الإسلام فكل شيء يسير إلى هذه الوحدة ولو تم خلق الإنسان الذكر من غير ما خلق منه الإنسان الأنثى وحاشا أن يكون في خلق اللّه تفاوت لما كان هذا التآلف والالتقاء والسكن.

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة المؤمنون **﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم انشأناه خلقاً آخر فتبارك اللّه أحسن الخالقين﴾** [الآيات 12-14].

وفي سورة الأنعام يقول العزيز الحكيم **﴿هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون﴾** [3 ـ 4] وفي سورة السجدة يشير الحق تبارك وتعالى إلى أصل الخلقة الإنسانية **﴿ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرَّحيم * الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين * ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾** [5-7].

فهذه الآيات القرآنية وغيرها جميعاً تؤكد أن أصل الخلقة من طين ذكر أو أنثى، وأن سلالة الذكر والأنثى أي لآدم وزوجه كانت من مني يمنى وقد عدد القرآن الكريم المراحل التي يمر بها خلق الإنسان حتى يستوي بشراً.

أما الإشارة إلى النفس الواحدة فنذكر على سبيل الاستشهاد ما قاله تعالى في سورة الزمر **﴿خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلك الله ربكم له الملك لا إله إلاّ هو فأنى تصرفون﴾** [آية 7].

كما تؤكد آيات كثيرة في القرآن الكريم إلى أن اللّه تعالى قد سوّى الإنسان جسداً ونفساً بالشكل الذي لا يبقي لأصحاب نظرية الضلع الأعوج أي مجال ليروجوا بدعة الضلالة وحكم الجاهلية.

هـ ـ الرجال قوامون

لا ينسى مفسرو القرآن من «الذكور أهل الهوى» أن يتسللوا إلى آيات القرآن الكريم محاولين تأويلها لاثبات نظرية التمايز الذكوري ومن ثم فإنهم يعمدون إلى قوله تعالى في سورة النساء **﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله به بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ اللّه واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن اللّه كان علياً كبيراً﴾** [الآية 34] محاولين تأويلها لما يخدم موقفهم المنحرف. والآية الكريمة هنا لا تعطي الرجال تمايزاً على النساء بل تضع على كاهل الرجال مسؤولية فالقوامة هنا لا تعني الأفضلية والتمايز بل تعني التكفل والرعاية والتكفل والرعاية لا يكونان على إطلاقهما إلا بشرط وجود الفضل والإنفاق من المال فإذا انتفت هذه الزيادة أو الفضل وانعدم فلا قوامة. والطاعة تكون بسببها لا بسبب الذكورة والأنوثة وهذه وردت مقدمة لحكم النشوز وهو العصيان الذي لا يكون له مبرر مع وجود الفضل والإنفاق إذ أن النشوز في هذه الحال يكون رفضاً لا مبرر له والعقوبة تكون للمرأة الناشز وليس للنساء جميعاً وذلك مثل سائر الجزاءات في الشريعة والتي هي عارضة وليست أصلية. . فالعقوبات أصلاً لا تكون إلا في حق المخطئين ولا مجال للآخرين كي يحتجوا عليها.

أما التمايز كما يحدد معالمه القرآن فأن لا يكون بسبب الجنس أو اللون فتلك أمور لا علاقة للإنسان بها فالإنسان لم يقرر في رحم أمه أن يكون ذكراً أو أنثى حتى يخالطه شعور التمايز والأفضلية. إن كرامة الإنسان لا تسمح بتفاضلٍ إلا بفعله الإنساني **﴿إن أكرمكم عند اللّه أتقاكم. .﴾** فالتقوى واجتناب الآثام وإطاعة الله بالقيام بالعمل الصالح هو الذي يحقق التمايز وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

نساؤكم حرث لكم

عبر القرآن الكريم عن علاقة الرجل والمرأة كزوجين بالحرث وهذا التعبير فيه من التكريم والسمو بالإنسان بالقدر الذي تعجز عن وصفه الكتب

والمجلدات ناهيك عن نظرة محدودة كهذه ولكن حسبنا أن نشير إليها إشارة وأن نلمح لها تلميحاً وما نقدمه لا يزيد عن الفتات القليل من مائدة القرآن العظيم التي لا ينضب خيرها ولا يقل، فالتعبير بالحرث عن هذه العلاقة يعطي دلالة القصد فهذه العلاقة هي كالزرع يقصد منه النماء والثمر والخير والإنسان في الحرث لا يقوم بشق الأرض عابثاً لاهياً. . كما أن الحرث يقتضي اختيار الأرض الصالحة للحرث وتسوية هذه الأرض حتى إذا وضع فيها البذور وسقاها ماء الحياة كان النتاج خصباً صالحاً ينفع الناس وقد ربط الحق تبارك وتعالى في أكثر من موضع بين الخلق والإنبات، وماء الرجل والماء بشكل عام الذي جعل منه كل شيء حياً، كما أمر القرآن الكريم باختيار الزوج الصالحة التي هي بمثابة الأرض السليمة وحرم اتصال الزوج بزوجه أثناء الحيض لأن الرحم كالأرض يكون في أثنائها غير صالح للبذر، واتصال الإنسان بزوجه حرث غير عابث وحتى نؤكد على هذه المعاني السامية نستعرض جملة من الآيات الكريمة كشواهد على المكانة العظيمة التي جعلها الله لعلاقة الزوجين الإنسانية.

يقول تعالى في المقارنة بين العلاقة الزوجية والحرث وضرورة أن تكون المرأة طاهرة مثلما لا بد أن تعد الأرض وتستصلح للزراعة **﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله. إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين * نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين﴾** [البقرة 220-221].

وحول الربط بين هذه العلاقة والإنبات يقول الحق تبارك وتعالى في سورة يس **﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾**. [35] ولا غرو فالإنسان قد خلق من الطين وهنا تكون قصة الزرع والإنبات هي قصة الحياة الدنيا يقول عز من قائل في سورة يونس **﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل**

الآيات لقوم يتفكرون * والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ [24-25].

إنها قصة الخلق عامة فهذا الماء الذي ينزل من السماء لتأخذ الأرض به زينتها ويسير الإنسان حثيثاً في طريق الحضارة الإنسانية كادحاً عاملاً حتى إذا ظن أنه قد وصل الغاية جاء أمر الله وقامت الساعة ذلك أن الله يدعو إلى الآخرة باعتبارها دار السلام والراحة وبخلاف الدنيا التي هي دار الشقاء والتعب والكدح.

وفي سورة نوح يؤكد الخالق تعالى على معنى الخلق والإنبات **﴿والله أنبتكم من الأرض نباتاً * ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً﴾** [17-18].

وإذا كانت الأرض من طين والماء سبب الحياة فيها فإن الإنسان من طين وصلصال مهين، والماء سبب الحياة فيه وهي فطرة عامة في الخلق يقول الحقّ تبارك وتعالى في سورة النور **﴿والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير﴾** [43] والإنسان هو كذلك خلق وكان الماء سبباً في خلقه **﴿فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب﴾** [الطارق 5 ـ 7].

ومثلما البذور تحتاج إلى الماء لينغلق الحب ويخرج الحياة فإن ماء الرجل يحمل معه البذور لتوضع في رحم المرأة ويبدأ الانفلاق والتكاثر حتى يستوي إنساناً كامل الخلقة. **﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾**.

الزنا خروج عن الفطرة

حرم الله سبحانه وتعالى الزنا وتوعد الزاني بأشد العقوبات بل وجعل الزنا في مرتبة الشرك بالله ذلك إن فعل الزنا يسير في الاتجاه المضاد للناموس الإلهي الذي اقتضى أن يكون الإنسان مستخلفاً في الأرض. فالزنا علاوة على ما فيه من هبوط عن المستوى الإنساني إلى مستوى الغريزة المادي البحت فإنه وضع لماء الحياة حيث الموت. ولهذا اعتبر الله سبحانه وتعالى الزنا من الفواحش ومن السبل السيئة المنحرفة، يقول تعالى في سورة الإسراء **﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية**

إملاق نحن نرزقكم وإياهم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً * ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً * ولا تقتلوا النفس التي حرم اللّه إلاّ بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً﴾ [31]، وكما تلاحظ فقد جاءت آية الزنا بين آيتين كليهما تتحدثان عن القتل الأولى تنهى عن قتل الأولاد خشية إملاق وهي عادة جاهلية لا زال لها أنصارها إلى اليوم ولا زالت تدرس في الجامعات كنظريات «علمية» «كنظرية الدعي مالثوس».

والثانية تنهى عن قتل النفس التي حرّم اللّه إلاّ بالحق. والزنا ذاته قتل مادي ومعنوي، وهو قتل للإنسانية والإنسان وهبوط بهما إلى درك الحيوانية وهو قتل لماء الحياة بوضعه في غير محله وهو قتل معنوي للمولود الذي ينشأ من الزنا إذ يعيش في هذا المجتمع ميتاً حكماً وإن كان يعيش جسداً.

ولا غرو والحال كذلك أن اعتبر القرآن الزنا والشرك بمرتبة واحدة وجعل عقوبة من يزني ألا يتزوج إلاّ زانية أو مشركة لأن الزنا محرم على المؤمنين ولأن الطيبين للطيبات والطيبات للطيبين. يقول تعالى في سورة النور ﴿سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات * الزاني والزانية فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين * الزاني لا ينكح إلاّ زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلاّ زانٍ أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين﴾ [المؤمنون 1 ـ 3] ﴿الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات﴾ [النور26] فعقوبة الزنا عقوبة مادية ومعنوية. عقوبة مادية لهذا الإنسان الزاني الذي ماتت فيه الإنسانية فحقه أن يعاقب عقوبة مادية وهنا يكون الجلد عقوبة مادية لمن مات فيهم الإحساس والإنسانية وعقوبة معنوية عظيمة لمن يتدبر فيها إذ يكفي أن يعامل الإنسان جسداً وأن يعاقب على هذا الأساس، أما العقوبة الثانية في حق الزاني فهي أن يتزوج امرأة طيبة كما أن المرأة الزانية لا تتزوج رجلاً طيباً بل يفرق بين الزوج الزاني وزوجه الطيبة والعكس. فإذا رغبت الزواج تزوجت زان أو مشرك وإذا أراد الزاني الزواج نكح زانية أو مشركة وهنا نقول إنه لو طبق هذا الحكم المعنوي لوقينا مجتمعاتنا الزنا ولا أريد أن أدخل هنا.

السكن واللباس

أشرت إلى أن العلاقة بين الذكر والأنثى هي علاقة مثمرة تحقق مشيئة اللّه تعالى في استمرار الكون والحياة إضافة إلى أن هذه العلاقة هي التي تليق بالإنسان باعتباره مكرماً فضله اللّه على الكثير من خلقه وقد وردت آيات في القرآن الكريم تشير إلى المعنى السامي لهذه العلاقة علاوة على كونها مثمرة وغير عابثة، يقول الحق تبارك وتعالى في سورة الروم **﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لايات لقوم يتفكرون﴾** ويقول تعالى في سورة البقرة **﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم اللّه أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب اللّه لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد تلك حدود اللّه فلا تقربوها كذلك يبين اللّه آياته للناس لعلهم يتقون﴾** [186].

فهاتان الآيتان الكريمتان قد عبرتا عن العلاقة الإنسانية السامية التي تربط بين الزوج وزوجه بالشكل الذي لا يتحقق معه أية علاقة منحرفة فالسكون والطمأنينة والراحة هذا الإحساس العظيم هو شعور إنساني مطلق لا يحس به إلّا الإنسان الكامل ولا يكون هذا الإحساس إلّا مع العلاقة السوية بين الرجل وزوجه أما علاقات الزنا فإن قوامها الخوف والقلق والرعب والخوف من الآخرة أكثر رعباً وأشد وطأة!...!.

إن العلاقة الزوجية بما فيها من مودة لا تكون بين الزاني والزانية إذ أن علاقة الزنا قائمة على الانتهازية والمنفعة بل لا أجدني متجاوزاً إذا قلت إنها تبنى على الحقد والكراهية والاحساس بالدونية والمهانة، كما أن العلاقة الزوجية فيها الرحمة أما الزنا فليس فيه إلا نقائض الرحمة من قسوة واستغلال واحتقار ويكفي أن يتم التعامل بين الذكر والأنثى على أساس الجسد والذين يبيعون أجسادهم مقابل ثمن مادي، لذة أو عرض الحياة الدنيا، فإن قيمتهم هي ما أخذوا ونهاية ما أخذوا حسرة وألماً وخسراناً في الدنيا والآخرة.

كما يعبر الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة عن الرابطة بين الزوج وزوجه باللباس.

واللباس فيه الستر الذي يليق بالإنسان كما أنه فيه الدفء والحنان وهي أحاسيس لا يشعر بها إلا من سمت روحه وهذه العلاقة بهذا المعنى لا تكون في العلاقات غير الإنسانية على أساس الزنا والتي فيها الفضائح والعار وفيه النفور والتقزز وفيها التعرية والانكشاف سواء في الدنيا وهذا الأهون أو في الآخرة وذلك أشد وأقسى. ومن هنا فإن أية علاقة لا تكون على هذا الاساس هي علاقة باطلة وغير إنسانية تكون عقوبتها مادية ومعنوية ومستمرة ما استمر هذا الفعل غير الإنساني الشائن إلى أن تكون التوبة.

وهنا أشير إلى ما يعرف في بعض البلاد «الإسلامية» بزواج المتعة أو «الزواج المنقطع» وهو زواج كما يقولون يحدد بفترة زمنية يتم الاتفاق عليها إذا انتهت هذه الفترة ذهب كل إلى حال سبيله ويؤلف أنصار هذه البدعة الكتب ويؤولون الآيات القرآنية لتخدم أغراضهم بل إن بعضهم يقول بأن القرآن الكريم قد دعا صراحة إلى هذا النوع من الزواج ويستشهدون لذلك بقوله تعالى في سورة النساء **﴿حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نساءكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن اللّه كان غفوراً رحيماً * والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب اللّه عليكم وأحل لكم ما وراء ذلك أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة إن اللّه كان عليماً حكيماً﴾** [23-24].

فهؤلاء يسيرون في تأويلهم الباطل إلى قوله تعالى **﴿فما استمتعتم﴾**.

ولكن هذا القول مردود للاعتبارات الآتية:

أولاً: ان ما يسمى بالزواج المنقطع. لا تتحقق فيه الحكمة الإلهية من

الزواج وهي السكن والمودة والرحمة فهذه العلاقة المحددة بزمان تتعارض والسكينة التي يحققها الزواج كما أنها تتعارض والمودة والرحمة التي لا تكون إلا بالمعاشرة الزوجية والتقاء الأرواح قبل الأجساد.

ثانياً: إن الآيتين الكريمتين تناولتا المحرمات من النساء على سبيل النكاح أي الزواج الشرعي والذي يشترط فيه الإحصان وعدم السفاح الذي هو من خصائص الزواج المنقطع.

ثالثاً: إن المتعة هي نتيجة الزواج وليست سببه إذ أن السبب في الزواج هو للحكمة التي أوردها اللّه وبالطبع فإن العلاقات الزوجية الإنسانية تحل لكل منهما أن يستمتع بالآخر هذه علاوة على أن الاستمتاع ليس بالضرورة أن يكون جسدياً خالصاً فالسكن، والمودة، والرحمة أحاسيس في قمة الإنسانية.

رابعاً: إن التعلل بأن هذا الزواج كان موجوداً زمن الرسول أمر مردود عليه لأن القرآن الكريم قد أورد أن هناك الكثير من العلاقات بين الذكور والإناث مخالفة للشريعة **﴿إلا ما قد سلف﴾** أي أن ما قد سلف كان يحوي الكثير من العلاقات المحرمة والرسول صلّى اللّه عليه وسلّم وإن كان لم يفرق بين المتزوجين زواج متعة فبسبب ما ترتب على ذلك من نتائج فالإسلام يجب ما قبله ولكن لا يبيح انتهاك حدود اللّه بعد وضوحها.

والخلاصة إن نكاح المتعة نكاح جاهلي يتعارض والنكاح الشرعي الذي أقرّه الشارع الحكيم ودعا إليه ليكون مودة ورحمة وسكناً ولباساً.

و ـ مثنى وثلاث

تعرضت آيات القرآن بحكم المنطق الذكوري الجاهل إلى الكثير من التأويل والتحريف وقد ذكرت لذلك بعض الشواهد وبقي أن أشير إلى موضوع تعددت فيه الآراء وهو موضوع تعدد الزوجات وقبل أن أتناول الآية الكريمة التي وردت في سورة النساء والتي يتم الاستشهاد بها في هذا المقام أشير إلى أن القاعدة الإلٰهية التي تقتضي الوحدة تقتضي عدم التشتت الذي نتاجه القلق وانعدام الراحة والسكينة فالأصل في الزواج أن يكون بين اثنين لا أكثر فالرجل بامرأته زوج وهي به زوج وهما بهذا زوجان وحكمة اللّه تعالى اقتضت منذ

الفطرة أن يتم تكاثر الإنسان من زوجين اثنين وهو الأصل والخروج عن هذا الأصل شذوذ وليس قاعدة والشذوذ لا يكون إلا لظروف قاهرة تفرضه وهذا ما يؤكده الحق تبارك وتعالى ويدعو إليه غير أن التفاسير الذكورية جعلت من هذا الشذوذ الاضطراري قاعدة وحاولت أن تجعلها حقاً للذكر في أن ينكح مثنى وثلاث ورباع، يقول الحق تبارك وتعالى في سورة النساء **﴿وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً * وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا﴾** [النساء 2-3].

ويقول تعالى في سورة النساء **﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن اللّه كان غفوراً رحيماً﴾** [آية 128].

فالآية القرآنية تشير إلى زواج اليتامى باعتبار أن الراغب في الزواج منهن إذا كان وصياً عليهن قد يخشى بحكم علاقة الزواج ضم أمواله إلى مال هذه اليتيم أي يكون خوف الجور وعدم القسط وهذا الخوف يفرض على الوصي الراغب في الزواج أن يبحث عن زوج أخرى من غير اليتامى اللاتي يقوم بالوصاية عليهن وحتى وإن تزوج غيرهن فإن القرآن يشترط العدل فإذا خاف الراغب في الزواج الأ يعدل فالواجب ألاّ يقدم على التعدد ويقتصر على الأصل وهو «الواحدة» **﴿وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾** أي فزوج واحدة **﴿أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا﴾** أي ألا تظلموا وتجوروا. ثم يؤكد الحق تبارك وتعالى أن الرجال لا يمكن أن يعدلوا بين النساء حتى ولو حرصوا وهناك تكون الآية منعاً لمن يرغب التعدد عن تجاوز الواحدة لعدم العدل الذي قطع اللّه عدم تحققه رغم الحرص وهو أعلم بنفوسنا، كما أنها أمر للذين سبق وأن عددوا الزوجات بعدم الميل المطلق لإحدى الزوجات وترك الثانية كالمعلقة لا هي بالمتزوجة ولا بالمطلقة فهذه الآية تمنع التعدد لمن لم يقم به أصلاً أو ينوي التعدد كما أنها تجبر الذي وقع في التعدد بألا ينحرف ويميل الميل كله إلى زوج واحدة دون إعطاء الأخرى حقوقها واحترام إنسانيتها.

المصادر والمراجع

أولاً: المصدر: القرآن الكريم:

ثانياً: المراجع:

أ ـ المراجع العربية:

1 ـ أحمد بن فارس بن زكريا، أبو الحسن، معجم مقاييس اللغة مكتب الاعلام الاسلامي، إيران.

2 ـ حسن عميد، فرهنك فارسي عميد، دار نشر امير كبير، طهران ايران، 1985.

3 ـ عبد الحليم محمود، التفكير الفلسفي في الإسلام، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1982.

4 ـ عبد المنعم محمد حسنين، قاموس الفارسية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982.

5 ـ عبد اللّه بن أحمد محمود النفي، دار الكتاب العربي، بيروت.

6 ـ محمد حسن الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، قم، إيران.

7 ـ محمد قريب، تبيين اللغات لتبيين الآيات، دار نشر بنياد، طهران 1987م.

8 ـ محمد محسن الكاشاني، تفسير الصافي، مؤسسة الأعلى للمطبوعات بيروت، لبنان.

9 ـ محمد بن مكرم بن منظور، جمال الدين، لسان العرب، دار صادر بيروت.

10 ـ محمد بن يعقوب، مجد الدين الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مصطفى البابي الحلبي، مصر 1952.

11 ـ مهدي امبيرش، القرآن ومشكلات الإنسان، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، الجماهيرية، 1981

12 ـ مهدي امبيرش، نحو الإنسان الكامل، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس الجماهيرية، 1987.

ب ـ المراجع الأجنبية:

1 - The American Heritage Dictionary, Hougnton mifflin company Bostan, U.S.A.

2 - Chamber's twentieth century dictonary, W & R. Chambers, willafied press. Britain, 1960.

3 - Encyclopedia Americana, Library Congress, U.S.A, 1979.

4 - Encyclopedia International.

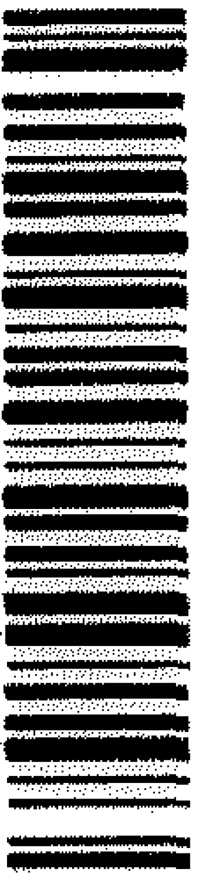
5 - The Webster Dictionary of the english language, consolidated book publishers, U.S.A.

فهرس

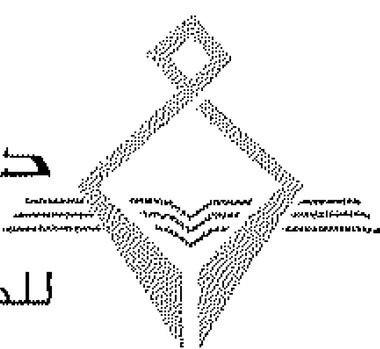
نظرات في الدّين

يقع الكثير من المفســرين للقرآن الكريم والباحثين في علومه في خطـأ جوهري ربما يمسّ العقيدة أصلاً ذلك أنهم يعتبرون الإسلام هو فقط ما جاء به الرسول صلّى الله عليه وسلّم وينسون أو يتناسون أن الدين دين واحد وأن مشيئة الله قد اقتضت أن يكون الرّسل جميعاً رســلاً لهذا الدين الواحد مع اختلاف شــرائعهم وأن مهمة كل واحد منهم إضافة لبنات إلى هذا البنــاء الذي تم اكتماله بشــريعة القرآن الإســلامية وقد وقع المخططون للتعليم في الجامعات الإسلامية في هذا الخطأ حيث جعلوا في هذه الجامعات أقساماً أسموها «أقسام الأديان المقارنة» وهم يقصدون بذلك الشرائع المقارنة مع الفارق الكبير بين الشرائع والدين أي بين الوســائل والغاية، بل ربما قرأت لهؤلاء المتخصصين كتباً ودراسات تحمل عنوان «الأديــان المقارنة» وهم يقصدون بذلك رســالات موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

إن القرآن الكريم يؤكد في أكثر من موضع أن الأنبيــاء والرّســل جمعياً مسلمون وأن رسالاتهم كلها جاءت تكمل صرح هذا الدين الإلهي الواحد.







دار المُلتقى
للطباعة والنشر